هنرييت عبودي

http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/

وداعاً يا ماردين

رواية

بترا

الفرات

هنرييت عبودي

وداعاً يا ماردين

رواية

❄ عنوان الكتاب: وداعاً يا ماردين

❄ تأليف: هنرييت عبودي

❄ الطبعة الأولى: 2009

❄ الناشرون:

دار الفرات للنشر والتوزيع
www.alfurat.com

بيروت - لبنان
شارع الحمرا، بناية رسامني
هاتف: 750054 1 00961

دار بترا للنشر والتوزيع
www.darpetra.com

دمشق - سوريا
هاتف: 4433112 11 00963
جوال: 507106 944 00963
ص. ب 10250

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو استعماله بأي شكل، إلكتروني أو ميكانيكي، بما في ذلك النسخ، التسجيل، أو عبر أي أداة تخزين أخرى، من دون إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى أمي

وإلى جميع الذين عانوا، ومن ثم سامحوا.

لماذا هذه الرواية

كانت إذا ما استذوقت حبة عنب سارعت إلى القول: «يبقى دعنب ماردين أحلى وأزكى».

وكانت إذا ما أكلت قطعة من الجبن الشهي عقّبت على الفور: «لا شيء يمكن أن يضاهي جبن ماردين نكهة».

وكانت إذا ما أعدّت لنا شواءً، يسيل اللعاب لما يفوح منه من الروائح، ضحكت من إقبالنا النهِم عليه وقالت: «ماذا كنتم ستفعلون لو قدمت لكم طبقاً من قليّة ماردين؟ كنتم ستلتهمون اللحم والطبق معاً».

حتى قمر حلب – ويعلم الله كم هو جميل قمر حلب في لياليها الصيفية – ما كان ينال كامل رضاها: فأين هو من «قمراية» ماردين؟ ذلك أنها ثابرت على التكلم بلهجة ماردين مع أنها غادرتها وهي طفلة.

وما من مرة أتت فيها بذكر مدينتها، التي تتفوق على سواها بمناخها وبساتينها، بأهلها وعاداتها، بطعامها وسهراتها، إلا وكنت أمازحها قائلة: حتى لو بقي من عمري يوم فسأذهب لزيارة ماردينك هذه.

عندما كنت أتعمد تكرار هذه العبارة كانت أمي لا تزال على قيد الحياة وكنت أنا لا أزال في مقتبل العمر. عمر كان يبدو لي مديداً، مطاطاً، له نهاية ولا شك، ولكن بعيدة... ومضت السنوات، وشسعت المسافات الفاصلة بيني وبين مدينة أمي، وتضاءلت، إلى حد التلاشي، فرص زيارتها. ولكن بقي العهد الذي قطعته على نفسي يلازمني ويلّح عليّ بالتنفيذ. فعزمت على النهوض بتلك الرحلة، بتلك العودة إلى ينابيعي الأولى، ولكن بالوسيلة الوحيدة المتاحة لي: أعني المخّيلة، فانكببت على كتابة هذه الرواية.

ثمة اعتبار آخر دفعني إلى محاولة إعادة إحياء أجواء وأحداث لم أكن، بالطبع، شاهدة عليها: شعوري بأن للماضي حق الحضور في ذاكرتنا، وبأن

علينا واجب السهر عليه. فمن الظلم أن تكون آلاف مؤلفة من الضحايا البريئة قد قضت في لحظة من لحظات جنون التاريخ من دون أن تجد من يرثيها ويروي فاجعتها. ذلك أن ماردين، التي اختارت أمي ألا تحتفظ عنها إلا بالذكريات الحلوة، كانت في مطلع القرن الماضي مسرحاً لجرائم همجية وتصفيات جماعية أسوة بسائر مناطق ولايات الأناضول الشرقية. ولئن حفظت ذاكرة التاريخ المجزرة الرهيبة التي حلّت بالأرمن، بل حرب الإبادة التي هدفت إلى استئصالهم، فقد أسقطت من حسابها مأساة السريان الذين قدمّوا عشرات الآلاف من الضحايا، لا على مذبح التمييز الإثني، بل على مذبح التمييز الطائفي: فقد جرى الفتك بهم وتهجيرهم لا لسبب إلا لكونهم من دين مغاير.

عندما كنت أصغي إلى الفواجع التي ألمّت بهم، ترويها عليّ خالة مسنّة كانت في عداد من هاجر إلى حلب واستقر فيها، كنت، رغم تأثري الشديد بكل ما أسمع، أشعر أن هذه المآسي هي ملك ماضٍ ذهب إلى غير رجعة. أفلم نكن نردد، منتشين: «الدين لله والوطن للجميع»، ساخرين من الطائفية، محيلينها، في أذهاننا، إلى متحف التاريخ؟

ولكن أحداث لبنان جاءت توقظنا من حلمنا الجميل! فقد عاد «القتل على الهوية» يحصد الضحايا البريئة؛ في بلاد الأرز أولاً، وفي بلاد الرافدين والعديد من الأقطار العربية الأخرى لاحقاً. وما عادت آلة القتل تكتفي باستهداف التمايز الديني، بل غدت تبحث عن وقودها في التمايز الطائفي داخل الدين الواحد، وهي لا تني تزداد شراسة وضراوة حتى غدا شبه مستحيل أن ينقضي يوم واحد بدون أن نسمع عن سقوط ضحايا لم تقترف من ذنب سوى أنها تمثل «الآخر» الذي أمسى ممقوتاً لأسباب يتأبى العقل عن فهمها، فكم بالأحرى عن المصادقة عليها.

«وداعاً يا ماردين» رواية، وهذا يعني أن للخيال فيها دوراً رئيسياً. لكن رجال السياسة والإدارة من أبطالها حقيقيون، كما أن أحداثها المأسوية هي

وقائع تاريخية مثبتة. وفي مطلق الأحوال، كان الخيال سيخونني، كما كان سيخون أي روائي آخر، في تخيّل نظائر تلك الجرائم الهمجية التي اقترفت بحق أبرياء: فالواقع، هنا، يفوق بالفعل كل خيال.

يبقى أن أقول إن بعض المصادر تقدّر إجمالي عدد الضحايا من السريان، في سلسلة الاضطهادات والمجازر التي شهدها الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، بأكثر من خمسمائة ألف.

باريس آذار/مارس ٢٠٠٩

هـ. ع

-1-

وحده القمر بات يضيء الباحة الفسيحة؛ فقد انطفأت الأضواء تباعاً في الحجرات المتحلّقة من حولها. كانت أمه قد نادت عليه مراراً قبل أن تبادر، بدورها، إلى إطفاء سراجها، «إن الساعة متأخرة والطقس بارد»، قالت وهي تلح عليه كيما يأوي إلى فراشه. «لن أتأخر»، أجاب، «نامي أنت». في جيب سترته كانت السيجارة ترقد؛ تحسّسها بأصابعه وتلمّس حبّات التبغ المتفتّتة من حولها. لماذا أعطاه إياها سليم وهو يبتسم بحزن؟ ألأنه أصبح، حقاً، المسؤول عن الأسرة؟ عن أمه وشقيقتيه؟... لقد تسارعت الأحداث في الآونة الأخيرة؛ استجدّ منها في أشهر ما لا يحصل في أعوام. أحداث جلّها مفجع، بدأت بابتعاد شقيقيه وانتهت بوفاة والده!... لم يبلغ السادسة عشرة إلا قبل أيام. فيوسف، ابن زكريا مسعود وبهية الأحمر، قد ولد في ماردين في مطلع عام ١٨٩٩. شقيقاه ممدوح وسليم أكبر منه سناً، ولئن دخلت شقيقته أديبة عامها السابع عشر، فإن ابنة الأسرة الصغرى، لطيفة، لا تزال في التاسعة. لقد صُدِمت الطفلة برحيل والدها. كانت شديدة التعلق به، وكان هو يخصّها بمعاملة مميزة. يقبّلها لدى عودته من عمله، يغدق عليها بالهدايا، لا يؤنبها إن ارتكبت حماقة، ولا يسمح بأن يوبخها أحد أو يرفع صوته عليها حتى ولو تقاعست عن تأدية واجباتها. أمّه تبرر بصغر سنّها هذا الانحياز لصالحها؛ حجة لبقة ولكن غير مقنعة. فقد كان هو الآخر طفلاً في وقت من الأوقات، وكذلك أديبة؛ فلماذا لم يخصّهما والدهما بهذا التسامح وبهذا الحنان؟ لم يكن أباً صارماً؛ لم يكن عنيفاً ولا ظالماً. كان وقوراً، متزناً، حريصاً على صون مكانته الاجتماعية. فهو سليل أسرة مسعود العريقة، ومسؤول في دائرة النفوس، أي موظف مرموق في الدولة العثمانية بالرغم من كونه مسيحياً.

على صهوة حصانه كان يقطع يومياً المسافة الفاصلة بين داره ودائرته، ملقياً التحية، بعبارات لبقة، على من يصادف في دربه من أعيان المدينة. وكذلك يفعل شقيقاه رزق الله وروفائيل. أما كريم، شقيقه الثالث، الابن الأصغر ليونان مسعود، فما عاد يتقيد بهذا التقليد!... ما عاد يمتطي، أصلاً، صهوة جواد منذ أن أصابته رصاصة طائشة في عموده الفقري. أكانت حقاً طائشة؟ من يستطيع إعطاء جواب قاطع ونهائي في هذه الأزمنة المضطربة... لقد شُلّ المسكين وبات طريح الفراش. لم يتمكن حتى من إلقاء نظرة أخيرة، نظرة الوداع، على شقيقه، مع أن غرفته ملاصقة للجناح الذي تحتله أسرته في هذه الدار الكبيرة!... لقد أحسن جدّه الصنع عندما شيّد هذه الدار؛ أرادها على صورة القصور فجاءت كما شاء. رجلاً أنوفاً كان، جدّه يونان. من يتأمله في الصورة اليتيمة التي التُقطت له يخاله وزيراً أو أميراً. فقد بدا فيها جالساً فوق كرسي من الخشب المحفور والمرصّع بالعاج، يده اليمنى، التي يزينها خاتم مربّع السطح، ممدودة فوق ساقه؛ يد طويلة الأنامل، زاد في بروز بياض بشرتها البنطال الأسود المخطط الذي يرتدي. تحت سترته، المصنوعة على الأرجح من نسيج مخملي، بان قميصه الحريري المزرَّر حتى العنق. وأكثر ما كان يسترعي انتباهه في هذه الصورة، التي لم يعرف جدّه إلا من خلالها، استقامة الطربوش فوق رأسه. فهو لا يميل يميناً ولا يساراً، ولا ينحرف إلى الخلف ولا ينحني إلى الأمام. لقد سأل والده، ذات يوم، هل كان من عادة جدّه أن يضع طربوشه على هذا النحو أم أن المصوّر هو الذي اختار له هذه الوضعية؛ يذكر أن والده ضحك، على غير عادته، وهو يجيب: «وهل كان المصوّر سيجرؤ على أخذ مبادرة كهذه؟ كلا؛ هكذا كان جدّك يضع طربوشه، وكان ينفق وقتا غير قليل حتى يضبط استقامته». ويذكر أن والده أضاف بعد هنيهة: «كان جدك ينشد الكمال في كل ما يفعل. وأملي أن تأتوا على صورته أنت وإخوتك».

تُرى هل سيُقدّر له، هو يوسف، أن يأتي على صورة ذلك الجد الذي عزّز

مكانة الأسرة ورفع من شأنها؟ لقد فشل أبناؤه الأربعة في الارتقاء إلى سويته، بمن فيهم بكره، أي والده هو بالذات. يعزّ عليه أن يسلّم بهذه الحقيقة وقد غيّب الموت ذلك الأب الحبيب. ولكن كيف له أن يضع على قدم من المساواة موظفاً، ولو مسؤولاً، في دائرة النفوس، ومديراً عاماً للجمارك؟ ذلك أن جدّه، يونان مسعود، قد تبوأ هذا المنصب الرفيع على مدى عامين! وعندما شيّد هذه الدار أقدم على خطوة تحدّث عنها أهل ماردين والجوار على مدى سنوات: فقد أدخل إلى الدار المياه الجارية! جلب لها المياه من نبع يقع غير بعيد عن القلعة، أي من أعلى هضبة تحدّ البلدة، ممدّداً لها أنابيب على غرار ما يفعلون في اسطنبول ودمشق! ولئن قوبل مشروعه الطموح بالدهشة والإعجاب، فقد عاد عليه، أيضاً، بالانتقاد والتجريح، ولاسيما عندما توّجه بحوض يتوسط باحة الدار، تنفر فيه المياه من فم سمكة كبيرة منحوتة من الرخام. فهل يخال نفسه والياً أو متصرفاً حتى ينفق ببذخ ومن دون حساب؟ مآخذ، كان تعقيبه الوحيد عليها، كلما تطوع أحدهم بنقلها إليه، «ألا يكفي أن أكون المقدسي يونان؟»، متعمداً عدم ذكر شهرته، كأن اسمه وحده كافٍ ووافٍ للتعريف به، على غرار الأمراء والملوك...

لكم تمنى لو أنه عايش هذا الجد، ربما كان سيهديه إلى الطريق التي، إن سلكها، غدا مع الأيام يوناناً ثانياً. يونان الثاني!... فبين أبناء عمّيه لا يجد من تؤهله صفاته وخصائصه للظفر بهذا اللقب. أما شقيقاه فغير معنيين، أصلاً، بالسير على خطوات الجد. ممدوح، البكر، ابتعد مبكراً عن الأسرة والبلدة. عُيّن تحصلداراً واستقر في المنصورية حيث تزوج وهو دون العشرين. وعندما وضعت زوجته تردّد طويلاً قبل أن يعطي مولوده الذكر اسم أبيه، زكريا. كان قد اختار له اسم مكرم، وكان سيطلقه عليه لو لم تتدخل والدته وتردعه عن قراره. فهو الابن البكر وعليه، بالتالي، أن يعطي بِكر أبنائه اسم والده. لئن لم يرغب ممدوح في إدامة ذكرى أبيه، فكم بالأحرى صورة جدّه! أما سليم، فآهٍ، بل ألف آهٍ منه. كان حرياً به أن يولد أنثى؛ فأديبة أكثر منه

ذكورة! مثال للطيبة هو، بكل تأكيد؛ عطوف، حنون، محب، ولكن ضعيف ومتهور في آن، وتلك هي المصيبة! ضعيف أمام رغباته، ضعيف أمام تحديات الحياة، وعاجز عن التريث وعن الحكمة والاعتدال... سهل عليه أن يقدم له سيجارة وينصِّبه مسؤولاً عن العائلة؛ وفي ظرف لا أصعب ولا أحرج. أما كان في وسعه أن يرجئ موعد سفره إلى حلب ريثما تستقر الأوضاع، أو تنجلي على الأقل؟ فالبلدة في حالة من الغليان، بل العالم برمته يهدد بالانفجار!... لا عمل ينتظره في حلب ولا وظيفة. مع ذلك أصرّ على أن يغادر في اليوم الثالث لوفاة والدهم. ممدوح امتطى حصانه وتوجّه نحو المنصورية، وسليم ركب دابة وأخذ طريق رأس العين، حيث يمرّ قطار حلب. «لئن كان على عجلة من أمره»، قالت أمه لتبرر سلوكه، «فلأنه راغب في تعويض الأسرة عما أنفقته في سبيله»... لتعويضها عن الليرات الذهبية الثلاث والأربعين التي دفعتها بدلاً لإعفائه من الجندية. علماً بأنه كان سينجو منها بلا مقابل...

بالرغم من القنوط الذي تلبّسه في تلك الليلة ابتسم يوسف وهو يتذكر ما حصل يوم وقع سليم، وابن عمه أنيس، في قبضة إحدى دوريات ميليشيا «الخمسين» المكلفة بجمع الشبّان الخاضعين للجندية وبسوقهم إلى مكتب التجنيد. ذلك أن المسيحيين أيضاً، من رعايا الإمبراطورية العثمانية، قد غدوا ملزمين بخدمة العلم... قرار جديد تبلّغه أهل ماردين في مطلع شهر آب ١٩١٤، مع نبأ إعلان حرب كبرى دخلت الدولة العثمانية طرفاً فيها. لقد أثار هذا القرار موجة من الذعر في صفوف مسيحيي ماردين، من كثالكة وأرثوذكس وبروتستانت، من سريان وأرمن وأشوريين وكلدان. سارعت الأسر، التي بلغ أبناؤها سن الجندية، تبحث لهم عن يتيمات ليعقدوا عليهن؛ ذلك أن المتزوج من يتيمة يعفى من خدمة العلم. وفي بحر أشهر، بل خلال أسابيع معدودة، «نفدت» غالبية اليتيمات العازبات في ماردين، والمنصورية، والقصور، وقلعة المرأة، ومعصرتا، وديار بكر، ومديات، وعين ورد، وسائر البلدات والقرى المجاورة... ما عاد سن العروس، أو حسن قدّها، أو جمال

وجهها، أو عراقة نسبها، يؤخذ بعين الاعتبار. يكفي أن تكون قد فقدت والدها حتى تجد من يلحّ في طلب يدها.

لحسن الحظ، شاءت الصدفة أن يكون ممدوح قد تزوج من يتيمة. أما سليم فكان يجد علّة لكل يتيمة تعرض عليه؛ هذه شديدة السمرة، وتلك قصيرة القامة، وتينك هزيلة... وذات صباح حصل ما كان منتظراً: وقع في أيدي ثلاثة من عناصر «الخمسين»، ثلاثة من أولئك الأشرار الملقبين بـ«الشته». كان متوجهاً إلى السوق، بصحبة ابن عمه أنيس، عندما صادفتهما الدورية التي كانت قد جلبت شابين من آل السرياني انتزعتهما بالقوة من عقر دارهما. وفي لمح بصر، وقبل أن يدرك فداحة المصيبة التي حلّت به، وجد سليم نفسه مكبّل اليدين، ومساقاً، بالقوة، إلى مصير أسود.

في طريقها إلى مكتب التجنيد، اجتازت القافلة الصغيرة أزقة «البازار» المكتظة بالباعة والمشترين والمتسكّعين؛ تلاشى الصراخ والضجيج لدى مرورها ليحلّ مكانهما صمت مهيب. وتسلطت الأنظار على الشبان الأربعة، متعاطفة، متفهمة، أسيانة. وفجأة مزّق السكون المهيمن صوت بديعة، الكردية الحسناء، التي كانت قد قصدت «البازار» بصحبة خادمتها لشراء عطور من عند آرام الأعرج. قالت، مخاطبة واحداً من «الشتوات»: «ألا تخجل من نفسك يا حمو يا ابن الحرام؟ أتدري من هم هؤلاء الشبان؟ اثنان من بينهما من أولاد مسعود!... هيّا، أطلق سراح الجميع!». وفيما آثر المدعو حمو الصمت، مع أنه نُعت بابن الحرام، هجم رفيقه على بديعة يريد ضربها. غير أن العضو الثالث في الدورية أمسك به وهمس له في أذنه ببضع كلمات جعلته يعدل للحال عن مشروعه... فبديعة، التي يعرفها جيداً أعيان ماردين وآغواتها، قد أصبحت صاحبة نفوذ مع ارتقائها إلى مرتبة محظية المتصرّف حلمي بك!... وهكذا أفلتَ أنيس من أنياب الجندية. سافر إلى حلب غداة ذلك اليوم، ومنها إلى بيروت حيث استقلّ باخرة قادته إلى الإسكندرية. أما سليم، سليم العجيب الغريب، فقد أبى أن يدين بانعتاقه من العسكرية لامرأة

سيئة السمعة. وبدلاً من أن يطلق ساقيه للريح، أسوة بالمجلوبين الآخرين الثلاثة، بقي مع «الشتوات» وسلّمهم عنقه. مما اضطر والده، رحمه الله، إلى دفع بدل عنه لتجنيبه مصيراً أسود. هل كان سليم سيغالي في الدفاع عن عزّة نفسه لو لم يكن الوالد قادراً على دفع البدل؟ هل فكّر، لحظة واحدة، بجسامة التضحية التي يطلبها من الأسرة في زمن مضطرب، حالك، ينذر بالأسوأ؟ فالليرات الذهبية الثلاث والأربعون التي دُفعت عداً ونقداً في سبيل حريته كانت تكفي لتغطية نفقات عائلة بأكملها على مدى عام، بل اثنين. فأي ضرر لو وفّرها على ذويه لقاء طعنة صغيرة تصيب كبرياءه!

إنه يحب شقيقه؛ يفديه بروحه. ولكن كيف لا يلومه عندما يتصرّف على نحو غير مسؤول؟ كيف لا يؤاخذه، مثلاً، على رحيله اليوم إلى حلب البعيدة؟ أهذا الزمن الأسود هو للتجارة؟ حين صارحه بمخاوفه سارع يطمئنه: «إنهم لا يعتدون إلا على الأرمن، قال؛ أما نحن السريان. فلن يصيبنا أحد بأذى». سليم يتفاءل عندما يناسب التفاؤل مصلحته؛ أما هو فلا يستطيع إغماض عينيه عن الواقع، حتى لو كان هذا الواقع مقلقاً، مخيفاً. ربما كان أكثر نضوجاً من سليم حتى وإن صغره سناً. ربما كان شقيقه مدركاً لهذه الحقيقة، لذلك سلّمه زمام الأسرة. كان يبتسم بحزن عندما أعطاه السيجارة؛ أمن باب الشفقة إزاء جسامة المسؤولية التي ألقاها على عاتقه؟

ليكن الله في عونك يا سليم. وليكن في عوني، أنا الآخر؛ فالخوف الذي ما فتئ يلازمني منذ شهور قد تحوّل إلى غول مروّع مع رحيل الوالد.

-2-

- «أهذا أنت يا يوسف؟»

وقبل أن يجيب يوسف عن سؤال شقيقته الصغرى بادرت أديبة، التي لم تنم هي الأخرى، تجيبها بنبرة زاجرة: «ومن عساه يكون في رأيك؟ زائر دخل علينا فجأة قرابة منتصف الليل؟!». تجاهل يوسف هذا التعقيب وقال بصوت خفيض، وهو يتلمس طريقه إلى فراشه: «أجل يا لطيفة؛ هذا أنا. ينبغي أن تنامي الآن، فالساعة متأخرة». همست: «سأحاول»، غير أنها لم تفلح... من عادة يوسف أن يصلي راكعاً في جوار الأريكة الخشبية التي ينام عليها. مكثت الطفلة صامتة إلى أن تمدد الشاب فوق فراشه، عندها فقط قالت:

«لم أسمعه هذه الليلة أيضاً يغني». كاد أن يسألها «من؟»، إلا أنه سرعان ما أدرك من المقصود. وتابعت تسأل، رغم «الهسّ» القوية التي أطلقتها أديبة: «أتراه قد امتنع عن الغناء لأن الأسرة في حالة حزن؟». تأفف يوسف قبل أن يجيب: «لست أدري، ربما؛ نامي أنت».

يسهل على الكبار إصدار الأوامر للصغار! ولكن من أين يأتيها النوم وعيناها شاخصتان إلى السرير العريض المنتصب فوق المصطبة. سرير ظل شاغراً لليلة الثالثة على التوالي وقد هجرته أمها بدورها، مفضلة التمدد في جوار أديبة. عندما كان والدها لا يزال على قيد الحياة كانت الأم تسدل ستاراً أبيض من حول ذلك السرير حين تأوي إليه لتنام في جوار زوجها. ظل الستار مرفوعاً، الليلة أيضاً، كاشفاً عن خواء فراش يتراءى بياض غطائه رغم العتمة التي تلف الغرفة!

كان بودها أن تصغي إلى عمها كريم ينشد واحدة من أغانيه الحزينة. فمنذ أربعة أشهر، منذ حادثة إطلاق الرصاص عليه، وصوته يرتفع كل ليلةٍ

فينقبض له القلب تأثراً، وتدمع له العينان حزناً وأسى. فهو يناجي فيه خطيبته، التي لن ترتدي ثوب الزفاف الأبيض بعد أن «سوّدت رصاصة الغدر بختها»؛ ويتضرع لأمه، التي في السماء، لكي تسرع بأخذه إلى جوارها «لأن الموت أهون من الحياة في أسر الفراش»؛ ويناشد رفاقه ألا ينسوا أن «كريم، الذي قصم الدهر ظهره، كان فارساً مغواراً في يوم من الأيام»... في كل ليلة كان يبتكر أغنية جديدة، وينشدها بصوت عالٍ، فيشارك في حلقات السهر الدائرة عندهم أو عند العَمّين رزق الله وروفائيل...

كان بودها أن تسمعه يغنّي وإن تكن الأسرة، بكامل فروعها، في حالة حداد. فهي بحاجة إلى أن تبكي، إلى أن تذرف دمعاً سخياً على والدها الراحل. لقد جفّت مقلتاها منذ أن فارق الحياة. بكت بحرقة حين تدهورت صحته وأخطر وضعه، وهجر الدمع عينيها بعد ما اختطفه الموت وفصله عنها. إنها تعجز عن فهم ما حصل. ففي بحر أسبوع هوى جبل على مرأى من ناظريها... والدها، مصدر عزّها وافتخارها... فهي ابنة زكريا أفندي، الوجيه الذي يخاطبه الجميع باحترام، والذي إن أخلد للنوم وقت القيلولة، بعد عودته من دائرته، حُرِّم على أولاد الجوار اللعب كي لا يقلقه صراخهم! وهو، بخلاف معظم آباء زميلاتها في المدرسة، لا يخرج مرتدياً قنبازاً أو سروالاً، بل بنطالاً وسترة؛ كما أنه لا يسير على قدميه، بل يمتطي جواداً يتولى سائس متفرغ العناية به. وهو يجيد القراءة والكتابة علاوة على كل ذلك. ولئن كانت تستهويها حركة بعينها من بين سائر حركاته، فإقدامه على فتح ملازم الكتاب الذي يطالع فيه بقطاعة ورق ذات مقبض من المينا والذهب. كيف قضى ذلك الرجل المهيب، العظيم، خلال أيام معدودة؟ كان دعامتها، سندها، الحصن الذي لا يطالها مكروه إن احتمت به. فإذا به ينهار كما لو أنه جدار من تراب. «انعقد مصرانه» قالوا، فلم تفقه لا كيف انعقد ولا كيف استحال فكّه. أمور كثيرة جدّت في الآونة الأخيرة فاقت قدرتها على الفهم. تخال، أحياناً، أن كل ما حولها قد تغيّر وإن حافظ، ظاهرياً، على

شكله المألوف... فالسهرات العائلية بقيت تنعقد، ولكن الأحاديث الدائرة فيها ما عادت على سابق عهدها. فالكلمات التي غدت تتردد فيها باستمرار هي «اختفاء» و«اختباء»، و«سَوْق»، و«فدية»، و«تذبيح»، و«شتوات»، وسواها من المفردات التي ترتهب لها النفس. وقد ظلت الأعراس تقام، ولكن بغير فرحة ولا بهجة؛ فكأن الشباب ما عادوا يتزوجون إلا ليُعفوا من الجندية... والآن، الآن بيتها ما عاد بيتها وإن لم يطرأ أي تغيير على بنيانه أو أثاثه. لم يعد مرفأ أمان بعد رحيل أبيها. لو ارتفع صوت عمها بالغناء، لو أنصتت إلى الكلمات التي تصف عذابه ولوعته، لربما استطاعت أن تبكي أباها. لربما تحررت من حالة الذهول التي هي فيها. لكن العم بقي صامتاً هذه الليلة أيضاً. أديبة أيضاً لم تنم بعد - إنها واثقة من ذلك - وإن لم يصدر عنها صوت أو حركة. لو استفسرتها عن أسباب صمت العم لحظيت، في أفضل الأحوال، بالإجابة التي سمعتها قبل يومين: «كيف يتحسّر على مصيره بعد المصيبة التي ألّمت بنا؟!».

هذا إن لم تبادر أديبة إلى نهرها وأمرها بالاستسلام للنوم. فلكأنها لا ترغب فيه! ولكن كيف تنام وعيناها شاخصتان إلى السرير الشاغر، هنالك، فوق المصطبة؟ كيف تغمض هاتين العينين على صورة ذلك السرير؟ ألكي تتراءى لها من جديد في منامها فتفزعها وترهبها؟ آه لو كان كل ذلك مجرد حلم مزعج! مجرد كابوس، كما يقول الكبار، تصحو منه لترى والدها جالساً في سريره، يصلّي مسبحته اليومية قبل أن يخلد للنوم.

-3-

كلما دخل زائر جديد بادر إلى طرح السؤال عينه: «أسمعتم بالخبر؟»، «أجل» كان يؤكد العم رزق الله، متولياً الإجابة عن الحضور الذين ضاقت بهم القاعة الواسعة. فاليوم تصادف الذكرى الأربعين لوفاة زكريا مسعود، وقد غصّت الدار بالأقارب والأصدقاء والمعارف الذين جاؤوا يقدِّمون التعازي. ممدوح أتى من المنصورية، وشقيقتا الراحل، سلمى ووردة، قدِمتا بدورهما مع زوجيهما، الأولى من القصور والثانية من ديار بكر. تغيَّب سليم، لأن حلب «ليست على مرمى حجر من ماردين» كما أوضحت بهية، أرملة الراحل، الحلبية الأصل.

يوسف، الجالس بين العمّين رزق الله وروفائيل، كان ارتدى سترة والده السوداء. ولما سألته لطيفة كيف هان عليه أن يلبس ثياب أبيه، علّل سلوكه بحرصه على استقبال المعزّين بمظهر لائق. «يوسف على حق»، عقَّبت أديبة. إن يوسف دوماً على حق في نظر أديبة، حتى ولو تصرّف وكأنه قد غدا ربّ الأسرة الجديد، متعدياً على من هم أكبر منه سناً! فقد جلس في صدر الدار، بين عميّه، في حين انزوى ممدوح بين جمع من الزوار، عند العتبة. كانت لطيفة تأتي له بفنجان جديد من القهوة المرّة حين دخل ميخائيل العوّاد، منحني الظهر على عادته. لم يسأل المجتمعين إن كانوا قد سمعوا بالخبر، لذلك بادرت لطيفة تستفسره:

«هل علمت بالذي حصل؟»، سألته بفضول. وإذ بدا واضحاً على ملامحه أنه «لم يعلم» ارتفعت جوقة من الأصوات تزفّ إليه الخبر المذهل: «لقد مُنح الأسقف مالويان وسام استحقاق»؛ «أعطاه السلطان نيشاناً»؛ «حصل عليه بموجب فرمان»؛ «نيشان الشاهاني الذي مُنح هو من أسمى الأوسمة وأرفعها

مكانة»: «لقد ذُهل الأسقف عندما أُبلغ بالنبأ؛ فهو لم يطلب أي وسام من الباب العالي، ولم يكن يتوقع، أصلاً، أي بادرة إيجابية من السلطات العثمانية بعد الذي حصل...».

قطع ميخائيل العوّاد سيل التعليقات الصادرة من كل صوب ليقول، وهو يخلع طربوشه ليحكّ صلعته الجافة البشرة: «ما عدت أفهم شيئاً! فقبل أسبوعين، في يوم أحد الشعانين، في أواخر آذار الماضي، اقتحم العسكر الكنائس ليسوقوا الشمامسة بالقوة إلى مكاتب التجنيد. وكانوا، قبيل انتهاء الصوم، قد اعتدوا على أديرة وكنائس فسرقوا ودنّسوا، وأحرقوا، وكسّروا بحجة البحث عن فارّين من الجندية. حتى دير الزعفران لم ينج من شغبهم وأعمال عنفهم، فهل حلّت نعمة الفصح على السلطان كيما يخص المطران مالويان بوسام استحقاق؟» ضحك ممدوح وأجاب: «من المؤكد أن نعمة الفصح قد حلّت على المتصرّف حلمي بك. فقد قام بجولة على الكنائس يوم العيد الكبير، والتقى بالأساقفة والكهنة وعلى رأسهم الأسقف تبوني. وقد انتزع هذا الأخير من المتصرف أذناً بالتجول في ماردين وضواحيها للرهبان الدومينيكانيين الثلاثة الملتجئين إلى أبرشيته. فمنذ شهور وهؤلاء المساكين يعانون من الأسر». «تقصد الرهبان الفرنسيين الثلاثة القادمين من الموصل؟»، سأل إلياس كنعان، زوج العمّة سلمى. «أجل، أجاب ممدوح؛ فقد أُغلقت إرساليتهم في أواخر العام الماضي وسيقوا، مع بقية رهبان الدير، في اتجاه خربوت. ولما لم تسمح لهم حالتهم الصحية المتردية بمتابعة السير مع القافلة أُذن لهم بالالتجاء إلى مطرانية السريان الكاثوليك. دخلوا إليها يوم الميلاد...»، فقاطعه عمّه رزق الله ليقول: «ولم يخرجوا منها إلا بعد عيد الفصح!»

خليل نعمة، زوج العمة وردة، الذي كان قد لزم الصمت طول الجلسة، مكتفياً بالإصغاء وبطقطقة حبّات مسبحته السوداء، رفع صوته للمرة الأولى ليعلن: «إن المتصرف حلمي بك رجل منصف في الحقيقة. وقد أكد

لي ذلك صديقي صبري آغا عندما زارني في ديار بكر قبل أسبوعين. فما أن تَسلّم المتصرف الجديد زمام منصبه في كانون الأول الماضي حتى فاتح الآغا برغبته في معاملة جميع رعايا الإمبراطورية العثمانية على قدم من المساواة، فلا يفرّق بين كردي وعربي، أو بين مسلم ونصراني». ولدى سماعه هذا المديح انبرى إلياس كنعان، زوج العمّة سلمى، يعارض بانفعال: «رجل منصف قلت!؟ وأين الإنصاف؟ إن بكاء أهل ماردين ونحيبهم باتا يُسمعان حتى في بلدة القصور! ألم يحدثك صديقك الآغا عن الاعتداءات المتكررة على الإرساليات والأديرة؟ عن نهب محتوياتها والتعرض بالإهانة والشتم والضرب لرهبانها وراهباتها؟ عن بيع ما سُرق منها في المزادات العلنية؟... ولكن أنتم اليعاقبة تنبرون دوماً للدفاع عن الأتراك، فهم يحسنون معاملتكم دون بقية المسيحيين من الطوائف الأخرى».

هبّ خليل نعمة واقفاً وكأنه سينقضّ على عديله المتطاول على اليعاقبة. غير أن ممدوح، الجالس غير بعيد عن إحدى النوافذ المطلة على باحة الدار، سارع يقول وهو ينهض بدوره: «ليس هذا وقت للسجال بين أرثوذكس وكثالكة؛ فقد جاءنا الشيخ مصطفى حمدان لتقديم التعازي».

وما هي إلا ثوان حتى دلف من باب القاعة الشيخ الوقور، يرافقه ولداه حامد وعلوان. وبعد أن صافح الحضور من الذكور فرداً فرداً اقترب من أرملة الراحل وقال لها بصوت متهدج: «لقد كان زكريا، رحمه الله، بمثابة شقيق لي. اعتبري نفسك في حمايتي، أنت وأولادك، في هذه الأيام الصعبة». وما إن احتل المقعد الذي أخلاه له يوسف حتى أضاف، متوجهاً إلى المتحلّقين من حوله: «ثقوا، أيها الإخوان، بأن الأيام القادمة سوف تكون قاسية على الجميع، ولاسيما على إخواننا الأرمن». ونظر إلى شفيق كسبو وهو يتفوه بكلماته الأخيرة، فهزّ الرجل رأسه موافقاً، وأطلق تنهّدة؛ فهو، بحكم كونه من أعيان الطائفة الأرمنية، معني أكثر من سواه بالتطورات المأساوية الحاصلة والمرتقبة.

ممدوح، الذي كان يحظى بمودّة خاصة لدى الشيخ حمدان، جلب كرسياً وجلس إلى جواره بعد أن وسَّع لنفسه مكاناً. بادره بالخطاب قائلاً: «إن التفاؤل من سماتك يا أبا حامد؛ ليس من عادتك أن تستسلم للأفكار السوداء. فلماذا ركبك الغم؟ هل وصلتك أخبار مثيرة للقلق وللمخاوف؟». هنا تدخّل خليل نعمة ليعيد ويكرر: «إن متصرف ماردين الجديد، حلمي بك، رجل منصف؛ هذا ما أكده لي صديقي صبري آغا. فلماذا لا نستبشر خيراً بتعيينه؟». ندّت ابتسامة حزينة عن شفتي الشيخ الذي أخذ كامل وقته قبل أن يجيب: «قد يكون حلمي بك منصفاً كما تفضلت، وقد يكون ظالماً؛ بيد أن موقفه، في كلتا الحالتين، لن يقدم ولن يؤخر!». «كيف؟» استفسر يوسف الذي كان يتابع النقاش باهتمام بالغ، «أليس هو متصرف ماردين؟» «أجل، أجاب الشيخ مصطفى حمدان؛ ولكن سنجق ماردين تابع لولاية ديار بكر، ورشيد، والي ديار بكر الجديد، معروف بقسوته، ودمويته، وعدائه للأرمن، وبمناداته بالتصفيات الجماعية لسائر الأقليات الدينية... وهو طويل اليد، شبه مطلق الصلاحيات في المنطقة. فوزير الداخلية، طلعت باشا، هو الذي عيّن هذا الطبيب، الشركسي الأصل، في هذا المنصب الحسّاس. ويبدو أن تعاونهما سيكون متواصلاً ووثيقاً. فقد أفادني مأمور في سراي الوالي أن خط تلغراف بات يربط مباشرة هذا السراي بوزارة الداخلية في اسطنبول. لماذا؟ كي يتمكن الرجلان من التشاور واتخاذ القرارات الحاسمة على نحو منفرد، أي من دون العودة إلى أي مرجع مسؤول آخر، بل من دون علم أي جهة مسؤولة أخرى... وهل كانت مثل هذه التدابير ستتخذ لولا خطورة المرحلة؟ لولا توقع أحداث وتطورات لا تبشّر بالخير على الإطلاق؟».

وجال الشيخ بنظره على الحضور، مبتسماً للطيفة التي كانت تصغي إليه بإمعان، وأضاف بنبرة حزينة: «بصراحة أيها الأخوان، إني أتوجس مما سيحصل؛ فقد كشّرت الذئاب عن أنيابها، والويل، الويل للنعاج وللخرفان!». «أدخلت الذعر إلى نفوسنا يا شيخ، صاح العم رزق الله؛ لا ريب في أن الأوقات

صعبة، والأخبار سيئة، والتعديات علينا شبه يومية. ولكنك تصوّر الوضع وكأننا مقدمون على كارثة مروّعة لن ينجو منها أحد!».

هنا تدخّل بكر أبناء الشيخ حامد ليعطي المزيد من الإيضاحات: «ما إن وصل رشيد إلى ديار بكر في مطلع آذار الماضي، قال، حتى بادر إلى اتخاذ سلسلة من الإجراءات لا تبشر بالخير. فالمعاونون الذين اختارهم معروفون باستبدادهم، وظلمهم، وتطرفهم. فقد عيّن البمباشي رشدي بك قائداً للدرك؛ والحال أن هذا الضابط الشركسي يكنّ للطائفة الأرمنية كراهية غير محدودة. أما بدر الدين بك، الذي نصبّه مشرفاً عاماً على الإدارة المدنية للولاية، فهو لا يميز بين الأرمن وسواهم من النصارى، بل يدعو إلى «تطهير» الأراضي العثمانية من سائر الأقليات الدينية».

وأمسك حامد عن الكلام للحظات قبل أن يتابع، وهو يجيل نظره في الحضور: «أمّا مسك الختام في هذه التعيينات فهو إسناد قيادة الشرطة، من جديد، إلى ممدوح!... أجل، سوف يعود إلينا ممدوح بعد أن كان قد حوّل إلى أضنة».

ارتفعت الأصوات تستعيذ، وتستنكر، وتلعن ممدوح، وأمه، وأجداده، والساعة السوداء التي جاء فيها إلى هذه الدنيا. وإزاء هذه الجوقة من الأصوات الزاجرة والشاتمة، دبّ الذعر في قلب لطيفة فهرعت إلى شقيقها تستفسره عن سبب هذا العداء المفاجئ تجاهه. ضحك ممدوح وطمأنها للحال: «ليس أنا المقصود، قال، وإنما واحد ملعون وإن سميّ ممدوح».

«ما ينذر أكثر بعدُ بالخطر، تابع حامد بعد أن خفّت موجة التعليقات على عودة ممدوح، هو إقدام الوالي رشيد، فور تسلمه زمام منصبه، إلى الإعلان عن تشكيل ميلشيا قوامها ألف عنصر من «الشتوات» توضع في إمرة جميل زاده مصطفى...».

ولم يدعه ميخائيل العوّاد يتم عبارته إذ سأله بصوت حاد، وهو ينتفض في جلسته: «أتقصد السفّاح الذي اقترف مجازر الأرمن عام ١٨٩٥؟ المجرم

الذي سفك بلا رحمة دماء الأبرياء؟». هز حامد رأسه مؤكداً وأردف يقول: «إن حثالة الولاية من نصّابين إلى قطاعي طرق إلى قتَلة راحت تتبارى للانضواء تحت راية هذه الميليشيا، وقد أفادنا دركي من ديار بكر أن بعض السفلة قد عرضوا دفع خمسمائة ليرة عثمليّة عدّاً ونقداً لقاء تطويعهم في هذه الميليشيا». «يدفعون هذا المبلغ الطائل ليخدموا في ميليشيا، لماذا بحق الرب؟». سأل يوسف الذي بقيت الليرات الذهبية الثلاث والأربعون التي دفعتها الأسرة لتجنيب سليم خدمة العلم عالقة في حلقه. وتولى شفيق كسبو الإجابة عن سؤاله: «لأنهم سوف يجنون أضعاف ما دفعوا، قال؛ لأنهم سيسلبون، وينهبون، ويأكلون الأخضر واليابس بحجة الدفاع عن أمن الإمبراطورية؛ لأنهم لن يدعوا متليكة واحدة في جيب أرمني، ولا رغيفاً واحداً على مائدته، ولا ثوباً على ظهره؛ لأنهم سيبيعون الناس ويشترونها، وسيغمسون مدياتهم في أعناق الأبرياء. ليكن الله في عوننا!...».

وأضاف، وهو يستدير نحو الشيخ حمدان: «نحن نستقوي بك وبأمثالك يا شيخي. فبيننا خبز وملح وعلاقات إلفة عريقة ومتينة». «سنكون عند حسن الظن، أجاب الشيخ الجليل؛ أنا وسواي. فلا الشرفاء انعدموا، ولا أصحاب النخوة. ولكن، إن كان لي من رجاء، فهو ألا تقضي حوافر بهائم الشر على زهور الخير وبذورها».

-4-

- هل أمك هي التي أعدّت هذه الصفائح؟ فهي تبدو لي شهية.

أسندت لطيفة الصينية المعدنية التي حملت على طاولة صغيرة، في جوار عمها كريم، وأجابت وهي تبتسم بمكر:

- إنها تبدو كذلك فعلاً مع أنها من صنع زوجة عمي فريدة.

ضحك كريم وربّت على رأس الطفلة؛ ففريدة، زوجة شقيقه رزق الله، لا تجيد الطهو على الإطلاق. ونادراً ما ينقضي نهار دون أن يتشاجر الزوجان بسبب الطعام. دون أن يبادر رزق الله، بالأحرى، إلى نقد أو تأنيب أو زجر زوجته لأن الأطباق التي تعدّها لا طعم لها ولا نكهة.

فرشت لطيفة فوطة بيضاء على السرير الذي استوى فيه عمها ثم ناولته صحناً فيه أربع صفائح وقدراً من اللبن. «لا يزال «الشام-برك» ساخناً قالت؛ لقد جئت به من فوق الصاج مباشرة».

وأضافت وهي تتناول الصفيحة الخامسة الباقية في الصينية وتتأهب لأكلها: «إن رتيبة، شقيقة زوجة عمي فريدة، هي التي أعدت الصفائح، لا تستغرب، إذن، إن كانت حقاً لذيذة!...».

بعد أن فرغ العم من الأكل وأولع سيجارة سألته الطفلة إن كان يرغب في فنجان من القهوة، فنفى. قالت له عندئذ: «إن كنت غير راغب في النوم أيضاً فسوف أعود إليك ثانية بعد أن أردّ الآنية الفارغة إلى المطبخ». «ألن تذهبي إلى المدرسة؟»، استفسرها مستغرباً. «أي مدرسة، أجابت على الفور، أنسيت ما حصل؟ لقد طُردت الراهبات بعد أن أشبعن شتماً وضرباً، وخُتمت أبواب الصفوف وغرف الدير بالشمع الأحمر». وتابعت بعد هنيهة، وقد ارتسمت ابتسامة رضى على شفتيها: «إن وردانة جبور مغتاظة لأنها بقيت تواظب على

المدرسة في حين تحررت أنا منها!... فلو تسجلتْ، على غراري، في مدرسة الراهبات الفرنسيسكانيات لكانت الآن في عطلة، ولكن والدها أصرّ على إرسالها إلى المدرسة البروتستانتية كي تتعلم الإنكليزية. راحت على وردانة المسكينة.. فسوف تواظب على الدراسة في حين أن معظم رفيقاتها في عطلة».

«سوف تشارِكهنّ هذا المصير في مستقبل عاجل، عقّب العم كريم؛ فيوم على الكثالكة وآخر على البروتستانت، ويوم على الأرمن وآخر على السريان!».

بعد هنيهة صمتٍ أضاف العم: «تقولين إن راهباتك قد طُردن. فهل كنّ، جميعهن، أجنبيات؟».

- لا، لقد رحلت الفرنسيات قبل أشهر، قبل عيد الميلاد. الراهبات الثلاث اللواتي بقين في الدير من أهل البلد؛ عربيات يحملن الجنسية العثمانية كما يكرر الأب أفرام. ولو سمعتهن يتكلمن بالفرنسية لغشيت من الضحك! إن هذه اللغة تُضحك بالأساس. ولو بقيت أتعلمها على مدى أعوام لما حفظت منها شيئاً: أشعرها غريبة عني، منغلقة في وجهي... ثم ما دخلنا نحن بنات ماردين و«فريرو جاكو»[١] ذاك؟ لماذا يتعين علينا أن نغني له كلما عقدنا حلقة في باحة المدرسة، أو كلما خرجنا في نزهة إلى الحقول مع الراهبات؟».

ضحك العم ملء صدره قبل أن يجيب:

- وماذا كنت ستغنين في مدرسة الراهبات؟ «لوركه لوركه على البركه» أو «مالاي يو مالاي؟»[٢].

ضحكت لطيفة بدورها ثم وسّعت لنفسها مكاناً على السرير وجلست في جوار عمها وساد بينهما صمت قطعته الطفلة أخيراً لتقول:

- يخال لي في بعض الأحيان أن ما من أمر قد تغيّر في حياتنا. يخال لي أن أبي سيدخل علينا، عائداً من عمله أو من السوق، محمّلاً بأكياس

١- مطلع أغنية فرنسية مشهورة للأطفال؛ و«فريرو جاكو» تعني «الأخ جاك».

٢- مطلعا أغنيتين شعبيتين من أغاني ماردين.

الفاكهة والخضار؛ أو أن ابنة عمي جوليا ستنادي عليّ في الصباح الباكر لتستعجلني الذهاب إلى المدرسة؛ أو أن سليم، الذي أطال السهر في الخارج، سيفتح باب الدار بتؤَدة ويأوي على فراشه بعد أن يكون خلع ثيابه في العتمة، أو...

وترددت الطفلة قبل أن تضيف:

- أو أنك سترفعني على ظهر حصانك وتأخذني في نزهة عبر الحقول والتلال!

طبع العم قبلة على جبهة الطفلة وقال بصوت حزين:

- يا ليت تلك الأيام تعود يا لطيفة... يا ليت الله يمنّ عليّ ولو بنزهة واحدة في صبيحة مشرقة!... أتذكرين كيف كنا نقطف التفاح والعنب والتين ونحن في طريقنا إلى القلعة؟ وكيف كان الحاج علي سعدو يلحّ علينا بزيارته كلما مررنا في جوار كرمه؟

وصمت العم كريم برهة قبل أن يضيف:

- وكيف كانت زكية تقطف لك الورود من حديقة بيتها؟

فقاطعته الطفلة قائلة:

- باقة من الورد الأبيض لي، ووردة حمراء لك...

وتابعت وهي تنعم النظر في وجه عمها الذي غدت ملامحه لا تنطق إلا بالحزن والقنوط:

- لماذا فسختَ خطوبتك؟ لماذا ترفض الزواج من زكية؟ فهي لا تزال تحبك! إن شقيقتها الصغرى، بهيجة، هي التي أكدت لي ذلك. أقسمت لي بأن زكية لا تكفّ عن البكاء، وبأنها تصوم وتصلّي كيما يكتب لك الله الشفاء.

- يبدو أن الله قد أسقطني من حسابه؛ نسي أن في ماردين شاباً ينتظر منه معجزة.

- ما هذا الكلام؟ وهل ينسى الله أحداً؟

ربت العم على يد الطفلة وقال بصوت متهدج:

- أنت على حق يا لطفو.. وحتى لو نَسيني، فعلاً، لما جاز لي التذمر؛ ذلك أن مشاغل الله كثيرة في هذه الأيام. فالمهدَّدون بالتشرد، بل بالتهجير والقتل، باتوا يقدَّرون لا بالمئات بل بالآلاف! والمصيبة الفردية تتجرد من أهميتها عندما تقارَن بالمصائب الجماعية. فمن الذي سيتحسّر على كريم مسعود، لأن ظهره قد قصم وهو في عز شبابه، وطوابير من الشباب تساق يومياً إلى موت أكيد؟

- أمن أجل ذلك ما عدت تغني في الليل؟

ولمّا بقي سؤالها بلا جواب تابعت الطفلة تقول:

- أكثر ما كنت أحب في نزهاتنا الصباحية وقفتنا عند مدخل القلعة، حيث كنا نطلّ على ماردين وعلى الحقول المحيطة بها. فمن ذلك الارتفاع تبدو أسطحة البيوت وكأنها درجات سلم ضخم يمكن القفز فوقها؛ فحيث ينتهي صف من الدُور يرتفع صف آخر... إن بيوت ماردين، يا عم، تبدو لمن ينظر إليها من جوار القلعة وكأنها متعانقة، متواصلة. فكيف يمكن أن يتعادى أهلها؟... هل سيتقاتلون فعلاً؟ هل ستقع مذابح مريعة كما يزعم يوسف؟ إني خائفة!... وبمن أحتمي؟ والدي رحل؛ ممدوح وسليم سافرا؛ وأنت... أنت غدوت طريح الفراش. فمن يبقى؟ يوسف؟ يوسف ليس برَجل: لقد كان يشاركني اللعب حتى فترة وجيزة...

«إياك أن تقولي ذلك في حضوره»، نبّهها العم وهو يضحك. وانحنى عليها بعد ذلك وقال: «أتعلمين ما معنى اسم ماردين في السريانية؟ معناه الماردة، القوية؛ لذلك ستظل بيوتها المتعانقة صامدة في وجه الفتنة والحقد والاقتتال. ستظل تَطلق نشيد المحبة والتآخي!...»

كان العم كريم شاعراً في زمن نُحر فيه الشعر.

-5-

– لعنة الله على هذا الجيل الفاسد! لا يحترم ولا يستهيب! أهذه حديقة أم مزبلة، يا أولاد الحرام؟!...

فيما كان ميخائيل العواد يلعن ويشتم وهو يتجوّل، منحني الظهر، داخل حديقة داره، كان جمع من الأولاد، المحتشدون خلف سياج من الحديد المشبّك، ينهالون عليه بالتعليقات الهازئة ويستهدفون الجنينة الصغيرة بما جمعوه من حصى ونفايات. مشهد ما كان يخرج عن مألوف البلدة. فمنذ زمن وأطفالها قد جعلوا من العوّاد، الهزيل البنية والقبيح الوجه، موضع تهكمهم. ربما لأنه لم يتزوج وينجب على غرار عامة الناس؛ وربما لأن مهنته، العزف على العود، قد ميزته عن أقرانه من رجال ماردين؛ وربما لأنه يعيش مع شقيقة صماء تضطره إلى الصراخ كلما شاء مخاطبتها وتعطي عباراته عكس مدلولها؛ وربما لأنه بخيل يتفنن في كيفية التوفير. يدخل على معارفه ساعة الغداء، مثلاً، وما أن يقولوا له «تفضل» حتى يسارع إلى مشاركتهم طعامهم؛ أو يجول في السوق في الصباح الباكر، بحجة ابتياع خضرة أو فاكهة، فيذوق حبة عنب من هنا، أو حبّة خوخ من هناك، ويقفل عائداً إلى بيته، بسلّة فارغة طبعاً. إنه لا يحتاج إلى كمية وافرة من الغذاء في مطلق الأحوال؛ كان نحيلاً في طفولته، وظل هزيلاً حتى شيخوخته. بعكس شقيقته هيلانة التي وإن تكن فقدت السمع مع تقدمها في السن، فقد حافظت، بالمقابل، على بدانة عهد شبابها. بدانة استحقت عليها حُبّ عزيز لحدو الذي أورثها داراً وقدراً من المال عندما لاقى وجه ربّه قبل سنوات. ميخائيل، الذي كان يعيش في دار شقيقته يوم كان زوجها لا يزال على قيد الحياة، بقي مقيما فيها بعد وفاة هذا الأخير. رحيل أكسب إقامته مشروعية جديدة إن جاز التعبير: فلئن فرض

نفسه على شقيقته الكبرى في الماضي، فإنه أضحى «يسهر عليها ويحميها» بعد ترمّلها. «من غير المعقول أن أدع امرأة مسنّة تعيش بمفردها»، غدا يقول أمام معارفه الذين كانوا يستقبلون إعلانه عن نخوته وشهامته بابتسامة ساخرة. فالجميع قد حفظوا عن ظهر قلب ميخائيل مالو، الملّقب بالعوّاد! ولطالما أُحييت سهرات بالتندّر على بخله. هذا يزعم أنه لا يتغوّط كي لا يأكل من جديد. وذاك يدّعي أنه لم يتزوج كي لا ينفق على بنات الناس. ولكن ما من دار، رغم ذلك، كانت توصد بابها في وجه العوّاد. لا لأنه يجيد العزف على العود فحسب، بل لأنه ضليع أيضاً في تاريخ أُسر ماردين، وبارع في رواية «مآثر» الآباء والأجداد. إن حرصه الشديد على توفير نقوده وعلى الاستفادة من خيرات الآخرين دفعه إلى تطوير إستراتيجية تملّق، برسم نساء البلدة بوجه خاص. فما إن يدخل إلى دار من الدور ويظفر بدعوة لتناول فنجان من القهوة أو كأس من شراب الورد أو التوت حتى «يغلب عليه الحنين إلى الماضي» و«يغمره فيض من الذكريات...» يطلق عندها تنهدة طويلة يتبعها بترحم على «أولاد الأصل» الذين شيّدوا الدار وخلّفوا فيها ذرية هي من خيرة القوم. ويبدأ بعد ذلك برواية فصول من تاريخ الأسرة التي تستضيفه، ملحّاً على الإشادة بسخاء الجد، أو بمروءة العم، أو بشجاعة الخال، مؤكّداً على عراقة نسلهم وعلى المكانة المرموقة التي تبوّأوا والمرتبة العالية التي احتلوا. ما كان يهمّه إن كان الجد «الرفيع الشأن» سمّاناً، والخال «المغوار» حارساً في بستان آغا من الآغوات. فالهدف المنشود هو دغدغة مشاعر من يستضيفه ودفعه إلى طلب المزيد من الحكايات حول أمجاد أجداده بحيث تطول الجلسة فتنتهي بدعوة على مائدة. ذلك أنه من المعيب أن يغادر ضيفٌ داراً ساعة جلوس أهلها إلى الطعام!...

ظِهْر ذلك اليوم لم يعرّج ميخائيل على دار آل مسعود، مع أن رائحة «الشام-برك» الزكية قد غمرته وهو يمرّ في جوارها. كان الباب الخارجي للدار مشرَعاً على مصراعيه، كاشفاً عن الباحة الواسعة وعن عدد من أبناء

الأسرة الذين تحلّقوا حول فريدة، زوجة رزق الله مسعود، التي جلست خلف الصاج تشوي الصفائح تباعاً. لمحه يوسف الذي كان يغسل وجهه وذراعيه في جوار حوض الماء فدعاه للدخول. اعتذر، على غير عادته. اعتذر وهو يكاد لا يصدِّق أنه اعتذر. فلو قيل له قبل أيام بأنه سيتأبى عن مأدبة عند آل مسعود، لنعت صاحب هذا القول بالأحمق والمجنون. ولكن تلك أمست حاله. لقد فقد شهيته للطعام واسوّدت الدنيا في عينه بعد ما سمعه من فم الشيخ مصطفى حمدان. لقد أُطلقت، إذاً، يد السفّاح من جديد! جميل زاده مصطفى عائد لينهب، ويشرّد، ويغتصب، ويذبح! عائد على رأس ميليشيا قوامها مجرمون وقتلة وقطاعو طرق! فكيف يبقى للصفائح مذاق وسرب من الكواسر يتهيأ للانقضاض على الضحايا البريئة؟ وكأن الهمّ العام لا يكفي فإذا سرب من الشياطين الصغار ينبري لينغّص عليه عيشه. فمع إغلاق معظم المدارس انتشر الأولاد في الشوارع وراحوا يبحثون عن سبل للتسلية. غدوا يتجمعون حول دار شقيقته ويقذفون حديقتها الصغيرة بما يعثرون عليه في القمامات! صحيح أن هذه الحديقة ما عادت تستحق اسمها. فقد هجرتها الأزهار منذ زمن، منذ رحيل صهره، عزيز لحدو، الذي كان ينفرد بالاهتمام بها. ولكن إن كانت قد تحولت إلى أرض جدباء، لا ينبت فيها عرق أخضر واحد، فهذا لا يعني أنها قد أصبحت مزبلة!

- سوف يتحول البلد برمته إلى مزبلة، قال مخاطباً نفسه: مزبلة يصيح فوقها ديك اسمه جميل زاده مصطفى!...

كانت هيلانة قد باشرت بتناول طعامها عندما دلف ميخائيل إلى الدار؛ لم يكن من عادتها أن تنتظره على الغداء، إذ غالباً ما كان يدعو نفسه على موائد الآخرين، مفضلاً طعامهم على طعامها. سألته، مع ذلك، إن كان قد أكل، ولمّا نفى بحركة من رأسه، عرضت عليه صحناً من شورباء العدس. كاد الدمع أن يطفر من عينيه وهو يرنو إلى وعاء الحساء الذي ما فتئ يتوسط مائدة شقيقته منذ ثلاثة أيام. أمن أجل هذا الطبق النتن تعالى على «شام-

برك» آل مسعود؟ لا، خير له أن يظل صائماً. إنه لا يشعر بالجوع في مطلق الأحوال. إنه يود أن يبكي. لو أمسك بعوده في تلك اللحظة لذرف الدمع حتماً... حريّ به أن يسعى إلى فراشه؛ فلو أخذ غفوة لأفلت لساعة، أو لبعض الساعة على الأقل، من كوابيس الماضي التي عادت تطارده.

مع أن الدار التي شيّدها عزيز لحدو قبل نصف قرن من الزمن كانت فسيحة - ذلك أن الرجل كان قد خطط لذرية لم يشأ الحظ أن ترى النور - فإن الغرفة التي خُصصت فيها لميخائيل كانت ضيقة، مظلمة، أشبه ما تكون بزنزانة أو بـ«قن دجاج» كما كان يحلو للعوّاد أن يصفها. كان الديوان الخشبي، الذي ينام فوقه، يشغل نصفها؛ أما نصفها الآخر فينحشر فيه مشجب، وطاولة واطئة صغيرة، وكرسي خشبي اعتاد ميخائيل أن يسند عليه عوده. فهو لا يضعه على الأرض أبداً، خوفاً عليه واحتراماً له. وعندما يضطر إلى الجلوس على الكرسي، يرفعه بتؤَدة ويضعه على فراشه، فوق الديوان. فهل له سواه في هذه الدنيا حتى يفرّط به؟ كان له ذات يوم صديق، غير أن أمثال جميل زاده مصطفى من الأشرار، المتعطشين أبداً إلى دماء الأبرياء، أودوا بحياته بعد أن جرّعوه كأس العذاب حتى الثمالة! نِعْمَ الرجل كان؛ ابن لا أبرّ، وصديق لا أوفى، ورب أسرة لا أسخى ولا أحنّ! وقد تنقضي عقود وعقود قبل أن يظهر شبيه لأفرام حنّا!...

لا يزال ميخائيل يذكر شتاء عام ١٨٨٨؛ برد ينسلّ حتى العظام، وجوع ينهش البطون، وخوف تنقبض له الصدور. فالثلج غطّى الحقول والدروب وأسطحة البيوت على مدى شهور، والمجاعة عمّت في الولاية برمتها، والجراد قضى على الأخضر واليابس، وحالة من الفلتان الأمني جاءت تزيد الطين بلّة. فقد غدا التنقل بين بلدة وأخرى محفوفاً بالمخاطر، بل أصبح الخروج من البيت بعد ساعة الغروب مجازفة لا تحمد عواقبها. وقد عانت ماردين أكثر من سواها من تلك الفاقة الرهيبة؛ أو ربما توهّم ميخائيل ذلك لأنه يعيش فيها. المهم أن موائد المعارف، بله الأقارب، ما عادت تَحسب له حساباً.

فحتى لو دخل على أسرة ساعة الغداء ما عاد يسمع كلمة «تفضل»، فأي أحمق سيفرّط بطعام لا يكفي، أصلاً، لسدّ جوع أهل بيته؟ وخلال شتاء النحس ذاك انقطع باب رزقه تماماً. فقد انعدمت السهرات والحفلات وما عاد أحد يرسل في طلبه. وكأن هذه المصائب لا تكفي فشاء سوء حظّه أن يتواجد صهره مع شقيقته في حلب. قصَداها قبيل عيد الميلاد وعزما على البقاء فيها حتى الربيع «طلباً للغذاء، وللدفء وللأمان» بحسب ما جاء في الرسالة التي حرّرها برسمه عزيز لحدو. هما ينعمان بمآكل حلب اللذيذة وينتقلان من بيت إلى آخر، معزَّزين مكرَّمين، وهو يعيش وحيداً، ككلب جعاري، يصارع الجوع والبرد والخوف ببنيته الهزيلة!

لولا أفرام حنا لقضى خلال ذلك العام الأسود. لم يكن ذلك الصديق المخلص يعيش في ماردين، بل في طور عابدين. تاجر حبوب معروف، ثري أباً عن جد، ومحب للفن والطرب. كان شغوفاً بالعود، يتفاعل مع أوتاره فكأنه عازف بارع أصيل. وكان كلما قدم إلى ماردين لضرورات عمله، يدعو ميخائيل على العشاء في حانة دكران الأرمني. «رجائي الوحيد - كان يقول - هو أن تحضر معك عودك؛ نأكل ونشرب ونشنّف آذاننا بعزفك». في ذلك العام الأسود اضطر دكران إلى إغلاق حانته. فقد نفدت مؤونته، وأقفر مطعمه، فانتقلت جلسات العزف والسمع إلى دار عزيز لحدو. كان أفرام يحضر معه من طور عابدين ما يكفي لإطعام أسرة على مدى أسبوع؛ كان يقيم في ماردين يوماً أو يومين ثم يرحل تاركاً لميخائيل زاده الوفير... ولولا سخاء ذلك الصديق، لولا كرمه وشهامته، لمات ميخائيل جوعاً من دون أن تُذرف عليه دمعة.

لكن شهامة هذا الرجل، طيبته وغيرته، لم تشفع له عند الرب عزّ وجلّ! فقد كان من أولى ضحايا أحداث العنف التي أدمت ديار بكر وطور عابدين في خريف ١٨٨٩. قيل إنه ذُبح على يدي عنصر من عناصر عصابة الشيخ سعدو التي ما فتئت تعيث فساداً في المنطقة، متعدّية على أرزاق المسلمين والمسيحيين

بلا تمييز. وقيل أيضاً إن زوجته قد اغتصبت أمام عينيه قبل أن يُقطع رأسها وثدييها، وإن ولديه، جرجس وجبرائيل، اللذين كانا في الثامنة والسادسة، قد بيعا لاحقاً في سوق الرقيق في منطقة باب النيرب في حلب. وقيل كذلك إن بهية، وحيدة صديقه، التي كان صيت جمالها الخارق قد ذاع في الولاية، قد أدخلت حرملك الشيخ أوسو وإن هذا الأخير قد أهداها، لاحقاً، لشخصية مرموقة: لأنيس باشا بحسب ادعاء بعضهم.

أنيس باشا! لعنة الله عليه وعلى ذريته هو الآخر. فعندما شغل هذا الدومنا، السالونيكي الأصل، منصب متصرّف ماردين، عامل سكانها المسيحيين معاملة الكلاب. وقد كانت له يد في حريق سوق ماردين في العام ١٨٩٢، حريق قضى على متاجر المسيحيين وحوانيتهم كافة. وحالما رقّي ذلك «الباشا» إلى منصب والي ديار بكر عمد إلى تنظيم المجازر الرهيبة التي عمّت بلدات الولاية وقراها في العام ١٨٩٥. عدد ضحايا ذلك العام الأسود قدّر بعشرات الآلاف؛ فقرى بأكملها محيت من الوجود، وقضى أهلها ذبحاً على أيدي عصابات يقودها «شتوات» من الأكراد تفتك وتدمّر بإيعاز من الوالي! فهل كُتب للمنطقة أن تعيش هذا الكابوس من جديد؟ لقد كان ميخائيل يصرّ على التفاؤل بالرغم من الأخبار غير المشجعة التي تصل من هنا وهناك؛ كان يتمسك بالتفاؤل ويتسلح به كي لا يفترسه القلق ويسحقه الخوف. ولكن بعد ما سمعه من الشيخ حمدان ما عاد للتفاؤل مكان! فليس من عادة ذلك الشيخ الجليل أن يبالغ، أو أن ينقل كلاماً غير موثوق بصحته؛ وليس من عادته، كذلك، أن يرتهب من كل عاصفة تهبّ أو أن يتوجس من الأخطار التي قد تحدق به. ولئن بدا مضطرباً، مبلبلاً بالأمس القريب، عندما قصد دار آل مسعود معزّياً، فلأنه مدرك لفداحة الكارثة التي سوف تحلّ بالبلاد؛ بسكانها المسيحيين في المقام الأول، أأرمناً كانوا أم غير أرمن!... ماذا قال خليل نعمة يومذاك؟ «إن المتصرف حلمي بك رجل منصف»... طظ بهذا الإنصاف! وطظ بالإنصاف العثماني جملة وتفصيلاً!. «لقد ذبَحنا هذا الإنصاف، ردّد

ميخائيل بلهجة ساخطة؛ ذبَحنا من الوريد إلى الوريد ولا يزال يسعى وراء المزيد!».

لو كان له صديق لأسند رأسه إلى كتفه في تلك اللحظة؛ لو كانت له زوجة لتمدد إلى جوارها فوق الأريكة؛ لو كان له طفل لضمه إلى صدره، يحميه ويحتمي به. لكنه، في هذه الدنيا، وحيد؛ ليس له فيها سوى عوده. عود احتضنه وشدّ عليه بكل ما يملك من القوة: فكأن أيادٍ شريرة تحاول أن تنتزعه منه.

-6-

- لماذا ترتدين هذا الثوب القاتم؟

طرحت لطيفة هذا السؤال على شقيقتها الكبرى، أديبة، وهي تتفحصها بعين ناقدة، فردت أختها، ممتعضة:

- وهل تريدينني أن أرتدي ثوباً أحمر أو أصفر ولم ينقضِ شهران على وفاة والدنا؟... ثم ما مأخذك على هذا الجلباب؟ أما كان ينال إعجابك عندما كانت تلبسه أمنا؟

تفادت لطيفة الإجابة الصريحة واكتفت بالقول: «كان بودّي أن أراك في لباس أزهى». فهل كان بوسعها أن تصارح أديبة برأيها؟ فعندما كانت أمها، البيضاء البشرة والمكتنزة الجسم، ترتدي هذا الجلباب الأسود، كانت تبدو وكأنها أميرة. أما أديبة، التي خلا جسمها الطويل والنحيل من التكورات الأنثوية، ووجهها الشاحب، القاسي الملامح، من ألق الشباب، فقد غدت فيه على غرار... الغراب الذي يحوم فوق سطح الدار! إن شقيقتها قابلة لأن تكون جميلة؛ فقد ورثت عن أمها عينيها الخضراوين وقامتها المديدة، وعن أبيها العنق الطويل وجلال الهيئة. غير أنها لا تعرف كيف تستغل ما مُنحت من ميّزات؛ لا تجيد إبراز مفاتنها. ماذا لو كحّلت عينيها، مثلاً، على غرار ابنة عمهما روزين؟... لو أسدت بهذه النصيحة إلى أديبة لاستحقت منها التوبيخ: فكيف تكحّل عينيها ولم ينقض شهران على وفاة والدهما؟ لكن عبد الجليل قادم اليوم لزيارتهم؛ أفلا يستحق قدراً من الكحل حول العينين؟ أفلا يستحق ثوباً أزهى شكلاً من ذلك الجلباب الفضفاض الذي فقَدَ، على كل حال، زهوة شبابه بعد أن مضت أعوام ثلاثة على تفصيله؟

إنها تودّ من كل قلبها أن تنعقد خطوبة أديبة على عبد الجليل. فالشاب

«جدير بمصاهرة الأسرة بالرغم من كونه أرمنياً»، كما يردد يوسف مستحقاً على هذا الحكم تعليقات سليم وممدوح الساخرة. فالاثنان لا يعلقان أي أهمية على الانتماء الطائفي، بعكس يوسف الذي يقيم تمييزاً بين السريان الأرثوذكس وسواهم من المسيحيين... إن عبد الجليل في مطلق الأحوال «مارديني حتى الشرش» كما يقول صديقه ممدوح؛ فتاريخ أسرته في البلدة أقدم من تاريخ أسرة مسعود، علماً بأن هذه الأخيرة قد استقرت فيها منذ زمن بعيد، «منذ مطلع القرن السابع عشر» يقول يوسف مفاخراً. وعندما كانت لطيفة تسأله: «وأين كانت تقطن من قبل؟»، كان يجيبها «في بلاد فارس في أغلب الظن». أين تقع بلاد فارس هذه؟ الله وحده يعلم! المهم أن عبد الجليل راغب في العقد على أديبة وهي «لا تمانع» كما ساررتها ذات يوم. لا تمانع؟... إنها تواقة إلى تلك الخطوبة، تحلم بها، تود لو تتم اليوم قبل غد. لطيفة واثقة من ذلك، بل هي مستعدة لأن تقسم بأن شقيقتها تعيش في انتظار ساعة انتقالها إلى دار عبد الجليل. ولكن ليس من عادة أديبة أن تعبّر عن مشاعرها؛ فمن المعيب، في رأيها، أن تجهر فتاة بعواطفها. ولطالما رددت أمام لطيفة أن ما يستهوي الشاب، لدى الفتاة التي يود الاقتران بها، الحياء والأدب، والسلوك الحسن. رأي ما كانت توافق عليه وإن تفادت دحضه احتراماً لشقيقتها الكبرى. فثمة أمور أخرى تلعب دورها، ولا بد، في اجتذاب الشاب؛ جمال الوجه مثلاً، أو رشاقة القد، أو براعة الكلام... فكيف وقع اختيار والدها على أمها؟ ما أن شاهدها في دار شقيقتها وديعة حتى حسم أمر زواجه منها! فهل اختبر حسن سلوكها، أو شدة حيائها، أو فرط أدبها قبل أن يتخذ قراره؟ طبعاً لا! لقد أحبّها على الفور لأنها بهية الوجه؛ اسم على مسمّى كما كان يقول! لطالما سمعت من خالتها وديعة قصة ذلك اللقاء الذي أسفر عن خطوبة، فزواج، فإنجاب خمسة أولاد... فقد كان والدها صديق جرجس رشو، زوج الخالة الذي كان قد ذهب حتى حلب ليأتي بعروس يليق حسنها بثروته الطائلة. هذا ما كان يزعم، وإن كان لعمّها كريم رأي آخر.

فهو يؤكد بأن جرجس ما كان سيقطع مسافات شاسعة ليظفر بزوجة لو لم توصد في وجهه أبواب بيوت أعيان ماردين. فأي أسرة وجيهة كانت ستوافق على مصاهرة هذا الشحيح؟ المهم أن والدها قصد داره صدفة، غداة وصول أمها من حلب لزيارة شقيقتها. كانت لا تزال في الرابعة عشرة وكانت تغنّي وهي تعدّ القهوة في المطبخ، غافلة عن وجود شخص غريب في البيت. وعندما خرجت إلى صحن الدار، حاملة صينية القهوة، أطلقت صرخة دهشة عندما وقع نظرها على شاب وقور جالس في صحبة جرجس رشو. احمّر خدّاها من شدة الخجل، وتعثّرت قدماها من شدة الارتباك ففقدت توازنها واندلقت القهوة التي طال بعض من قطراتها بنطال الزائر. «إنه فأل خير»، صاح هذا الأخير وهو يبتسم. وصدق قوله إذ لم يمض أسبوع حتى تقدم لخطوبة الحلبية الوسيمة...

أتُذكِّر أديبة بدقائق ذلك اللقاء الرائع؟ ولكن ما الفائدة؟ فشقيقتها متشبثة بآرائها، واثقة بأنها دوماً، وأبداً، على صواب. وها هي تعصب شعرها بمنديل أزرق، حارمة وجهها من هالته الطبيعية، مع أنها غير ملزمة بستر رأسها وهي في عقر دارها. فلو شاهدها عبد الجليل، مسدلة الشعر، أفما كان سيعجب بها أكثر؟...

سؤال بقي معلقاً لأن عبد الجليل لم يحضر في ذلك اليوم، ولا في الأيام التي تلته. فقد حالت أحداث مفجعة دون مشروع خطوبته...

-7-

مضى أسبوع بكامله قبل أن تقف أديبة على الأسباب التي حالت دون زيارة عبد الجليل سيوفي. بهجت، ابن عمها روفائيل، هو من تطوّع لإبلاغها ما حصل. كانت قد انضمت، بصحبة لطيفة، إلى أسرة عمها المجتمعة في قاعة الدار الرئيسية بغية مؤازرة زوجة عمها، ملكة، في خياطة ثوب جديد لابنتها البكر، روزين. أسرة عمها روفائيل كانت ستكون صورة طبق الأصل عن أسرتها فيما لو أنجبت ملكة صبياً ثالثاً. فبهجت هو في سن سليم، وعزيز في سن يوسف، وهي في سن روزين كما أن لطيفة في سن جوليا.

كانت الطفلتان قد أعربتا عن رغبتهما في ممارسة لعبة «الطمّة» عند عتبة القاعة: أي إخفاء بعض الخرز في كومة من التراب ثم التسابق إلى اكتشافه. وإزاء إصرار روزين على ألا تمارسا هذه اللعبة إلاّ في الباحة، عزفتا عن مشروعهما وآثرتا الجلوس إلى جوار الكبار والإصغاء إلى حديثهم. وفيما كانت روزين تستفسر من أديبة إن كان عبد الجليل قد زارهم أو أعطاهم من أخباره دخل عليهم بهجت، مكفهر الوجه، مضطرب الملامح. «كيف يعطي من أخباره، بادر إلى القول، وقد رحل إلى ديار بكر!»، «ديار بكر؟» سألت أديبة وملكة وروزين في آن معاً. ثم انفردت أديبة بالقول، بعد لحظة تردد: «وما الذي أخذه إلى ديار بكر؟... لم يأتِ بذكر هذه الرحلة عندما زارنا للمرة الأخيرة».

ألقى بهجت بنفسه على الأريكة وهو يجيب: «المصيبة، يا ابنة عمي، هي التي أخذته إلى ديار بكر!».

«ما الذي حصل؟»، «أي مصيبة؟»، «عم تتكلم؟»...

تجاهل بهجت هذه الأسئلة وقال مخاطباً أخته الصغرى، جوليا: «أحضري

لي كوباً من الماء... اسحبي الماء من البئر لتكون باردة...». وتابع، برسم روزين هذه المرة: «أما أنت فأعدّي لي فنجاناً من القهوة؛ لن أستطيع أن أروي لكنّ ما نُقل إليّ للتوقبل أن أركن إلى نفسي واستجمع أفكاري... كدت أفقد صوابي بعد كل ما سمعته من أخبار».

دنت لطيفة تلقائياً من ابن عمها وافترشت الأرض عند قدميه كي لا يفوتها حرف واحد مما سيقول. فليس من عادة بهجت أن يبالغ، ولا أن يفقد رباطة جأشه لدى سماعه أبسط نبأ سيء. ولئن كان على هذه الحالة من البلبلة فلأن مصيبة قد وقعت ولا بد.

أديبة التي كانت على أحرّ من جمر لمعرفة ما حصل لم تبارح مكانها، ولم تسع إلى استعجال ابن عمها بمحاصرته بالأسئلة. بل تظاهرت باستئناف عملها بأن أمسكت من جديد بقطعة القماش التي كانت قد تولّت تفصيلها. ولكن ما أن عادت روزين حاملة القهوة حتى شخصت عيناها إلى الشاب، ترقباً لما سيقوله.

ما رواه كان مروِّعاً. «ينبغي أن أضعكن في الصورة، قال، كي تدركن طبيعة التطورات المفجعة التي تحصل اليوم. فلست أدري إن كنتن قد سمعتن بكتائب الأسطحة؟ لا!... حسناً، سأحدثكن عنها. في العام الماضي، عندما أعلن النفير العام في البلاد، حصل في ديار بكر نوع من التمرد. فقد رفض فريق كبير من الشبان الأرمن، ما يقارب من ألفي شاب في الواقع، الانصياع لقرار التعبئة العامة. فلماذا يحاربون في سبيل الإمبراطورية العثمانية ولم ينقض ربع قرن على المجازر الرهيبة التي اقترفتها هذه الإمبراطورية بحق الأرمن؟ لماذا يدافعون عن بلد لم تذق طائفتهم فيه إلا مرارة العيش؟ ولماذا ينتصرون لحكم لا ينوي لهم إلا الشر؟ أعلن هؤلاء الشبان عصيانهم إذاً، والتجؤوا إلى أسطحة بيوت ديار بكر هرباً من ميليشيات التجنيد».

قاطعته روزين هنا لتسأل:

- ألم يكن في وسع تلك الميلشيات أن تجلبهم من فوق الأسطحة؟ أن تخليهم بالقوة؟

- لقد حملوا معهم أسلحتهم! إن إخلاء ما يقارب من ألفي مسلّح ليس بالعملية السهلة... لذلك بقي هؤلاء الشبان متمترسين فوق أسطحة بيوتهم على مدى أشهر. ولئن تطوّع بعض أبناء طائفتهم لتزويدهم بالطعام والشراب، فإن أعيان هذه الطائفة لم يؤيدوا، في غالبيتهم، هذا العصيان. لقد تخوفوا من نتائجه، من استغلاله من قبل السلطات للبطش بالأرمن دونما تمييز. وهذا ما حصل.

وأطلق بهجة تنهدة قبل أن يضيف:

- التقيت تواً في السوق بجميل نعوم العائد من ديار بكر. وما فصّله لي من أحداث يقفّ له شعر الرأس! فقد أمر رشيد، والي ديار بكر الجديد لعنة الله عليه، بتصفية كتائب الأسطحة. وقد استعان بميلشيا الشتوات، أي بمليشيا القتلة وقطاعي الطرق، لتنفيذ هذه العملية. وقد أُلقي القبض على المئات من الشبّان الأرمن ونُفِّذ بهم حكم الإعدام على الفور!

وتابع الشاب يقول، ترافقه صيحات الخوف والدهشة والاستنكار التي يطلقها جمهور مستمِعاته:

- لم تقتصر حملة السلب والنهب والاعتقال والقتل على المعتصمين فوق الأسطحة، بل شمل التنكيل الطائفة الأرمنية برمتها. فبحجة البحث عن أسلحة مخبأة صدر أمر بتفتيش بيوت الأرمن قاطبة. وقد استغلت عناصر الميليشيا هذا الأمر للاعتداء على أناس آمنين وللإثراء على حسابهم. صادرت كل ثمين عثرت عليه، من نقود، إلى مصاغ، إلى سجاد، إلى آنية من الفضة... وقد أشرف ممدوح بنفسه على «تفتيش» بيوت الأسر الثرية، سعياً وراء الغنائم؛ وفي جملة ما استولى عليه أربعة آلاف ليرة عثملية كانت أُخفيت في فراش في دار آل خشادوريان.

- وبأي حق؟ سألت لطيفة مستنكرة.

ربَّتَ بهجت على رأس الطفلة الجالسة عند قدميه وأجاب بمرارة:

- ومتى كانت لنا حقوق في ظل هذا الحكم الظالم...

فانبرت جوليا تقول:

- نحن لسنا أرمناً، نحن سريان، نحن لنا حقوق. أليس كذلك؟

أدرك بهجت أنه قد بالغ في تفصيل أحداث مأساوية في حضور الطفلتين. لذلك تظاهر بالابتسام وهو يجيب:

- طبعاً؛ نحن السريان اليعاقبة ننفرد بمعاملة خاصة.

هنا ارتفع صوت أديبة يسأل:

- ولكن ما دخل عبد الجليل بما رويته؟... ولماذا قصد ديار بكر ما دامت الأوضاع مضطربة فيها؟

بقي سؤالها معلقاً إذ دخل لحظتها على الجميع العم روفائيل يرافقه حنا، ابن العم رزق الله. ولئن افترّ ثغر روزين عن ابتسامة رضى لدى رؤيتها ابن عمها، فإن الامتعاض بدا واضحاً على ملامح أديبة إذ حال قدوم الرجلين دون حصولها على الجواب الذي كانت تترقب. هكذا خيّل إليها على الأقل. إذ ما إن استقر الرجلان في جلستهما حتى استأنفا حديثاً كان يدور حول التطورات الدامية التي تشهدها ديار بكر. وكان حنّا السبّاق إلى القول:

- فليعضّ أعيان الأرمن أصابعهم ندماً على ما حصل! لقد عارضوا المقاومة المسلّحة، ورضخوا لأوامر السلطات، ودعوا أبناء طائفتهم إلى تسليم سلاحهم. وماذا كانت النتيجة؟ لقد اعتُقل أكثر من ألف وخمسمئة واحد منهم بين عشية وضحاها. لم يميز ممدوح بين الأسقف والكاهن، بين الصيرفي والموظف الحكومي، بين التاجر والمهندس. حتى رئيس الأساقفة اندرياس تشيليبيان لم ينج من حملة الاعتقال؛ لم تشفع له أعوامه الثمانون. فقد زُجّ به في السجن أسوة بالشباب. وعندما أقول «السجن» أقصد غرفاً ضيقة يُحشر فيها المعتقلون كالبهائم. ومن لم

يقض منهم اختناقاً، مات تحت التعذيب!... قل لي بصراحة يا عم: ألم تكن المقاومة أشرف؟... لماذا تخاذل هؤلاء الأعيان؟ لماذا دلّلوا عن ذلك الجبن؟

- لا تصدر أحكاماً تعسفية، ردّ العم روفائيل. فيوسف قزازيان كان على رأس الذين عارضوا فكرة المقاومة المسلحة، وما من أحد يستطيع أن يتهمه بالجبن أو بالتخاذل؛ فهو بطل من أبطال المقاومة الأرمنية إبان أحداث ١٨٩٥... ولئن ضغط في اتجاه المسالمة فحرصاً على أبناء طائفته؛ لقد أراد أن يجنّبهم مأساة جديدة.

- وهل جنّبهم هذه المأساة؟ رد حنّا بانفعال.

- يبقى أنه حاول... والمقاومة، في مطلق الأحوال، ما كانت ستجدي نفعاً: فالمعركة غير متكافئة.

هنا تدخل بهجت ليقول بصوت خفيض، كأنه لا يريد إسماع كلامه لجميع الموجودين:

- ما عاد الأرمن وحدهم هم المستهدفين؛ لقد التقيت تواً بجميل نعوم القادم من ديار بكر، فأفادني بأنه قد جرى اعتقال عدد من أعيان الكلدان والسريان كذلك.

هز العم رأسه موافقاً فيما علّق حنا قائلاً:

- سمعت ذلك من أكثر من مصدر. والواقع أن أحداث ديار بكر كانت اليوم شغل السوق الشاغل؛ فقد كانت على كل لسان. وقد بدأ الخوف يتسرب إلى قلوب التجار، حتى أن جارنا، حسن عنتبلي، نصح والدي بإفراغ مخزننا من السجّاد العجمي الثمين، عارضاً نقله إلى داره لصيانته والحفاظ عليه... إن شئت الحقيقة: لقد أصبح مصيرنا على كف عفريت. قد لا ينفجر الوضع عندنا غداً أو بعد غد، غير أنه سينفجر لا محالة. وعندما ستشهر السيوف فلن تميّز بين الرؤوس...

إزاء صرخة الخوف التي ندّت عن جوليا الملتجئة إلى حضن أبيها أمسك

حنّا فجأة عن الكلام. سعى بعد ذلك إلى تغيير الأجواء، فتوجه بالكلام إلى روزين قائلاً: «هل أنجزت أمك ثوبك الجديد؟ إن لونه غاية في الجمال على حد زعم أمي. سوف ترتدينه، إذاً، يوم زفاف ابنة خالتك مجيدة!».

- هذا إذا أقيم حفل الزفاف، ردّت روزين. فلن يكون هنالك عرس إن بقيت الأوضاع تتوتر وتتدهور.

- تفاءلوا بالخير تجدوه، عقّب بهجت؛ لقد اعتدنا، في مطلق الأحوال، على مواجهة الأزمات وأصبحنا خبراء في كيفية التعامل معها.

- ما اتكالنا إلا على الله، قال روفائيل... وعلى أم البنين من بعده!

وابتسم وهو يتفوه بالكلمات الأخيرة إذ تزامنت مع دخول زوجته، حاملة صينية معدنية كبيرة يتصاعد منها البخار. «جئتكم بالطعام»، قالت وهي تسند الصينية فوق طاولة واطئة مستديرة تحلّقت من حولها طراريح مرّبعة الشكل غطّى بعضها نسيج مزركش وبعضها الآخر قطع من السجاد. أمسكت أديبة بيد أختها تريد الانسحاب فاستأهلت تأنيب زوجة عمها: «ما هذا التصرف؟ هل ثمة فارق بين بيتنا وبيتكم؟» وأضافت وهي تجيل بنظرها بين الحضور: «هيا اجلسوا جميعاً؛ حنا، لا تبارح أنت الآخر. لقد أعددت كبّة لبنية وأنت تحبها». «وماذا أعدت أمي؟»، سأل حنا وهو يشاور نفسه بقبول دعوة الغداء. «محشي كوسا»، أجابت وهي تتفادى النظر إلى روزين كيلا تنفجرا بالضحك. فزوجة العم، التي لا تجيد الطهو أصلاً، تفشل، على نحو ذريع، في إعداد ذلك الطبق بالذات. ولطالما حصل شجار بينها وبين زوجها بسبب الكوسا. «لست أدري لماذا تلحّ أمي على تحضير هذه الأكلة»، قال حنا وهو يأخذ مكانه على المائدة في جوار عمه. «كي تشغل المطبخ بلا جدوى» قالت ملكة ضمناً. غير أنها سرعان ما أنّبت نفسها على هذا الحكم القاسي بحق سلفتها. ففريدة تتفانى في سبيل أسرتها؛ وإن كانت جهودها لا تأتي بنتيجة، فالذنب ليس ذنبها. ولكن يبقى تواجدها في المطبخ المشترك بين الأسر الثلاث مربكاً، علاوة على كونه مصدراً للمتاعب. فهي إن استخدمت إناء، لا تعيده

إلى مكانه. وإذا غرفت الماء من الخابية، لا تفكر بإعادة ملئها، وهكذا...

قطعت عليها روزين حبل أفكارها لتسألها:

- ما رأيك أنت بمسألة زفاف مجيدة؟ هل يؤجل العرس؟ هل يلغى؟

- ولماذا؟ سألت ملكة؛ هل فُسخت الخطوبة حتى يتهدد مصير الزفاف؟

- قد لا تسمح الأوضاع بعقده، أوضح زوجها قبل أن يضيف، وهو يسترق النظر إلى ابنة شقيقه أديبة: لا زلت لا أرحّب بمشاركة أولادنا في ذلك الزفاف. فأسرتنا لا تزال في حداد...

تأففت ملكة قبل أن تجيب:

- سبق أن تداولنا في هذا الموضوع وانتهينا إلى قرار: الأولاد يحضرون العرس، أما أنا وأنت فلا، علماً بأن ابنة شقيقتي هي التي ستتزوج... وقد أطلعتُ بهية على قرارنا فوافقت عليه، وكذلك يوسف. أفلا يحق للشباب أن يمرحوا قليلاً في هذه الأيام الصعبة؟ هل ينبغي أن يسكنهم الغم من الصباح إلى المساء؟

استدارت بعد ذلك نحو روزين وتابعت تقول: «سوف تذهبين إلى زفاف ابنة خالتك وسوف ترتدين ثوبك الجديد... وبالمناسبة، أشكري أديبة على مساهمتها في خياطته. فلولا مساعدتها لما أنهيته في الموعد المحدد. إن أديبة بارعة في الخياطة كما هي بارعة في الطهو وفي إدارة البيت».

«هنيئاً لمن سيعقد عليها»، عقّب بهجت بنبرة مداعبة. ولكن ما أن تفوّه بهذه الكلمات حتى انقلبت سحنته. بدا فجأة مهموماً مغتماً، فكأن مصيبة قد حلّت عليه على حين غرة. ألقى نظرة أسيانة على أديبة التي لم تفتها ملاحظة هذا التحول. كانت الفتاة متحرقة لمعرفة أخبار عبد الجليل، بيد أن رصانتها، وحرصها الشديد على عدم الخروج عن أصول الآداب واللياقة، كانا قد حالا حتى الآن دون استجوابها لابن عمها. ولكن قدرتها على المقاومة انهارت إزاء القنوط الذي راح ينطق به وجه بهجت. سألته بجرأة أدهشتها، فكأنها ليست بحضور عمها وزوجته:

- لم توضح لنا، في النهاية، لماذا قصد عبد الجليل ديار بكر مع أن الأمن قد تدهور فيها؟

أخذ الشاب كامل وقته قبل أن يجيب:

- أنت تعلمين أن عمّه، القس مهران، مقيم هنالك. ويبدو أنه قد اعتُقل مع جملة الذين اعتقلوا. وعندما بلغ عبد الجليل النبأ سارع إلى ديار بكر، علّه يفلح في إنقاذه. وكان والده قد أعطاه مبلغاً من المال كي يفتديه إذا ما اقتضى الأمر...

ولزم بهجت الصمت، متردداً في مواصلة كلامه. ولكن عندما عادت أديبة تسأله بإلحاح وتصميم: «وما الذي حصل؟ هل وُفِّق في مسعاه؟»، أجاب متفادياً النظر إلى ابنة عمّه: «لا... لا يبدو أن عبد الجليل قد بلغ ديار بكر حتى يوم أمس الأول، هذا ما يزعمه جميل نعوم الذي غادر البلدة قبل يومين».

قاطعت ملكة ابنها قائلة بنبرة زاجرة: «ما هذا الكلام الفارغ؟ ومتى كانت روايات جميل نعوم تؤخذ على محمل الجدّ؟ فهل جال ديار بكر طولاً وعرضاً كي يجزم بعدم وصول عبد الجليل إليها؟».

امتعض بهجت من لهجة أمه فردّ على الفور، ناسياً وجود أديبة: «لم يَجب المدينة طولاً وعرضاً ولكنه سمع الخبر من مصادر موثوقة؛ من أشخاص مقربين من القس مهران، وعلى رأسهم الشماس إبراهيم عازار. عبد الجليل الذي غادر ماردين قبل ثمانية أيام لم يصل إلى ديار بكر!...».

ساد صمت ثقيل لم يقطعه أي صوت؛ فقد توقف الجميع عن الطعام، وتجمّدت الأيدي في مكانها. وتفادت روزين النظر إلى أديبة، وكذلك فعل حنا. أما لطيفة، التي أدركت أن أمراً خطيراً قد حصل، فقد ودّت لو تذهب للحال إلى عمها كريم، طلباً للحماية والأمان. شاورت نفسها في النهوض والمغادرة، لكنها لم تفعل. انتظرت بادرة من أديبة التي لم يرفّ لها جفن ولم تدمع لها عين بعد ما سمعته من بهجت. وكادت الطفلة ألا تصدق أذنيها

عندما انبرت شقيقتها تقول: «لا بد أن ظروفاً خارجة عن إرادة عبد الجليل قد حالت دون وصوله إلى ديار بكر في الموعد المحدد... الغائب عذره معه في مطلق الأحوال... لننتظر عودة عبد الجليل لنقف على حقيقة ما حصل». واستأذنت بالانصراف على الفور.

غادرت أديبة بيت عمها وهمّت لطيفة باللحاق بها؛ وكانت الطفلة قد بلغت الباب عندما سمعت بهجت يقول، بصوت مخنوق: «قد تنتظر المسكينة شهوراً وأعواماً قبل أن تقف على حقيقة ما حصل...».

-8-

مع أن أيار كان انتصف وغدا الصيف على الأبواب فقد هبّت عاصفة هوجاء على ماردين، مقتلعة من الجذور أشجار بساتينها، ومغرقة طرقاتها وساحاتها بسيول غزيرة، عنيفة، تجرف بلا رحمة كل ما اعترض سبيلها. فعلى مدى أيام ثلاثة لم ينقطع وابل الأمطار ولم تهدأ زمجرة الرياح؛ وما فتئت السماء تبرق وترعد، زارعة الهلع في قلوب الصغار وحاملة الكبار على تكرار عبارة بعينها: «إنه غضب الله... غضبه على ما يُقترف بحق الأبرياء!».

«غضب الله!»، كان ممدوح يردد بحدّة وانفعال وهو يصارع الطبيعة الهوجاء؛ وفي ظلمة الليل ارتفع صوته يسأل: «ولمَ يكتفي بالغضب؟ لمَ لا يتدخل؟». وامتزج سؤاله بهدير الرعد، وأزيز المطر، ووقع حوافر حصانه على حجارة الدرب المؤدية إلى القلعة. فعلى الرغم من ضيق وقته، ومن تردي الأحوال الجوية وتقدّم الساعة التي تجاوزت العاشرة ليلاً، فقد حرص على أن يقوم بزيارة للشيخ مصطفى حمدان قبل أن يقفل عائداً إلى المنصورية. ودارُ الشيخ الوقور تقع في أعالي الهضبة التي تنتصب فيها القلعة. «إن دخولك على الشيخ، في مثل هذه الساعة، تصرّف غير لائق، أما إصرارك على العودة هذه الليلة إلى المنصورية فهو الجنون بعينه». كانت العبارات التي ودّعته بها أمّه لا تزال ماثلة في ذهنه؛ أما وجهها، الذي ما كان ينطق إلا بالحزن والقلق والخوف، فلم يفارق مخيلته... كان بودّه أن يبقى إلى جوارها، يحميها ويحتمي بها؛ كان بودّه أن يظل في عقر الدار المنيعة التي شيّدها جدّه في منأى عن المخاطر والأهوال التي تحدق بمن يجازف بالتجول ليلاً؛ كما كان بوده أن يحتضن الآن صغيره، أن يتمدد في فراشه إلى جوار زوجته... ولكن عليه

أن يقطع مسافات شاسعة قبل أن يبلغ فراشه في المنصورية؛ وعليه أن يعرّج قبلاً على دار الشيخ حمدان للوقوف منه على حقيقة ما يجري في البلاد. فهل هنالك، حقاً، مخطط جهنّمي يرمي إلى القضاء على الأقليات القومية والدينية؟ هل ستُهجَّر هذه الأقليات وتصفّى؟... إن أجل، فلماذا؟ ولمصلحة مَن؟...

أخبار مروعة تناقلها الناس في الأيام الأخيرة، فما مدى صحتها؟ في المنصورية سمع أن ماردين تحترق فهرع إليها، رغم أن زوجته، الحامل في شهرها السادس، هي في أمسّ الحاجة إلى وجوده إلى جوارها. وصل إلى ماردين ظهراً فسخر من مخاوفه؛ كان يتوقع أن يشاهد ألسنة نار ترتفع نحو السماء، فإذا به يفاجأ بحبال من الماء هابطة منها. وقد عزا إلى الرياح الهائجة والسيول الجارفة تحول ماردين إلى مدينة أشباح: فقد أقفرت طرقاتها تماماً وبدت بيوتها، المغلقة النوافذ، وكأنها منكمشة على نفسها، حابسة أنفاسها ارتهاباً من العاصفة. وكان قد أمسى على مسافة وجيزة من دار أهله عندما صادف ميخائيل العواد خارجاً من مدرسة الراهبات. كان هذا الأخير يسير مطأطأ الرأس، مقوس الظهر، حاملاً في يده صرّة من القماش الخمري. ارتعد عندما نادى عليه ممدوح، ولم يدنُ منه إلا بعد أن نظر يميناً ويساراً، وكأنه مراقب أو ملاحق. «ماذا جئت تفعل، قال؛ فوحدهم المجانين يجازفون بالتجول في أيام النحس هذه!».

«معاذ الله، رد ممدوح ممازحاً؛ فهل أنت أحمق أو مجنون يا عم ميخائيل؟ أفلم تجازف أنت الآخر بالتجول؟». «للضرورة أحكام، أجاب العواد؛ فلولا الجوع لما خرجت من البيت. جئت إلى عبد الأحد، ناطور المدرسة، لآخذ الكليجة[1] التي وعدني بها». وأضاف وهو يرفع الصرّة التي حملها بيده: «سوف أقتات منها ليومين أو ثلاثة؛ ريثما تفتح الأفران أبوابها من جديد».

---

١ - الكليجة نوع من المعجنات اشتهرت بها ماردين، وهي تُصنع من الطحين والسمن والسكر والقرفة وتوابل أخرى.

«وهل أغلقت أبوابها؟»، استفسر ممدوح بدهشة وفضول. أطلق العواد تنهدة قبل أن يقول، موضحاً: «وهل الأفران وحدها هي التي توقفت عن العمل؟ لقد شلّت الحركة في أسواق ماردين قاطبة... ما عاد أحد يتجرأ على رفع ستارة حانوته أو إشراع باب متجره، أمسلماً كان أم مسيحياً، أعربياً أم كردياً أم أرمنياً...». «ولماذا بحق الله؟»، صاح ممدوح. «وهل المنصورية في آخر ملك الله، أجاب ميخائيل، حتى لم تسمعوا بما حصل؟». «سمعنا أن ماردين تحترق؛ ردّ ممدوح؛ وها هي، في الواقع، تصارع الطوفان!... فهل بعث الله بهذه الأمطار كي يطفئ حريقها؟». هز العواد رأسه مراراً قبل أن يجيب: «يا ليت المياه قادرة على إطفاء الحريق الذي شبّ فيها!... إن مياه أنهار العالم مجتمعة غير قادرة على إخماد جذوته!». ورعدت السماء بقوة لحظتها فهرع ميخائيل يلتجئ تحت الإفريز الذي اعتلى مدخل مدرسة الراهبات. فترجّل ممدوح ولحق به. ووسط هدير الرعد، ولمعان البرق، وسيل الأمطار المنهالة كالسياط على الدور والدروب، روى ميخائيل ما حصل.

إن حملة الاعتقالات الواسعة التي ذهب ضحيتها أعيان ديار بكر من تجار، إلى مهندسين، إلى صيرفيين، إلى موظفين في الدولة العثمانية، إلى مالكي عقارات ومزارع وقرى، قد شملت رجال الدين أيضاً من كهنة ورهبان، بل حتى أسقفين هما الأسقف تشيلغديان والأسقف تشيليبيان. وقد عومل المعتقلون، بمن فيهم الأُسقفان، معاملة البهائم. حُشِروا بالمئات في قاعات لا تتسع لأكثر من أربعين أو خمسين شخصاً؛ وأُخضعوا للتعذيب فقضى منهم من قضى، ولاسيما الشيوخ والمرضى. فعدد المعتقلين ناف على ألف وستمائة شخص؛ ولكنهم عندما سِيقوا، مكبَّلي الأيدي، في اتجاه جسر على نهر دجلة، يقع غير بعيد عن ماردين، كان عددهم قد تقلص إلى ما دون السبعمئة!... شوقي زاده، الذي أشرف على ترحيلهم باتجاه الموصل، تولى تجريدهم من كل ما حملوا معهم من ثمين قبل أن يأمر بالزجّ بهم في زوارق قيل إن بعضها قد غرق حتى قبل بلوغ الشاطئ العراقي؛ وقد حرص على أن يجعل القافلة

تطوف في شوارع ديار بكر قبل مغادرتها. كان المعتقلون يسيرون مكبلي الأيدي، ممزقي الثياب، بعضهم حافي القدمين، وبعضهم الآخر دامي الوجه بكدمات وبجروح لا تزال تنزف. وكانوا كلما صادفوا في طريقهم واحداً من أقاربهم أو معارفهم يرفعون صوتهم بالغناء، بالسريانية أو الأرمنية، ليبلغوا ذويهم رسالة أخيرة... وقد نال الأسقف تشيلغديان معاملة «مميّزة» بالنظر إلى رتبته الدينية: ففيما كان يُجَرْجَر عبر شوارع ديار بكر كان الشتوات، بقيادة شوقي زاده، يتفنّنون في إهانته وتعذيبه؛ وبدلاً من أن يرحّل إلى العراق، أسوة ببقية أفراد القافلة، أعيد إلى السجن وأخضع من جديد لشتى ألوان التعذيب إلى أن فارق الحياة.

عندما بلغ أهل ماردين نبأ استشهاد الأسقف دبّ ذعر جارف في نفوسهم: فلطالما لعب رجال الدين دور الوسيط مع السلطات؛ ولطالما وجدت شكاواهم، ومطالبهم، ونصائحهم أذناً صاغية لدى المسؤولين؛ ولطالما عوملوا بقدر من الاحترام والمراعاة. فإذا ما أمسى الأساقفة يُذبحون كالنعاج، فماذا سيحلّ بعامة الناس؟ بسواد البشر؟

على أن موجة الذعر ما لبثت أن انقلبت إلى ثورة غضب عارمة مع ذيوع خبر استشهاد عبد الجليل سيوفي. فقبل أسبوع طَرَق مجهول باب عبد الأحد سيوفي في ساعة متأخرة من الليل. كان الرجل في حالة يرثى لها؛ يتأوه كلما أتى بحركة ويلهث كلما نطق بكلمة. فقد هُشِّمت عظام ذراعه اليمنى تحت التعذيب، وخارت قواه من جراء الجوع والعطش والتعب. كان الرجل في عداد القافلة التي سيقت في اتجاه الموصل، وقد تمكّن من الهرب في زحمة إنزال المعتقلين إلى الزوارق. ولئن طَرَق باب عبد الأحد سيوفي في تلك الليلة المشؤومة فلينقل إليه خبراً مفجعاً. فقد شاءت الصدفة أن يتواجد مع ابنه عبد الجليل في معتقل واحد: في إحدى مدارس ديار بكر، المهجورة في الواقع، وهي مدرسة حُوِّلت إلى سجن كبير بأمر من رشيد، الوالي الدموي. وعبد الجليل هو الذي روى له كيف اعترضه ثلاثة من الشتوات، وهو في طريقه من ماردين إلى ديار

بكر، وكيف جرّدوه من كل ما كان يحمل من مال قبل أن يزجّوا به في ذلك المعتقل بتهمة التحريض على الثورة ضد السلطات العثمانية. وقد روى ذلك الهارب من الموت كيف أن عبد الجليل أُشبع ضرباً بعد اعتقاله ليبوح بأسماء «المتآمرين»، وكيف أن عجزه عن ذكر أي اسم قد أُوِّل على أنه «رفض» يستحق عليه عقوبة الموت، ومن ثم كيف أُصعد الشاب على مرأى من سائر المعتقلين إلى سطح المدرسة وأُمِر بأن يرمي بنفسه في الفراغ. وإزاء تردّده بادر اثنان من الشتوات إلى دفعه بالقوة: هوى المسكين على الأرض فشجّ رأسه وتهشمت عظامه. لم يمت للحال، بل ظل يئن ويتلوى على مدى أربع وعشرين ساعة. ضاق الحراس ذرعاً بعويله فسدد أحدهم الضربة القاضية: احتزّ عنقه بمدية حادة النصل...

«كفى!»، صاح ممدوح عندما بلغ العواد هذا الحد من روايته؛ «كفى!»، ردد بضع مرات وهو يضرب برأسه باب المدرسة الحديدي. فعبد الجليل كان من أعز أصدقائه، وكان سيتقدم لخطوبة شقيقته أديبة!... لم يسعَ إلى معرفة المزيد؛ إلى الوقوف على الأحداث الدامية التي فجّرها في المدينة انتشار هذا الخبر المريع؛ إلى استيضاح العواد بصدد التطورات الخطيرة التي أدّت إلى إغلاق المتاجر، وإلى شل جميع أوجه النشاط، وإلى دفع الناس إلى الاختباء في بيوتهم. فبمثل لمح البصر امتطى جواده وغاب عن ناظري العواد الذي لم يستأنف مساره تحت السماء الراعدة إلا بعد أن كرر العبارة التي غدت بمثابة لازمة في حديثه هذه الأيام: «لا حول ولا قوة إلا بالله!».

-9-

كان ممدوح لا يزال على مسافة أمتار من دار الشيخ مصطفى حمدان عندما ارتفع نباح الكلاب من داخل باحتها. «حسناً، قال ضمناً، لن أحتاج إلى طَرْق الباب بعنف للإعلان عن قدومي». وبالفعل، لم تمضِ لحظات حتى ارتفع صوت من وراء سور الدار يستفسر عن هوية القادم. عرّف ممدوح بنفسه فَفُتح له باب خشبي عالٍ، وظهر حارس يرفع فانوساً معدنياً في يمناه. أضاء له الطريق وهو يزجر الكلاب كي تكفّ عن النباح. دلف ممدوح إلى الباحة وهو لا يزال ممتطياً جواده، ولم يترجّل إلا عندما بلغ باب الدار الداخلي الذي انتصب عنده علوان، أصغر أبناء الشيخ حمدان. بادر يستفسره على الفور إن كان والده لا يزال مستيقظاً نظراً إلى تقدم الساعة، فطمأنه علوان موضِحاً أن أباه في صحبة الشيخ صقر، من قبيلة شُمَّر، الذي حلّ عليهم ضيفاً. خلع ممدوح حذاءه قبل أن يجتاز عتبة الدار، وكذلك سترته التي كانت تقطر من شدّة البلل. عرض عليه علوان عباءةً فرفض، لكنه رحّب بالفوطة التي جاءه بها أحد الخدم فمسح بها رأسه ووجهه. قاده علوان بعد ذلك إلى قاعة الدار حيث جلس والده بصحبة بِكره رضوان والشيخ صقر ورجل في العقد الرابع أشقر الشعر أزرق العينين. رحّب الشيخ به، ثم سارع يستفسر عن أسباب مجيئه إليه ليلاً رغم اضطراب الأوضاع. «جئت إليك بسبب هذا الاضطراب، أجاب ممدوح، فمَن لي سواك يا شيخي أستنير بآرائه، وأهتدي بنصائحه؟». هز الشيخ رأسه مراراً قبل أن يجيب: «كنا نتداول بشأن تردّي الأحوال قبل وصولك؛ ولن أخفي عليك يا بنيّ أن الأوضاع هي أكثر سوءاً مما كنا نتصور. فالمستقبل لا يخبّئ لنا إلاّ المزيد من المآسي. وسوف تطالنا الكارثة جميعاً ولن يبقى أحد في منجى من ضرباتها». استدار الشيخ مصطفى حمدان بعد

ذلك نحو الرجل الأشقر وقال: «الدكتور سميث قادم من ديار بكر؛ إنه يعمل مع البعثة البروتستانتية التي تشرف على إدارة مدرسة ومستوصف. وقد جاءنا بمعلومات خطيرة، بل مخيفة... حدَّثنا عن مخطط رهيب يرمي إلى قلب تركيبة المنطقة البشرية رأساً على عقب؛ مخطط بُدئ بتنفيذه بموافقة الحليف الألماني وبركته». قاطعه ممدوح ليسأل بانفعال: «وما هذا المخطط بحق الله؟... ففي المنصورية أيضاً يتهامسون بصدده. بعضهم يصفه بالجهنّمي، وبعضهم الآخر بالشيطاني؛ ولكن ما من أحد أفلح في توضيحه. هل تقصد به المجازر التي اقتُرفت، ولا تزال، بحق إخواننا الأرمن؟ ولكن هذه المجازر، مع الأسف، لا تشكل حدثاً استثنائياً خارقاً. فخلال العقود الماضية وقع أكثر من اعتداء على الأرمن، بل وعلى سواهم من المسيحيين؛ ومع ذلك فإن الناس لم تتحدث عن مخطط وقتذاك!...».

«الأمر يختلف اليوم، أجاب الطبيب البريطاني الذي كان يجيد الكلام بالعربية؛ فمنذ أن دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، ضد إنكلترا وفرنسا وروسيا، ارتفعت أصوات نافذة داخل «جمعية الاتحاد والترقي» وحزب «تركيا الفتاة» تنذر بخطر محدق بأمن الإمبراطورية. خطر خيانة مزعومة من قبل الأرمن المتمركزين في ست ولايات شرقي بلاد الأناضول؛ في موش وڤان، وبدليس، وخربوت، وأرضروم وسيواس. وبحسب الملوِّحين بهذا الخطر، فإن الأرمن قد أبرموا اتفاقاً مع روسيا وأعلنوا لها الولاء، لقاء تعهدها بدعم مطالبهم الاستقلالية. وبناء على هذا التهويل صدر فرمان مشؤوم في اسطنبول يقضي بتهجير الشعب الأرمني برمته؛ بسوقه عنوة، وسيراً على الأقدام، في اتجاه ولايات ثلاث، بعيدة عن خطوط المواجهة، وهي حلب ودير الزور والموصل».

توقف الطبيب البريطاني عن الكلام، منشغلاً للحظات بتعبئة غليونه بالتبغ، ثم تابع يقول:

«لقد وافق البرلمان الألماني على هذا الفرمان المعيب في جلسة عقدها

في أواخر العام المنصرم؛ وافق على تهجير الشعب الأرمني ونفيه بحجة أن الأرمن قد خانوا أو «قد يخونون قريباً»، بحسب ما جاء في النص الذي اعتمده البرلمان... وقد جاء في هذا النص بالحرف الواحد: «لقد وافقنا على تدمير أعدائنا حيثما وجدوا وبأي اسم عُرفوا». وقد سارعت السلطات التركية تترجم كلمة «تدمير» إلى أعمال جنونية، تفوق قدرة الخيال على التصور. فقد علمنا، من مصادر موثوقة، أن عشرات الآلاف من الأرمن المجندين في الجيش العثماني والمتمركزين في مواجهة الخطوط الدفاعية الروسية قد أُعدموا رمياً بالرصاص. أُعدموا «خوفاً من أن ينضموا إلى الجيش الروسي» كما ادّعى مسؤولون في اسطنبول، ودُفنوا في مقابر جماعية. لقد قُتلوا دون أن تُثبت أي تهمة عليهم؛ نُفِّذ بحقهم حكم إعدام جماعي على سبيل الاحتراز والاحتياط!...».

وفيما راح الشيخ مصطفى حمدان يردّد: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وهو يضرب كفاً بكف، وممدوح يكرر: «يا ساتر يا رب! يا ساتر يا رب!»، كحّ الشيخ صقر، واستقر في جلسته فوق الأريكة الخشبية التي غطتها سجادة خمرية اللون، ثم قال موجهاً كلامه للطبيب: «نفهم مما تفضلت يا دكتور أن الألمان يتحملون قسطاً كبيراً من المسؤولية في ما يحصل؛ لكأن الأتراك كانوا ينتظرون إذناً منهم كي يرتكبوا جرائمهم! بصراحة، أخشى أن تكون منحازاً ضد الألمان بحكم كونك بريطانياً...».

هنا تدخل حمدان، الذي كان يوزع كؤوس الشاي على الحضور، ليقول: «قبل أن نبحث في مسؤولية الألمان يتعين علينا أن نقف عند مسؤولية «الدونما»، أي مسؤولية تلك الفئة من اليهود التي اعتنقت الإسلام ظاهرياً... فمعظم قادة حزب «تركيا الفتاة» هم من «الدونما» وعلى رأسهم الثلاثي الدموي طلعت باشا، وزير الداخلية، وأنور باشا، وزير الحربية، وجمال باشا، حاكم سوريا ولبنان. وقد جاء الثلاثة من تسالونيك، على غرار مصطفى كمال باشا؛ تسالونيك حيث تتمركز منظمة «الدونما» اليهودية السرية، المعروفة

بعدائها المزمن للأرمن. عداء لا أجد له سوى تفسير واحد: قدرة الشعب الأرمني على مزاحمة اليهود ومنافستهم في المجالات التي يبرعون فيها من تجارة، إلى صيرفة، إلى مهن أخرى...».

كان حمدان سيفيض في الكلام عن مؤامرة «الدونما» لو لم يقاطعه أبوه قائلاً: «لقد مضى أكثر من ثلاثة قرون على إقامة «الدونما» في تسالونيك التي لم يستردّها اليونان إلا قبل أعوام ثلاثة. لقد كانوا إذاً، على مدى قرون ثلاثة، رعايا الدولة العثمانية، على غرار سواهم من أبناء الطوائف والملل. فلمَ الإلحاح، دوماً، على أصلهم اليهودي؟ لمَ التأكيد على أنهم كانوا وبقوا يهوداً؟ فهل يقال عن الجندي الإنكشاري: كان وبقي مسيحياً؟...». هنا تدخل الشيخ صقر ليقول بلهجة محتدة: «لأن تلك هي الحقيقة شئنا أم أبينا! فهم الذين يطلقون على تسالونيك لقب «مدينة اليهود» تارة، و«أم إسرائيل» طوراً! وقد تمركز فيها اليهود، أساساً، قبل أن تظهر طائفة «الدونما». جاؤوها منذ نهاية القرن الخامس عشر، أي بعد سقوط غرناطة. وقد تعاظم حجم جاليتهم فيها في أعقاب فتوحات السلطان سليمان العظيم إذ هاجر إليها يهود النمسا والمجر...».

أطلق الطبيب البريطاني ضحكة ساخرة قبل أن يقول، بنبرة متهكمة وهو يتابع بنظراته انتشار دخان غليونه: «إن قصة مؤسِّس هذه الطائفة، شباتاي زيفي، تخرج حقاً عن كل مألوف؛ بل إنها تبدو وكأنها من صنع الخيال لا من نتاج الواقع! فقد كان زيفي لا يزال في الثامنة عشرة عندما أصبح حاخاماً؛ ولكنه كان حاخاماً من نوع خاص إذ نادى بإلغاء الصيام، وحلل أكل ما حُرِّم في الدين اليهودي، بل أعلن نفسه المسيح المنتظر وتنبأ بتنحية السلطان عن عرشه! وقد لاقت دعوته رواجاً عظيماً في مسقط رأسه، إزمير، وفي العديد من المناطق الأخرى. غير أن تطاوله على السلطان أثار نقمة السلطات العثمانية التي بادرت إلى اعتقاله في العام ١٦٦٦، وتفادياً للعقاب الذي كان سيُنزَل به

سارع الحاخام يعتنق الإسلام، وحذا حذوه الآلاف من أنصاره، فكانت ولادة طائفة «الدونما» التي تمركزت في تسالونيك في أواخر القرن السابع عشر».

تدخل الشيخ مصطفى حمدان ليعقب على كلام الطبيب قائلاً: «يعني حتى لو افترضنا أن «الدونما» لم يعتنقوا الإسلام إلا ظاهرياً وأنهم ظلوا، في صميمهم، بل في عقيدتهم، يهوداً، فإنهم يبقون يهوداً من نوع خاص بحسب ما أسلفت ذكره عن الخاخام زيفي!».

تململ ممدوح في جلسته؛ فقد شطح المجتمعون في الكلام عن «الدونما» وابتعدوا عن الموضوع الذي يشغله. والحال أن الوقت تداركه؛ فهو لن يحلّ ضيفاً على الشيخ حمدان هذه الليلة، أسوة بالشيخ صقر والطبيب البريطاني، بل سيقفل عائداً إلى المنصورية. لذلك رأى أن يتدخل ليقول: «إن معاداة الأرمن ليست وليدة اليوم؛ فقد سبق أن ارتُكبت مجازر وحشية بحقهم. أما السريان فوضعهم مختلف. فلطالما اعتبرَتهم السلطات العثمانية شريحة صالحة في المجتمع التركي ونعتتهم بـ«تاميز ملّة» أي الفئة النظيفة؛ وقد عَهَدَت لأبناء هذه الملة بوظائف مرموقة في الدولة». وأردف قائلاً، موجّهاً كلامه للطبيب البريطاني: «لقد كان جدّي، على سبيل المثال، مديراً عاماً للجمارك. مع ذلك، ما عاد ينقضي يوم واحد من دون أن نسمع عن سقوط ضحايا في صفوف السريان. لا من جراء اقتتال عرقي أو طائفي، كما حصل مؤخراً في ماردين مع ذيوع خبر مصرع عبد الجليل سيوفي، وإنما على أيدي الجيش التركي وميليشياته. فلماذا هذا التحول؟ وإلام سيؤول؟».

ومع أن ممدوح كان قد استدار نحو الشيخ حمدان وهو يطرح سؤاله الأخير، فإن الدكتور سميث هو الذي تنطع للإجابة عنه. «أود أن أوضح أولاً، قال، أن الاقتتال الذي حصل في ماردين لم يكن عفوياً. وقد علمت من مسؤول رفيع المستوى أن أحد الشتوات من عملاء السلطة قد تسبب في نشوبه. فقد أضرم النار ليلاً في متجر فريد آغا بعد أن خطّ على عتبته، بواسطة دهان أحمر، عبارة استفزازية تقول: «لن نسكت على مصرع عبد الجليل؛ سوف

نسفك دماء الأكراد غزيرة انتقاماً له». وقد ثارت ثائرة أكراد ماردين طبعاً، ولاسيما أنه لم يكن لهم دخل، لا من قريب ولا من بعيد، في مقتل الشاب، فأقدموا على حرق متاجر المسيحيين، من سريان، وأرمن، وبروتستانت دونما تمييز. ردّ المسيحيون على أعمال الشغب بأعمال شغب، وحصلت اشتباكات سقطت الضحايا خلالها من الطرفين. وإن كان من درس ينبغي استخلاصه من الاضطرابات الدموية التي حصلت قبل أيام فهو الاحتياط لما سيحصل: فالسلطات مصمِّمة على البطش بالأقليات قاطبة، ولن تميّز بين عربي أو أرمني، بين سرياني أو كلداني!...».

- ولماذا؟ صاح ممدوح منفعلاً؛ ما الذنب الذي اقترفته تلك الأقليات؟

- لم تقترف أي ذنب، أجاب الطبيب؛ لكن الدولة العثمانية عازمة على التخلص منها بشتى الطرق، بما فيها المذابح الجماعية.

هز ممدوح رأسه في حركة نفي ثم قال:

- لا! لست مقتنعاً بهذا الكلام... فنحن نعيش في ظل إمبراطورية، والإمبراطورية تَفترض، بالضرورة، تعدداً في الجنسيات وتنوعاً فيها. فلماذا تقدم الدولة العثمانية على بتر أجزاء سليمة من كيانها؟

أنعم الطبيب النظر في وجه الشاب قبل أن يجيب وقد ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتيه:

- أنت تعيش في ظل إمبراطورية غدت برسم الزوال!... إمبراطورية راهنت بيأس على آخر ورقة رابحة تملكها بدخولها الحرب إلى جانب الألمان؛ حرب ستخسرها لا محالة. وأنصار الحركة الطورانية يعلمون هذه الحقيقة؛ يدركون أن ساعة تصفية تركة «الرجل المريض» ستأزف قريباً. من هنا حرصهم على رفع شعار «تركيا للأتراك»، أي على التخلص، عملياً، من الأقليات التي ستغدو عبئاً على الدولة مع تقلص حجم مساحتها ومواردها.

وأردف الدكتور سميث، وهو يحملق في الفراغ:

- نحن مقدمون على حملات تهجير ستقلب البنية الديموغرافية للمنطقة رأساً على عقب، وعلى مذابح جماعية لن توفِّر لا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال؛ فعلى من يملك ذرة من الحكمة أن يستعجل الرحيل.

- ما هذا الكلام؟ صاح ممدوح؛ لماذا نرحل؟ وإلى أين؟ فنحن سكان هذه البلاد الأصليون! بأي حق نُرغم على مغادرة أرضنا وأرزاقنا؟ بأي حق نُفصل عن تراثنا وماضينا؟

- ومتى كان للحق كلمة الفصل؟ أجابه الطبيب ببرود؛ متى كان الحق يُشهر كسلاح واقٍ في الحقبات المضطربة كالتي نعيشها الآن؟... أعود فأكرر: من يملك ذرة من الحكمة فليبادر إلى الرحيل!

- وهل انعدم أهل النخوة؟ قال الشيخ صقر بصوت جهوري؛ إن السريان أمانة في أعناقنا ولن نسمح بأن يمسّهم أذى. أنا لا أتكلم بصفتي الشخصية، بل باسم قبيلة شُمَّر برمتها.

- بارك الله فيك! قال ممدوح الذي أضاف، وهو يستدير نحو الشيخ مصطفى حمدان: نحن نستقوي بك وبأمثال الشيخ صقر يا أبا حامد. فقد وقفتما على الدوام إلى جانبنا ساعة المحنة... لكنني أراك تمتنع عن التعقيب. أتراك تشارك الدكتور سميث في رأيه؟ أتراك تؤيد، بدورك، فكرة الرحيل؟... أجبني صراحة، أرجوك!

تنهد الشيخ مصطفى حمدان قبل أن يقول بصوت حزين:

- كان بودّي أن أطمئنك يا ممدوح، غير أني لا أرى من حولي ما يدعو إلى التفاؤل. لا أرى ولو بصيص نور من بعيد!... ربما أكون على خطأ؛ بل إني أتمنى، من أعماق نفسي، أن أكون على خطأ! بيد أني لا أستطيع أن أسدي إليك، وإلى ذويك، نصيحة بالبقاء؛ كما أنه يصعب عليّ، في الوقت عينه، أن أشجعك على الرحيل. خذ قرارك بنفسك يا بنيّ، بحكمة وبشجاعة.

تدخل هنا الطبيب البريطاني ليقول:

«المهم أن تتخذ قرارك بسرعة، قبل فوات الأوان».

أومأ ممدوح برأسه موافقاً، وجال بنظره على القاعة الفسيحة التي طالما ضمّته بصحبة والده. كان لا يزال طفلاً عندما بدأ يتردد على هذه الدار؛ كان والده يحرص على أن يصطحبه معه، مع أن زياراته للشيخ كثيراً ما كانت تطول حتى ساعة متقدمة من الليل. فهو ابنه البكر، وعليه بالتالي أن ينهض بواجباته الاجتماعية رغم صغر سنّه. وتراءى له والده جالساً في جوار صديقه، يحتسيان القهوة المرّة، ويتحدّثان في مواضيع شتى... بدا له وكأنه يبتسم له، بكثير من العطف، ولكن بشيء من الحزن أيضاً. أهو والده أم الشيخ حمدان؟ اختلطت الأمور عليه. ربما من شدة الإعياء؛ أو من شدة الانفعال بالأحرى. فنهاره كان طويلاً، مرهقاً، حافلاً بالأحداث المفجعة وبالتطورات الخطيرة. تمنى لو يستلقي على الأريكة ويستسلم للنوم؛ تمنى لو يعود طفلاً يراقب حركة الظلال التي يلقيها مصباح الكاز على الجدار المطروش بالكلس الأبيض؛ تمنى لو يهدهده حديث الشيخ الجليل مع والده إلى أن يغفو، يغرق في النوم، يغوص في عالم لا قيود فيه ولا هموم... وتنبه إلى صوت حامد يمازحه قائلاً: «تنام وأنت جالس؟ ماذا دهاك». أجاب: «أبداً»، وهمّ بالنهوض. أضاف بعد ذلك برسم الشيخ مصطفى: «أستأذن بالرحيل، فأمامي طريق طويلة. أملي أن يكون المطر قد توقف قليلاً وإلا استحال عليّ بلوغ المنصورية قبل...». ولم يدعه الشيخ يتم عبارته إذ صاح بانفعال: «وهل في نيتك العودة إلى المنصورية هذه الليلة؟ أجننت يا ممدوح؟ أراك تخشى المطر ولا تحسب حساباً لأولاد الحرام!... أي أحمق يغامر بنفسه على الطرقات ليلاً وقد انعدم الأمن تماماً؟». حاول ممدوح أن يبتسم وهو يجيب: «أنا تحصلدار يا شيخي، أي ابن الحكومة. فمن سيتجرأ على التعدي عليّ؟». ارتفع هنا صوت الشيخ صقر ليقول: «طظ بالحكومة!... إن البلاء يأتي منها أصلاً!... فهي التي تحرض الناس على الاقتتال، وهي التي

تخطط للمجازر وتعطي الإيعازات بتنفيذها... فالحامي في هذه الأيام قد غدا هو الحرامي!...». «ولماذا لا تبيت الليلة عندنا؟»، سأل علوان الذي كان قد لزم الصمت طوال الجلسة. ربت ممدوح على كتف الشاب وهو يجيب: «إني مضطر إلى العودة يا أخ؛ زوجتي لوحدها وهي حامل».

نهض عندئذٍ الشيخ مصطفى حمدان من جلسته وقال مخاطباً ممدوح: «غادر الآن ما دمت مصمماً على الرحيل؛ ولكن لا تعاود الكرة! تجنب التنقل على الطرقات يا بني، ولاسيما ليلاً».

«لكأن النهار أرحم»، عقّب الشيخ صقر متنبئاً بما سيحصل...

-10-

«هل ستسلو أديبة عن عبد الجليل يوماً؟».

طرحت لطيفة هذا السؤال على شقيقها يوسف وهي تأمل، ضمناً، جواباً بالنفي؛ لا لأنها لا تحب شقيقتها ولا لأنها لا ترأف لحالها، بل تعاطفاً مع الشاب الذي قضى في ظروف مريعة وحزناً عليه. غير أن ردّ يوسف جاء مخالفاً لتوقعها:

- ولماذا لن تسلو عنه، قال، هل كان خطيبها؟ زوجها؟... كان واحداً من معارفنا، ليس أكثر؛ لم تجمعنا به أي علاقة قربى... كان من أصل أرمني أساساً...

- ما هذا الكلام؟ أنسيت أنه كان سيخطب أديبة؟

- كان... غير أن المشروع لم يتم، وأديبة، بالتالي، ليست ملزمة بالوفاء لذكراه.

- وما دخل الإلزام في الموضوع، صاحت الطفلة مستنكرة؛ أتعلم أن أديبة تبكي في الليل؟... تبكي بصمت وإنما بحرقة!

- أنت تتوهمين ذلك؛ فأديبة فتاة راشدة ترجِّح دوماً كفة العقل على كفة العواطف.

«ربما كنت أتوهم»، أجابت لطيفة حسماً لجدل لا طائل تحته. فيوسف متمسك بآرائه، لا يعود عنها أبداً. لو جاءته بمنديل بلّلته دموع أديبة لكان جوابه: صحيح أنها تبكي، إنما على الوالد! علماً بأن الدموع التي ذرفتها شقيقتها على «الوالد» قد جفّت منذ زمن...

متى ستجفّ دموع أديبة على عبد الجليل؟ العلم عند الله وحده! إنها ستحترم حزن شقيقتها، في مطلق الأحوال، فلن تثقل عليها بطلب بعينه مهما

تاقت إلى تحقيقه؛ لن ترجوها أن تفصّل لها ثوباً من قطعة القماش المزركش التي جاءها بها ممدوح. لكَم هو محبّ ممدوح! لكَم هو لطيف وعطوف! فمع أنه زارهم على عجل قبل أسبوع، مع أنه كان حائراً، مضطرباً، قلقاً، فإنه لم ينسَ إحضار الهدية التي كان قد وعدها بها. كانت قد أعربت أمامه عن رغبتها في استقبال الصيف القادم بثوب جديد، ولاسيما أن قامتها قد طالت منذ الصيف الأخير. فأقسم بألا يزورهم من جديد إلا وحاملاً من القماش ما يكفي لتفصيل لا ثوب واحد بل اثنين... ما كانت تتوقع أن النسيج سيحضر بمثل تلك السرعة وأن التفصيل هو الذي سيتعثر! فكيف ستطلب من أديبة أن تخيط لها ثوباً وهي تدرك مدى حزنها وقنوطها؟ يا ليتها كانت على غرار يوسف، تتعامى عن الحقيقة التي لا تناسبها. تنهدت وخرجت إلى باحة الدار تسعى وراء ابنة عمها جوليا.

توقفت للحظات في جوار الحوض الذي يتوسط صحن الدار وجالت بنظرها من حولها. عندما شيّد جدّها هذا البيت حرص على أن يخصص فيه مسكناً لكل واحد من أبنائه الأربعة. لكنه لم يحسب حساباً لابنتيه، سلمى ووردة. «لأنه كان واثقاً من أنهما سوف تتزوجان»، اعتادت أن تجيب أديبة عندما كانت تثير هذا الموضوع أمامها؛ «فبنات مسعود يجدن دوماً العشرات من الخطّاب واقفين على أبواب بيوتهن». ربما؛ ولكن ألا يحق للابنة أن تنعم بمسكن في بيت أبيها حتى وإن تزوجت؟ أثارت هذه المسألة ذات يوم في حضور عمها كريم فأجابها وهو يضحك: «هل وجدت الخطيب وما عاد ينقصك سوى البيت؟». لم تعلّق على كلامه. وبماذا كانت ستجيبه أصلاً؟ أتقول له إن وديع خياط، «الخطيب» الذي اختارته، لا ينوي الزواج؟... فقد قصد دير الزعفران في مطلع العام الدراسي. «سوف يصبح راهباً»، أكدت شقيقته فهيمة التي هي في سنّها. والراهب لا يتزوج حتى ولو كان من اليعاقبة!...

عمّها كريم لم يعلن بعد عن ظهوره عبر نافذة غرفته؛ ربما كان نائماً. لن تطرق بابه ولن تنادي عليه. شجيرة زهر العسل التي ترسم خط الفصل

بين مسكنه ومسكن عمها روفائيل فقدت الجزء الأكبر من أوراقها وأزهارها من جراء العاصفة التي هبّت على ماردين قبل أيام. ولطالما رددت زوجة عمها ملكة عبارة: «يا حسرة! يا حسرة!» وهي تجمعها في مجرفة لترميها في سلّة القمامة. دنت من مسكن عمها روفائيل ونادت على جوليا. جاءها صوت ملكة، صادراً عن المطبخ الجماعي الكائن في جوار باب الدار الخارجي؛ ثم أطلّت زوجة عمها، وفي يدها فوطة من النسيج الأبيض، فأفادتها بأن جوليا قد خرجت تلعب. «الحقي بها، أضافت، فهي حتماً في الجوار». من خلف منكبي ملكة العريضين وركيها الرحبين بانت لها أديبة التي كانت تعمل بدورها في المطبخ، تساعد أمها ولا بد في إعداد الطعام. شاورت نفسها باستئذانها بالخروج لكنها عدلت عن الفكرة. فقد تعارض أديبة مغادرتها الدار، متذرّعة بالأوضاع المتوترة؛ فلمَ تجازف بأن يأتيها الجواب بالرفض وقد أذنت لها ملكة بأن تلعب في الخارج؟

لم تكن جوليا في الجوار؛ فقد ابتعدت اللعينة عن الدار؛ ذهبت لغاية بيت فهيمة خياط الذي يقع غير بعيد عن مدرسة الراهبات. كانت مأخوذة بممارسة لعبة الطمّة عندما التقتها، مفترشة الأرض مع مجموعة من الفتيات. ولم تنتبه إلى قدوم لطيفة إلا عندما طلبت منها هذه الأخيرة أن توسع لها مكاناً في جوارها.

مضى الوقت هنيئاً، ممتعاً، وكانت الشمس قد شارفت على الغروب عندما مرّ ميخائيل العواد، حاملاً صرّة فيها مأكولات ولا بد. نهَرَ الفتيات قائلاً: «ماذا تفعلن في الشارع والأجواء غير آمنة؟ هل نسيتن ما حصل قبل أيام؟». فأجابته جوليا، التي ما كانت تستهيب أحداً: «وهل حُرّم علينا اللعب لأن الحرب دائرة؟ فقد لا تنتهي قبل أن نصير في سنّك!». وأطلقت وردانة جبّور ضحكة وقحة في حين وضعت فهيمة كفّها على فمها لتخنق ضحكتها. لوّح ميخائيل بسبابته منددا ومضى في سبيله.

«ميخائيل لا يقتات إلا من موائد الناس، قالت وردانة جبور التي لا تفوّت

فرصة بدون التذكير بثراء أسرتها؛ إنه يمرّ علينا يومياً لينال نصيبه من الطعام. لا أعرف إنساناً خسيساً مثله». فقاطعتها فهيمة خياط لتقول: «ولكن المسيح أوصانا بأن نعطي من دون حساب؛ علَّمنا أن نحب بعضنا بعضاً». «الأن شقيقك دخل إلى الدير أصبحتِ أنت راهبة؟ ردّت وردانة على الفور؛ فلماذا ينبغي أن أحب إنساناً بخيلاً، قبيحاً، وقذراً مثل ميخائيل العواد؟». «لتكسبي ثواباً»، عقّبت جوليا بلهجة من يرغب في وضع حد لسجال لا طائل تحته.

ونهضت الفتيات من جلستهن. «هل نعرّج على سوسة؟»، سألت وردانة، «شرط ألا نتأخر»، أجابت لطيفة.

فالتعريج على دار سوسة القبرغايه كان شبه طقس بالنسبة إلى الفتيات؛ سوسة العجوز الشمطاء، التي ما أن تشاهد أولاداً يدنون من الكوخ الذي تقيم فيه، على تخوم حديقة آل المعماري، حتى تبادر إلى استنزال اللعنات على «جيل شرير لا يرتهب ولا يستهيب ولا يعرف معنى الاحترام». وكلمة حق تقال: لم يكن الصغار يستهيبون سوسة القبرغايه، أو يكنّون لها ولو قدراً ضئيلاً من الاحترام. فكلما تجمعوا أمام مسكنها كانوا ينادون بصوت واحد: «خالة سو...و...و...سة!»، فكانت تجيبهم، وبأعلى صوتها: «يبعتلكم ضربة مكبو..و...و...سة كما سوسة!».

أما لماذا يحصل هذا الضرب من الخصومة والجفاء بين الصغار وفئة من الكبار، فسؤال تتعذر الإجابة عنه...

كان صوت وردانة جبور أول صوت يرتفع بالصرخة التقليدية؛ ولكن ما كادت تبدأ بمطّ اسم سوسة حتى انضمت إليها جوليا، ومن ثم فهيمة ولطيفة. ولم تتأخر ردة فعل العجوز؛ فقد ظهرت على باب كوخها وصاحت بصوتها المخنخن: «يبعتلكم ضربة مكبو...و...و...و...»، وضاعت نهاية صرختها وسط الجلبة التي عمّت فجأة الشارع. من أين قدمت تلك الأرتال من الرجال والنساء الذين كانوا يركضون وكأن وحوشاً ضارية تطاردهم؟ ولماذا يصرخون ويلوحون بأيديهم وكأنهم مكلّفون بتبليغ رسالة عاجلة وعلى

قدر كبير من الخطورة؟ شدّت لطيفة على كتف جوليا، الواقفة أمامها، تريد استفسارها عما يحصل، ففاجأها ظهور عمها روفائيل على مسافة أمتار منها. كان شاحب الوجه، مقطّب الجبين، مضطرب الملامح؛ وبصوت متهدج سأل الفتيات: «ماذا تفعلن هنا؟... هيا، أسرعن إلى بيوتكن». ثم قبض على يمنى لطيفة بيد وعلى يسرى جوليا بأخرى وهرول في اتجاه الدار، متفادياً الإجابة عن السؤال الذي ما فتئت تكرره الطفلتان: «ما الذي يحصل؟». وعندما استفسرته زوجته عن سبب عودته المبكرة، وعن دوافع بلبلته الشديدة، تجاهل أسئلتها هي الأخرى مفضلاً الاطمئنان، أولاً، على سائر أفراد الأسرة الكبيرة: فهل عادوا جميعاً إلى البيت؟ وعندما قيل له: «باستثناء بهجت» ضرب كفاً على كف كمن يتلقى خبراً مفجعاً. نفد صبر ملكة فصاحت بانفعال: «قتلتنا من الرعب!... لماذا هذا اللف والدوران؟... هل نشب اقتتال جديد بين أهل ماردين؟... هل أُضرمت النار في المتاجر التي نجت من الحريق في الأسبوع الماضي؟». وتوقفت لحظة عن الكلام لتتابع، بصوت مخنوق، وكأنها فطنت للتو إلى غياب بكر أولادها: «هل حصل مكروه لبهجت؟... قل!». سارع روفائيل ينفي: «لا... لا... الأمر لا يتعلق ببهجت وإن كنت أضحي بنصف عمري حتى أراه يدخل الآن علينا... إن ما شاهدته في الخارج يفوق كل تصور... بشر يعامَلون وكأنهم بهائم... اجتازوا بهم السوق وكأنهم قطعان من الغنم... غنم تساق إلى المسلخ... نساء وأطفال وشيوخ يبكون وينتحبون... شباب كُبّلت أيديهم وأقدامهم بالحديد... الدماء تسيل من جروحهم... يجرجرون أنفسهم بالقوة فيما تنهال السياط على ظهورهم ضرباً... عددهم يقدّر بالمئات... اقتيدوا من ديار بكر؛ هذا ما أكده، على الأقل، أحد عناصر الميليشيا التي تقود قافلتهم... قضى العشرات منهم على الطريق على ما فهمنا... فهم يعانون من الجوع والعطش علاوة على إعيائهم الشديد... بعضهم كان يصرخ: «ماء... ماء»».

قاطعت روزين والدها لتسأله بصوت يرتجف خوفاً وانفعالاً: «لقد

سقيتموهم، أليس كذلك؟». لم يجب والدها عن سؤالها بل تابع يقول: «لقد أُغلقت السوق في لمح بصر وهرول الناس إلى بيوتهم... يقيني أن القافلة ستمرّ في حيّنا، فهي متجهة إلى رأس العين». «لنقفل باب الدار الخارجي بإحكام، قالت بهية، وإلا دخل علينا شتة من الشتوات الذين يرافقون المساقين». «ومن هم هؤلاء المساقون؟»، سألت لطيفة أمها. ربّتت بهية على رأس ابنتها واكتفت بأن قالت: «ناس من أهل ديار بكر».

كانت باحة الدار قد غصّت بأفراد عائلة مسعود. فقد تواجد فيها العمان رزق الله وروفائيل وأفراد أسرتيهما فيما عدا بهجت، وكذلك بهية وأولادها الثلاثة، أديبة ويوسف ولطيفة. أما العم كريم فكان يصغي بإمعان إلى ما يدور من كلام في الباحة التي يطل عليها من نافذة غرفته. ففي ساعات كهذه كان ينسى مرضه، ينسى مصيبته الفردية، لينشغل بالمصيبة الجماعية التي حلّت ببلده. نادى على شقيقه روفائيل كيما يقترب من النافذة، وعندما دنا منها سأله بصوت خفيض: «هل تعرفتم على هوية المساقين؟». تردد روفائيل قبل أن يجيب: «إن غالبيتهم من الأرمن طبعاً... ولكن يبدو أن القافلة قد ضمت أيضاً بعض السريان والكلدان... فقد تعرّف جاري في السوق، منير سفر، على اثنين من مجلس الملّة السرياني في ديار بكر، كانا يسيران في مقدمة القافلة، مغلولي الأيدي، وبجانبهما شخص من آل أغاثي، الأسرة الكلدانية المعروفة...».

- لقد دُقّ ناقوس الخطر بالنسبة إلينا أيضاً، قال كريم؛ ما كنا نخشاه بدأ يحصل.

وأضاف بعد هنيهة:

- يتعين دراسة الأوضاع المستجدة بأسرع ما يمكن؛ الليلة قبل الغد!... لقد حاولنا، حتى الآن، إغماض عيوننا عن الواقع؛ تعمّدنا التخفيف من خطورة ما يحدث، متوهمين بأننا إذا ما تجاهلنا الكارثة المحدقة بالبلاد فإنها قد تتجاهلنا بدورها... تصرّفنا، باختصار، كالنعامات...

- وما العمل؟ سأل روفائيل الذي نطقت ملامحه بحيرة طفل تاه في دربه.

- لا أدري مِنْ حل سوى الرحيل!

- ما هذا الكلام! صاح روفائيل وهو يشيح بنظره عن شقيقه.

- إنه الصواب بعينه! تشاور مع رزق الله واتخذا قراركما بسرعة... لا تجازفا بحياة أولادكما وأولاد زكريا في سبيلي. أنا لن يصيبني أذى؛ فمن الذي سيعتدي على مُقعد... وحتى لو اعتدى أحدهم عليّ فإنه لا يكون قد فعل سوى اختصار عذابي!

- كفاك هذراً، أجاب روفائيل، ولكن بنبرة حمّلها تردده لا يقينه.

- إني أكلمك بصوت المنطق يا روفائيل. الهجرة هي الحل الأوحد.

- وهل هي بالحل السهل؟ فهنا أقاربنا ومعارفنا، وما هو أهم، أرزاقنا وأعمالنا. فهل نتخلى عمّا نملك لنتشرد على الطرقات؟ من سيشتري هذه الدار لو شئنا أن نبيعها الآن؟ ولمن نبيع متاجرنا في زمن الرعب هذا؟... ثم هل الطرقات آمنة في هذه الأيام؟ ألن نعرّض أفراد أسرتنا للخطر إذا ما خرجنا بهم على دروب السفر؟

- أمّا أن يتعرضوا للخطر إذا ما اخترتم الرحيل فهذا احتمال وارد، لكنهم سيتعرضون «حتماً» للخطر إذا ما أصررتم على البقاء...، فكِّر قليلاً يا روفائيل. ثلاثة من غير الأرمن تعرّف عليهم جارك منير سفر في صفوف المساقين اليوم. من هم هؤلاء المساكين الثلاثة؟ اثنان من أعضاء مجلس الملّة السرياني في ديار بكر، وثالث من آل أغاثي. إنهم من الأعيان إذن يا روفائيل! ولم يجر اختيارهم صدفة.

- ماذا تقصد؟ وضّح فكرتك...

- أقصد أننا سنكون على رأس المطلوبين لأن أسرتنا معروفة؛ أقصد أنهم سيتعرّضون لنا بالأول طمعاً بما نملك.

- ولكن ماذا فعلنا لهم؟

- وماذا فعل لهم سائر الذين سُلبوا، وعُذّبوا، وذُبحوا؟ ماذا فعل لهم المساكين الذين شاهدتهم للتو؟...
- وإلى أين نشدّ الرحال؟
- إلى جهنم! أجاب كريم بانفعال؛ المهم أن ترحلوا...

فيما كان الشقيقان يتجادلان، وبقية أفراد الأسرة يتداولون فيما يجري، وملكة تردِّد، بين الفينة وأخرى، «أين بهجت؟ لماذا لم يعد حتى الآن»، دنت جوليا من لطيفة وهمست في أذنها: «تعالي نصعد إلى السطح؛ ربما شاهدنا القافلة، ولو من بعيد». عارضت لطيفة الفكرة على نحو قاطع؛ وإذ ألّحت ابنة عمها على تحقيق رغبتها أجابتها بحدة وانفعال: «اصعدي بمفردك إن شئت أن تتفرجي على عذاب الناس!».

طُرِق باب الدار بعنف لحظتها، هرع حنا يريد أن يفتحه فتشبثت به فريدة، أمه، وصاحت مذعورة: «حذارِ! قد يكون لصاً، قطاع طريق، واحداً من الشتوات!...» لكن صوت بهجت جاء من وراء الباب يستعجل ذويه بفتحه.

ما إن دلف الشاب إلى صحن الدار حتى ارتفعت جوقة من الأصوات بسؤال واحد: «ماذا أصابك؟». فقد جحظت عيناه واكفهر وجهه وبدا وكأنه قد قابلَ عزرائيل في طريقه. أسرعت ملكة إليه لتضمّه إلى صدرها، غير أنه تمنّع عن عناقها ليستدير نحو والده ويعلن، والدمع قد بدأ ينهمر من مقلتيه: «لقد قتلوا العوّاد... ذبحوه من الوريد إلى الوريد... أمام ناظري...».

كان للنبأ وقع صاعقة؛ انعقدت الألسن، وخَيّم صمت جليل على الجمع قطعته جوليا أخيراً لتقول: «ولكننا رأيناه تواً... كان حاملاً صرة زاده... وقد نهَرَنا لأننا نلعب في الخارج... كان ذاهباً إلى بيته...». «لم يبلغه، قال بهجت؛ فقد صادف قافلة المهجَّرين في طريقه وأراد أن يعطي كسرة خبز لطفل يتضور جوعاً... شاهده أحد حرّاس القافلة فزجره واختطف كسرة الخبز من يد الطفل وداسها بقدمه. صاح ميخائيل عند ذاك: «ألا تخاف ربّك؟ ماذا فعل لك هذا الطفل البريء؟». فما كان من الحارس إلا أن أخرج

مدينته وطعن العوّاد في عنقه وهو يصرخ بأعلى صوته: ليكن موتك درساً لسواك أيها الخنزير».

انتابت لطيفة رجفة قوية وهي تصغي لرواية ابن عمها؛ تخيلت العوّاد جاثياً على الأرض، سابحاً في دمائه، فأخذت أسنانها تصطك، بسرعة جنونية، وكأن يداً من حديد تعبث بفكيها. وفي لحظة من اللحظات شعرت بأن قواها ستخور وبأنها ستغيب عن الوعي. كان شقيقها يوسف واقفاً غير بعيد عنها. تحاملت على نفسها لتدنو منه وتستند إليه. أحسّت بيده تُربِّت على رأسها وسمعت زوجة عمها ملكة تقول: «يا حسرتي عليك يا ميخائيل! تقضي بسبب كرمك وأنت الخسيس!»، ووجدت نفسها تجهش بالبكاء.

-11-

كان مقتل العوّاد أشدّ وقعاً على أهل ماردين من مصرع عبد الجليل. ما كان المسكين يحتمل المقارنة طبعاً مع شاب وسيم، ثري، ووجيه مثل عبد الجليل؛ بيد أنه كان يتمتع بمكانة مميزة في قلوب الناس. فقد كان شريك الأفراح وقسيم الأحزان؛ يتواجد حيثما انعقدت جلسة وحيثما أقيمت مأدبة، يعزف على عوده في الأعراس، ويذرف دمعه في المآتم. كان ذاكرة الأُسر والعائلات. ذاكرة انتقائية لا تحفظ إلا ما هو إيجابي، مشرّف، مبهج. ذاكرة تشطب على عمّ سكير، أو جدّ شحاذ، أو عمّة بلهاء، ولا تفطن إلا لمآثر الأسلاف، ومكارم الأخلاق، ونباهة فلان وعلاّن. لم يكن ميخائيل من أصل أرمني، على غرار عبد الجليل؛ كان من اليعاقبة، أي سريانياً. ومع ذلك فقد ذُبح كنعجة ومن غير سبب. حقيقة عَزّزت مخاوف أهل البلدة، إذ أدركوا أن حياتهم قد غدت على كف عفريت، وأن أي وغد من عناصر ميلشيات السلطة قادر على استباحتها في اللحظة التي يشاء. فحتى لو لم يقدّم العوّاد كسرة الخبز للطفل الجائع، فلربما اعتدى عليه جلاده بحجة أنه قد نظر إليه شزراً، أو بحجة أن شكله لم يعجبه!...

مع اعتقال ثلاثة من آل علاّف غداة مقتل العواد تفاقم الخوف مما يبيّته الحُكّم من نيات عدوانية ومخططات إجرامية بحق الأهلين الآمنين. فسليم علاّف كان من تجار الحبوب المعروفين، ويتمتع بسمعة طيبة في البازار، وكان رجلاً معروفاً بشهامته ومروءته. ويوم أُحرقت متاجر السوق ونُهبت، سعى إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بضاعته بأن نقل قسطاً منها إلى داره على غرار ما فعل سواه من التجار المتضّررين، أمسلمين كانوا أم مسيحيين. غير أن المتصرف، حلمي بك، فسّر خطوته على أنها «تلاعب واحتيال على قوت

الشعب في زمن الحرب»، فأمر باعتقاله مع بكريه، حبيب وأمين، وبمصادرة كل مخزونه من الحبوب. لم يدم اعتقال سليم علاّف طويلاً؛ ذلك أنه لم يتحمل التعذيب أكثر من يومين. قضى الرجل، على مرأى من ولديه، بعد أن اقتُلعت أظافره وهُشّمت عظامه. كان جلاّدوه يريدون حمله على البوح بالمكان الذي خبأ فيه «كنزه»: ثروته بتعبير آخر. ومع أنه حلف وأقسم بأن ثروته عبارة عن أراضٍ زراعية شاسعة يعرف الجميع أين تقع، وعلى رأسهم موظفو السجل العقاري، فإن المجرمين الذين تفننوا في تعذيبه مكثوا يطالبونه بالكشف عن مخبأ كنزه. وفي لحظة من اللحظات صاح بكره حبيب: «خافوا الله!... لو كان هنالك كنز كما تدّعون أفما كان سيرشدكم إلى مكانه كي ينقذ نفسه؟ أما كنا نحن سنهديكم إليه كي نخفف من عذاب والدنا؟». وكان الجواب الوحيد الذي حظي به الشاب عدّة لطمات قوية على رأسه وصدره وظهره جعلته يصرخ كالمعتوه.

مات سليم علاّف تحت التعذيب وسيق ولداه باتجاه الموصل مع قافلة قدمت من ڤان وبدليس.

ما عاد ينقضي يوم واحد، في الواقع، من دون أن يتناقل الناس أخبار اعتداءات ومجازر جديدة تقع هنا أو هناك. وقد تسارع إيقاع المصائب إلى حد فقدت العقول معه القدرة على الاستيعاب والمحاكمة. فلمَ يُقتل الأبرياء بالجملة مع أنهم لا يواجهون جلاّديهم بأي ضرب من المقاومة؟ لمَ التصفيات الجسدية بعد السلب والنهب والتهجير والسبي؟ وأي فائدة ترجى من سفك الدماء، فيما عدا إرضاء الغرائز الوحشية؟

قادم من ويرانشهر روى كيف اعتقل الأسقف مناشي مع ما يقارب من خمسمئة رجل، وكيف أُهين وعُذّب ونُتِف شعر شنبه ولحيته، وكيف سيق مع قافلة متوجهة إلى رأس العين، وكيف هُشمت عظام ذراعيه وقدميه، قبل أن يُذبح في النهاية على يد أيوب، ابن حمزة آغا، الذي تباهى بالعمل «البطولي» الذي قام به. وقادم آخر أفاد بأن ما يقارب من ألف شخص من أغنى الأسر

الأرمنية في البلدة عينها قد اعتقلوا يوم الجمعة المصادف ١١ حزيران ١٩١٥، وسيقوا إلى كهوف تقع على تخوم ويرانشهر حيث جُرِّدوا من ثيابهم ومن كل ما حملوا معهم من ثمين قبل أن يذبحوا الواحد تلو الآخر. وكان بين الضحايا نساء وأطفال وشيوخ، وقد بُقِرت عينا الطفلة مارتا، ابنة إلياس كيكوا، قبل أن يجتز رأسها بدورها.

ومن ديريك وصلت المعلومات التالية: لقد أصدر والي ديار بكر، رشيد السفّاح، أمراً إلى قائمقام ديريك بتصفية سائر سكان بلدته من النصارى، أي ما يقارب من ألف شخص جلّهم من الأرمن، وبعضهم من السريان والكلدان. عزّ على القائمقام تنفيذ هذا الأمر، إذ أن مسيحيي ديريك، الذين يزرعون الكرمة أباً عن جد، ويتّجرون بالخضار والفاكهة، كانوا يعيشون في وئام تام مع إخوانهم المسلمين، ويسددون ضرائبهم بانتظام وفي المواعيد المحددة. وتفاديا لتنفيذ إرادة الوالي أعلن القائمقام أنه لن يحرّك ساكناً ما لم يصله أمر خطي. فكان أن استدعاه رشيد إلى ديار بكر وأرسل من يغتاله وهو في طريقه إليه. وقد تَوّج الوالي جريمته بأن ادّعى بأن الأرمن هم الذين قتلوا القائمقام، فاستباح دمهم واستولى على أموالهم. كهنة ديريك لم يُذبحوا، أسوة بإخوانهم في بقية الولايات الشرقية، وإنما شنقوا. عُلّقوا على الأعواد كأنهم من مجرمي الحق العام.

من مديات لم يحضر من يُخبر بالذي حصل؛ فمن بقي من رجالها على قيد الحياة توارى عن الأنظار مختبئاً في الكهوف والأحراج. أما نساؤها فذبحن ذبحاً، باستثناء الشابات الحسنوات اللواتي سُبين وغدون في عداد الجواري. مديات، البلدة الوديعة، المحاطة بروابي تكللها الكروم والأشجار، والتي كانت غالبية سكانها، الذين يناهز تعدادهم السبعة آلاف، من السريان اليعاقبة، لا من الأرمن.

تكررت المذابح وتشابهت سواء كان مسرحها بدليس، أو القصور، أو القولية، أو نصيبين، أو دارا، أو معصرتا، أو سعرت، أو قلث، أو... أو... بيد

أن أهل ماردين ما عادوا يذرفون الدمع على ضحايا البلدات والقرى المجاورة، ذلك أن دموعهم باتت لا تكفي للبكاء على ضحايا مدينتهم بالذات! فقد ألقي القبض على شابين من آل عازار بتهمة الفرار من الجيش؛ تهمة زائفة إذ أنهما لم يُجنَّدا أصلاً. مع ذلك كانت عقوبتهما الإعدام رمياً بالرصاص، في إحدى ساحات البلدة على مرأى من أهلهما ومعارفهما. وغداة هذه الجريمة أقدمت عناصر من ميليشيا «الخمسين» على اقتحام مقر مطرانية السريان الكاثوليك بحجة البحث عن أسلحة مخبأة. وبعد أن عاثت فيه فساداً توجهت إلى المقبرة، ففتحت القبور ونبشت ما فيها، وحفرت ونَقَّبت من دون أن تهتدي إلى رصاصة واحدة. وغدت «حملات البحث عن الأسلحة» مطيّة القتلة للفتك بالأبرياء. يقتحمون البيوت الآمنة عنوة، يطالبون أهلها بتسليم أسلحة لا وجود لها، ويعاقبونهم على «عدم استجابتهم لإرادة السلطة» بالسلب، والاغتصاب، والقتل... جرجس نهبية رأى وحيده سليم يُشنَق أمام ناظريه في حديقة داره؛ صرخ، وبكى، واستغاث، وتوسل، وحلف بربه وبدينه وبجميع الأنبياء أنه لو كان يملك ترسانة بأكملها لما تردد ثانية واحدة في تسليمها في سبيل إنقاذ وحيده. لكن نحيبه واسترحامه لم يُقابَلا إلا بالسخرية والتهكم...

ويبقى مصير سليم نهبية أفضل من الذي آل إليه كل من حبيب يونان ويوسف جنانجي. الأول، وهو شاب في العشرين من عمره، علّقته عصابة من الشتوات على شجرة وتوالى أفرادها على الافتعال به. وبعد اغتصابه عمد الشتوات إلى جدع أنفه، وبتر أذنيه، واستئصال أعضائه التناسلية. وبعد ذلك كله سلخوا جلده وقطّعوا المسكين إرباً.

أما يوسف جنانجي، سليل أسرة وجيهة وثرية، فقد وُضِع في كيس من القنّب، بعد أن ذُبح وقُطِّعت أوصاله، ورمي على عتبة داره، فكانت أمه أول من عثر عليه، على أشلائه بالأحرى.

«ابتكر» ممدوح، الذي جعل من دار آل يونان المصادَرة مقرّاً لميليشيا الخمسين التي يرأس، طريقه سريعة و«رادعة» لتصفية نصارى ماردين. كان

يصفّ ضحاياه أمام صخرة تنتصب في جوار كنيسة مار ميخائيل، الواقعة في أقصى جنوب ماردين، ويرشّهم بالرصاص، فتلطّخ دماؤهم الصخرة حين انبجاسها. دماء ما عادت تجفّ لأن التصفيات الجماعية ما عادت تتوقف؛ دماء أرادها ممدوح السفّاح «عبرة» لكل داخل إلى الكنيسة أو خارج منها.

«عبرة لماذا؟ وهل من ذنب اقترفناه كيما نعاقب عليه؟ لقد اتُّهم الأرمن بالتآمر على أمن الإمبراطورية، أما نحن السريان فلَمْ توجه إلينا أي تهمة حتى الآن. فلماذا نُقتل؟»... أسئلة طرحها الأسقف تبوني على صديقه الشيخ مصطفى حمدان الذي تنهد قبل أن يجيب، وبصوت حزين: «لأن قدركم شاء أن تكونوا مختلفين». جرى هذا الحوار أثناء عيادته الأسقف المصاب بوعكة صحية، وقد قصده بعد زيارة طارئة قام بها للأسقف مالويان. كان مصطفى حمدان شيخ قبيلة المشكاوية التي تعهدت بحماية مسيحيي ماردين منذ أحداث ١٨٩٥ الدموية؛ ولئن حرص على طرق باب الأسقف مالويان في ذلك اليوم فلأن الأخطار كانت تحدق برجل الدين، مع أنه لم تكن انقضت أسابيع معدودة على نيله الوسام الشاهاني... فقد تناهى إلى سمع الشيخ الجليل أن في نية ممدوح، الذي ما فتئت مكانته تتعزز وطموحاته تجمح، توجيه ضربة قاضية لأرمن ماردين باعتقاله زعيمهم الديني، الأسقف مالويان. وكانت ذريعته جاهزة وخطته، لتحقيق مآربه، مرسومة: اقتحام مقر المطرانية بحجة البحث عن أسلحة، «العثور» على بندقية أو علبة خرطوش يكون أحد معاونيه قد دسها خلسة في مكان معين، وإلقاء القبض، من ثم، على الأسقف المسالم بتهمة التآمر على السلطات وتعريض أمن الدولة للخطر... وقد نَقل الشيخ إلى صديقه الأسقف ما بلغه من معلومات وألحّ عليه بأن يغادر ماردين، ولو لفترة من الزمن، على أمل أن تخمد حمّى الاعتقالات والتصفيات. فربما يصار إلى تعيين متصرّف جديد يكون في قلبه ذرّة من الرحمة؛ ربما يصار إلى كف يد ممدوح الذي ما عاد لأطماعه من حدود؛ ربما... ربما يدرك «الاتحاديون» ومَن ناصرهم عقم السياسة التي ينتهجون، بل مخاطرها

وإجراميتها. فهل يُشيَّد نظام علماني على أساس التصفيات الدينية؟ وهل تبنى دولة عصرية، حديثة، بطرق وأساليب تخجل منها القرون الوسطى؟

لقد أصغى الأسقف مالويان بإمعان إلى ما فصّله له صديقه الشيخ وقابل بابتسامة حزينة دعوته الملّحة له بالابتعاد عن ماردين. وببساطة تامة أجابه: «إن رعيتي في خطر، ومن واجب الراعي الصالح أن يبقى إلى جانب رعيته عندما تكون مهددة». وتوكيداً منه على أن قراره نهائي، لا رجوع عنه، غيّر الموضوع وراح يتداول مع ضيفه حول آخر تطورات الحرب الكونية. ومن الحديث عن الحرب انتقلا إلى الحديث عن الكتب. فالرجلان مولعان بالمطالعة، شغوفان بالمؤلفات الفكرية والفلسفية. ولئن اتفقا في الرأي، بوجه عام، فإنهما كانا يختلفان بصدد موضوعين: فكر الأنوار الذي كان يتبناه الشيخ، وقد اطلّع عليه خلال دراسته في اسطنبول، والذي كان يتخذ منه الأسقف موقفاً نقدياً؛ ودور المبشّرين البروتستانت في ماردين، الذي كان الشيخ يعتبره إيجابياً في حين كان الأسقف يميل إلى التشكيك فيه. «لديهم أربع كنائس، كان يقول، مع أن عدد الذين اعتنقوا البروتستانتية من مسيحيي ماردين لا يتجاوز الألف. لمن يبنون هذه المعابد؟ ومن الذي يموّلها ولماذا؟». «ولديهم ست مدارس، كان يجيب الشيخ، وهي تشرع أبوابها أمام الجميع لنشر العلم والمعرفة. ست مدارس مع أنه لم ينقضِ نصف قرن على مجيئهم إلى ماردين. فما اعتراضك على هؤلاء المبشّرين؟». «اعتراضي عليهم أنهم «يبشرون» بالمال، بالإغراءات المادية. إن الدولارات الأميركية تدعمهم، فالكثالكة الذين اعتنقوا البروتستانتية هم، في غالبيتهم الساحقة، من الفقراء المعدمين». وكان النقاش يحتدم عندما يبلغ هذا الحدّ إذ أن الشيخ مصطفى حمدان كان يذكّر صديقه بأن أرمن ماردين الذين اعتنقوا الكاثوليكية في أواخر القرن التاسع عشر إنما أقدموا على هذه الخطوة هم أيضاً بتأثير من البعثات التبشيرية الأوروبية: «ألم تكونوا من الأرثوذكس قبل أن تصيروا كثالكة؟ فلمَ تعتب على الذين كانوا من الكثالكة فصاروا من البروتستانت؟».

«الأمر مختلف تماماً»، كان يجيب الأسقف. بيد أن الحجج اللاهوتية التي كان يشرح ويفصّل ما كانت تلقى أذناً صاغية لدى الشيخ. كان هذا الأخير يلحّ على نقطة بعينها: «صفحة الخلافات اللاهوتية لا بد أن تطوى في هذه المرحلة الحرجة، فأنتم، المسيحيين، مهددون برمّتكم، والجلاّدون لن يميزوا بين أرثوذكسي وكاثوليكي، أو بين بروتستانتي وآشوري...». وكان الأسقف يوافقه، في النهاية، على هذا الرأي.

«لست أفهم لماذا لم يأخذ بنصيحتي، صارح الشيخ حمدان الأسقف تبوني بعد أن شرح له أسباب زيارته الطارئة للأسقف مالويان؛ أفليس من أول واجبات «الراعي الصالح» أن يبقى على قيد الحياة كيما يؤمّن الحماية لرعيته؟... يعزّ عليّ أن أضطلع بدور نذير الشؤم، غير أن صديقنا الأسقف أمسى في خطر؛ إن نهايته ستكون مفجعة ووشيكة إن لم يبتعد عن ماردين. هذه هي قناعتي، ويا ليت تكذبني الأحداث!».

-12-

لم تكذّب الأحداث توقعات الشيخ مصطفى حمدان. ففي مطلع حزيران، من العام ١٩١٥ عينه، جرى اعتقال الأسقف مالويان مع ما ينوف على أربعمئة فرد من الطائفة الأرمنية. سيق الأسقف إلى السراي حيث مثل أمام ممدوح مقيّد اليدين والقدمين. كانت التهمة الموجّهة إليه التآمر على أمن الدولة وتلقّي السلاح من دول التفاهم الودّي؛ «من الأم فرنسا، والعم إنكلترا، والخال روسيا» بحسب تعبير ممدوح الذي أنذر الأسقف بالكشف عن مخبأ ذلك السلاح وإلا!... وكان جواب هذا الأخير في منتهى الوضوح والبساطة: ليس هنالك سلاح حتى يكون هنالك مخبأ.

أمَر ممدوح بنقل الأسقف إلى غرفة التعذيب المسماة بغرفة الشيطان، حيث أذاقه الجلاّدون أمرّ أنواع التعذيب، ولكن من دون جدوى... استدعى، بعد ذلك، خمسة من الموقوفين ووعدهم بإطلاق سراحهم إذا ما «اعترفوا» بوجود رشاشات ومتفجرات في حوزة الأسقف. رفض الخمسة أن يشهدوا زوراً ضد الأسقف. ولمّا لم يفلح التعذيب في حملهم على تلفيق الأكاذيب خرج ممدوح عن طوره وأمر بإعدامهم رمياً بالرصاص في جوار كنيسة مار ميخائيل، أمام الصخرة - الشاهد التي ما عادت الدماء تجفّ عليها. وكان من بين الضحايا الخمس شاب من آل مرشو وآخر من آل جرماق الذين تكاد دارهم تتاخم دار آل مسعود...

لدى ذيوع نبأ هذه الجريمة هرعت بهية وملكة وفريدة إلى دار آل جرماق لمواساة أم الشاب المغدور. كانت المسكينة تلطم وجهها وتردد عبارة واحدة: أين أنت يا رب؟ أين أنت يا رب؟ لكأنها تريد أن تعاتب السماء على سكوتها عما يجري على الأرض... وفي أقل من ربع ساعة غصّت الدار بالمعزّين؛

النساء في الداخل، يتناوبن على معانقة الأم المنكوبة، وعلى مسح وجهها بمنديل مبلل بالماء، وعلى إرغامها على تجرّع قدح من ماء الزهر؛ والرجال في صحن الدار يحيطون بوالد الضحية وبشقيقه الأصغر، سمعان، الذي أقسم بأنه لن يحدّ على أخيه ما لم يَسفك قبلاً، وبمديته، دم ممدوح.

وفي لحظة من اللحظات دخل على الجمع بهجت مسعود بصحبة ابن عمه يوسف. جال الشاب بنظره على الحضور إلى أن اهتدى إلى والده. شق طريقه إليه وهو في حالة من الاضطراب الشديد. صاح والده ما أن لمحه: «خير إن شاء الله!... لمَ هذه البلبلة؟... لمَ هذا الشحوب؟... هل حلّت بنا مصيبة أخرى؟». وسّع بهجت لنفسه مكاناً بجانب والده وروى له ما سمع في البازار على لسان إسماعيل حمو، الشغّيل في مخزن جارهم مدحت آغا. فقد شاهد إسماعيل، على طريق القلعة، مجموعة كبيرة من الجنود محمّلين بالسلاسل والكلبشات والحبال الغليظة. كان بينهم نسيب له يدعى فريد فسارع يستفسره عن سر تلك الحمولة: «لقد جئنا بها من القلعة، قال فريد، لسَوق معتقلين من الأرمن... ربما الليلة، ربما غداً». ضرب روفائيل يديه كفاً بكف لدى سماعه هذا النبأ، وراح يبحث بصورة تلقائية عن شقيقه رزق الله بين جموع المعزّين. عند ذاك فقط اهتدى إلى وجود يوسف الذي كان على مسافة أمتار منه. نادى عليه؛ ولما احتل يوسف مقعده في جواره همس في أذنه بأن يدخل إلى الدار ويدعو أمه وزوجتي عمّيه إلى المبارحة فوراً. «يستحسن أن نلتمّ على بعضنا تحت سقف بيتنا في مثل هذه الساعة الحالكة»، قال.

ما كادت أسرة مسعود تتجمع بكامل أفرادها في باحة الدار، على مقربة من النافذة التي جلس العم كريم في جوارها يصغي ويسأل ويستفسر، حتى ارتفع في الخارج صوت منادٍ يأمر الناس باللجوء إلى بيوتهم وبعدم مغادرتها حتى بزوغ فجر الغد. كان الوقت عصراً، والمارة كُثُراً على الطرقات بالتالي. شق بهجت باب الدار الخارجي للوقوف على ما يجري غير أنه فوجئ بشتة يرفع سوطاً في وجهه وينهره قائلاً: «ألم تسمع النداء يا خنزير؟ إلزم بيتك

على الفور وإلا مزقتك بهذا السوط!». خرج بهجت عن طوره، وكان سيهجم على الوغد الذي شتمه لو لم يسارع ابن عمّه حنا إلى جذبه إلى الداخل والى إغلاق الباب على الفور. «هل جننت، قال له معاتباً؛ أتريد خرابك وخرابنا؟». «لعنة الله على هذا الزمن الأسود، ردّ بهجت منفعلاً؛ إن حثالة البلد هي التي غدت تتحكم برقابنا... أتعرف من يكون هذا الحقير الذي هددني بسوطه؟ إنه خريج سجون ماردين، وديار بكر والمنصورية وسواها من مدن الجوار... سارق دجاج وبيض، بل حتى ملابس داخلية... فقد سطا ذات يوم على غسيل منشور على سطح دار شفيق سلمو!». «ولمَ سكتَّ على إهانته؟ لمَ لم تشتمه؟»، سأل يوسف الذي يكنّ إعجاباً كبيراً لبهجت. «وهل فقدت صوابك أنت الآخر، ردّ حنّا، فليس هذا وقت المرجلات! في بيتنا نساء وأطفال ونحن المسؤولون عن سلامتهم؛ مهمتنا أن نحميهم لا أن نعرّضهم للخطر!». وتذكر يوسف أنه قد غدا المسؤول المباشر عن أسرته الصغيرة، عن أمه وشقيقتيه؛ مهمة أسندها إليه سليم ساعة رحيله فأقسم بأن ينهض بها على أفضل وجه. لذلك سارع يؤيد حنّا في موقفه ويعتذر عن تهوره في الكلام. ربّت حنا على كتفه بحركة ودية ثم قال، موجهاً كلامه لأبيه ولعمّيه: «لقد شغلنا هذا الأخذ والرد عن مسألة أكثر إلحاحاً: فلماذا يمنعون التجول حتى فجر الغد؟ لم يسبق أن اتُّخذ قرار مماثل من قبل؛ بحسب ما أذكر على الأقل... تُرى هل يترقبون وصول مسؤول كبير؟... هل يتوقعون تحركات للجيش؟...» «لا هذا ولا ذاك، أجاب العم كريم؛ يقيني أنهم سوف يسوقون الموقوفين هذه الليلة بالذات وأنهم يخشون من حصول اضطرابات». «ولكن سبق أن عبرت ماردين قوافل موقوفين ومهجّرين من دون أن نرغم على لزوم بيوتنا»، عقّب يوسف. «لم تكن قوافل المساقين كلها من أهل ماردين»، أوضح العم كريم الذي أضاف: «لست أدري كيف يتحمل الآباء والأمهات مشهد أولادهم يساقون، مهانين ومقيدين، نحو موت أكيد!».. وارتفعت أصوات النساء تدعو الله أن يعين المنكوبين، وتتضرع له كي يجنبهن ويجنب أولادهن

مثل هذه المحن. ثم تعالى صوت بهجت يسأل: «ترى، هل سيكون الأسقف مالويان في عداد المساقين؟». وكان روفائيل أول من أجاب، نافياً: «من غير المعقول أن يساق أسقف من ماردين، لا سيما إذا كان في مرتبة أغناطيوس مالويان». «وهل حالت مرتبته دون اعتقاله وتعذيبه؟»، قاطعه كريم. فتنطع رزق الله يجيب: «ربما حصل سوء تفاهم... ربما تلقى المتصرف إخبارية ملفّقة بصدد أسلحة جرى تهريبها للأرمن... لا تنسَ يا كريم أن السلطان كان منح الأسقف وساماً رفيعاً». «أجل، أجاب كريم بنبرة هازئة؛ بالأمس رُفع من شأن الأسقف، واليوم حُطت منزلته إلى الحضيض». ثم أردف بعد لحظة صمت: «بالأمس كنا نحن اليعاقبة «تاميز ملّة» في نظر السلطات، واليوم استبيحت دماؤنا على غرار المسيحيين قاطبة... فلمَ الإصرار على البقاء في هذه الديار؟ إن سؤالي موجه إلى رزق الله وروفائيل بالدرجة الأولى...». ولما تفادى شقيقاه الإجابة عن سؤاله تابع كريم بصوت حزين: «لا تعرّضوا أنفسكم للخطر بسببي... لدينا أصدقاء، والحمد لله، نستطيع أن نعتمد عليهم في ساعة الشدّة. لا أعتقد أن الشيخ مصطفى حمدان سيعارض فكرة استضافتي لشهرين أو ثلاثة، كما إني أستطيع أن ألتجئ إلى مضارب قبيلة شمّر حيث قحطان شقيقي بالدم... من الممكن تدبير أمر شخص بمفرده، في حين يصعب استضافة أسرة كبيرة برمتها حتى من قِبل أعز الأصدقاء».

«وإلى أين نهاجر، أجاب روفائيل باحتداد، فالدولة العثمانية متواجدة حيثما نظرنا». تدخلت هنا بهية لتقول: «لولا اضطرار ممدوح إلى البقاء على رأس عمله لذهبتُ مع الأولاد إلى أهلي في حلب. لقد سَبَقنا إليها سليم، في مطلق الأحوال، وكذلك شقيقتي وديعة مع أسرتها. ولكن يستحيل عليّ فراق ممدوح في هذا الظرف الحالك؛ لن يغمض لي جفن إذا انقطعتُ طويلاً عن أخباره». لطيفة، التي كانت تتابع حديث الكبار باهتمام بالغ، أمسكت لحظتها بيد أمها وشدت عليها لتستقطب انتباهها. ولما انحنت أمها عليها بادرت إلى استفسارها: «لن نرحل عن ماردين، أليس كذلك؟ لن نرحل مهما حصل!».

لم تعقّب بهية بل اكتفت بأن طبعت قبلة على رأس ابنتها. وخرجت أديبة عن صمتها المعهود لتسأل: «ألا يجوز لنا الصعود على السطح ساعة مرور القافلة؟ فقد حُرّم علينا التجول في الطرقات فقط». ولمّا كان صوتها خفيضاً، خجولاً، فإن كلماتها لم تُسمع إلا مِن قِبل روزين الواقفة في جوارها. «ولماذا تحرصين على مشاهدة ذلك الموكب الحزين، استفسرتها ابنة عمها، خير لنا ألا نراه بأم عيننا!...». ترددت أديبة قبل أن تجيبها، وهي تتفادى النظر إليها: «ربما كان عبد الجليل بين المساقين... قيل إنه مات، هذا صحيح؛ ولكن... ولكن ما من أحد شاهد جثته... إنه لم يُدفَن حتى اليوم... أعني أن أسرته لم تدفنه...». وبمنتهى اللطف أجابتها روزين: «إن لم تدفنه أسرته فهذا لا يعني أنه لم يمت... ينبغي أن تسلّمي بهذه الحقيقة وإن كانت مرّة». «سوف أصعد إلى السطح»، ردّت أديبة بتصميم وعناد.

لم تنفرد أديبة بالصعود إلى سطح الدار المطل على شارع المدينة الرئيسي. فقد لحقت بها روزين ولطيفة ووديعة، ومن ثم يوسف وحنّا وبهجت وعزيز ابن روفائيل الأصغر. ولئن عارض الأهل، في البداية، ما اعتبروه «خطوة محفوفة بالمخاطر»، لأنها قد تثير غضب عناصر ممدوح وتجلب نقمتهم على الدار وسكانها، فقد انضمّوا إلى أولادهم في النهاية ووقفوا إلى جوارهم، مشدودي الأنظار إلى الموكب الحزين الذي لاحت طلائعه من بعيد، والذي كان يتقدم ببطء شديد.

صمتٌ رهيب خيم فجأة على البلدة التي كان أهلها قد صعدوا تباعاً إلى أسطحة منازلهم على غرار أسرة مسعود. فقد كَمّ الخوف أفواه الصغار وحبس أنفاس الكبار. وظهر ممدوح بوضوح، راكباً على حصان، وشاهراً سيفاً، وكأنه يقود موكباً استعراضياً... وسار من خلفه، مقيَّدي الأيدي والأقدام بسلاسل من حديد، شيوخ وشبّان، رجال دين ومزارعون وتجار، أرمن وسريان... وارتفعت الأيدي من فوق الأسطحة تلوّح، محيِّية، مودِّعة،

وتحركت الشفاه بصلوات اختنقت في الحلق، وانهمرت الدموع من المقل، غزيرة، حزينة حتى الموت...

«انظروا، قال بهجت بصوت خفيض، ألا ترون الأب روفائيل بردعاني هنالك، خلف ممدوح؟ إنه يسير إلى يمين الراهب بطرس عيسى... وقد غُلّت يده إلى يده...». «لكنهما من السريان، لا من الأرمن، قال يوسف، ما عدت أفهم!». «لم يعد هنالك تمييز»، أجاب بهجت الذي سرعان ما أضاف: «يا إلهي! لقد ساقوا عبد الأحد لحدو أيضاً! مع أنه تجاوز السبعين... لم تَغفر له شيخوخته... لقد غُلّ إلى أولاده وأحفاده... يا إلهي! ستة من أسرة واحدة...». «هنالك... هنالك في أقصى اليسار، ألا ترون يوسف كسبو، سأل حنا؛ يوسف وشقيقه توما ووالدهما جرجس؟». وأضاف حنا، موجهاً كلامه لأبيه: «أفلم تفلح وساطة إبراهيم كسبو؟ سمعت أنه تدّخل لدى كبار المسؤولين للحصول على قرار بالإفراج عن والده وشقيقيه... كنت أتوقع أن تأتي وساطته بنتيجة؛ فالولائم التي أقامها على شرف المتصرف حلمي ومن سبقوه من المسؤولين تكاد لا تحصى، ناهيك عن الهدايا التي أغدق بها على أهل السلطة». «وعدوه خيراً في البداية، أجاب رزق الله، ثم نكثوا بوعدهم... يبدو أن عدداً من المسؤولين كانوا قد استدانوا مبالغ طائلة من يوسف وتوما؛ وقد اعتبروا أن أفضل وسيلة للتحرر من هذه الديون هي القضاء على دائنيهم...». «وإلى أين تتجه هذه القافلة؟»، سأل يوسف. «إلى ديار بكر على ما فهمت، رد بهجت؛ فهنالك سيصار إلى البتّ في مصير الموقوفين». «بل سيصار إلى البت في مصير من يصل منهم إلى ديار بكر، قال رزق الله بنبرة ساخرة؛ ويقيني أن عدد الذين سيبلغونها لن يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة!...» وتبدلت لهجته كلياً وهو يضيف: «يا ساتر يا رب! ما الذي أرى؟... لماذا أحاطوا أعناق هؤلاء المساكين بأطواق من حديد؟ ألا تكفيهم القيود التي تكبل أيديهم وأقدامهم؟... من يكون هؤلاء؟... ولماذا ينهال الحراس على ظهورهم بالأسواط؟...». حنا، الذي كان يقف إلى جوار

والده، هو مَن تنطع للإجابة: «إنهم من الناشطين الأرمن على الأرجح... فقد تعرفت بينهم على آرام دبّاغ، وهو من دعاة حمل السلاح في وجه المعتدين على أبناء ملّته...». «وهل هم بهائم حتى يساقوا على هذا النحو؟»، عقّب روفائيل وهو يتنهد.

وفيما كان رزق الله يتساءل إن كان جميع من طُوّقت أعناقهم هم من الناشطين فعلاً، وحنّا يجيب ويوضّح، وروفائيل يتنهد ويستنكر، ارتفع صوت ملكة يقول: «انظروا!... انظروا من يسير في آخر الموكب!... إنه الأسقف مالويان!... أكاد لا أصدّق عيني!... كيف تجرأ أولاد الحرام على تقييده وجرّه كما لو أنه مجرم؟!...». وضاعت آخر كلمات ملكة في زخم التعليقات التي أطلقها مشهد الأسقف وهو يسير مرفوع الرأس، مغلول اليدين، يحيط به الشتوات من كل صوب، كطيور كاسرة تخشى أن تفلت منها ضحيتها. وفيما كان واحد يقول: «أمر غير معقول» وآخر يردد «عشنا وشفنا»، وفيما كان هذا يتساءل «ما الذي سيحل بالأسقف؟» وذاك يضيف «بل ما الذي سيحلّ بنا جميعاً؟»، انحنى رزق الله على شقيقه روفائيل وساره قائلاً: «ينبغي أن نخطط للرحيل، وبأسرع ما يمكن... ما عادت الأوضاع تحتمل الإرجاء والمماطلة...».

أديبة التي كانت قد آثرت الانزواء بنفسها عن الآخرين فترة عبور القافلة، لتتفرس في وجوه المساقين من مرصدها في أقصى يسار السطح؛ أديبة الكتومة، الرزينة، اللاجمة أبداً مشاعرها، ذرفت دمعاً مريراً وهي تتابع بنظراتها الموكب الحزين المبتعد أكثر فأكثر. نادت عليها روزين فلم تكترث، أو لم تسمع. ولم تعرها بالاً إلا عندما دنت منها وهزّتها من كتفها. عند ذاك فقط قالت، مستبقة سؤال نسيبتها: «لم يكن عبد الجليل بينهم...».

-13-

«الحمد لله ألف وألف مرة!»، «إن الله لا ينسى عبيده!»، «نشكره على ترؤّفه بحال هؤلاء المساكين!»، «إنها لفاتحة خير؛ عساها تبشّر بنهاية الكابوس الذي نعيش». بأشباه هذه التعليقات المشحونة بالتفاؤل استقبل المجتمعون في باحة دار آل مسعود نبأ وصول الأسقف مالويان ورفاقه إلى ديار بكر «سالمين معافين». نبأ زفّه حنا مسعود نقلاً عن سليم برّو الذي يعمل في مصلحة التلغراف. فقد وصلت برقية موقعة من قِبل رشيد، والي ديار بكر، وممدوح، قائد القافلة، تفيد بأن الجميع قد بلغوا البلدة وهم على أفضل حال. «بصراحة، كنت أتوقع مثل هذه الخاتمة، قال روفائيل؛ فمن يستطيع التطاول على الأسقف مالويان؟ هل نسينا أن السلطان كان منحه وساماً رفيعاً قبل أسابيع معدودة؟». «تتساءل مَن يستطيع التطاول على الأسقف، ردّ عبد الله حلاّق، الموظف في دائرة النفوس؛ يتطاول عليه من كبّله بالحديد وساقه كالمجرمين!... فهل حالَ ذلك الوسام الرفيع دون سوقه على دروب وعرة، بل دون إهانته وضربه وتعذيبه كما لو أنه من قطّاع الطرق؟». «يبقى أن هذا الوسام قد أنقذ حياته وحياة رفاقه، أجاب روفائيل منفعلاً؛ ثق بأن الأسقف كان سيكون الآن في عداد الأموات لو لم يرفع السلطان من شأنه». فعارضه عبد الله حلاق قائلاً: «أيرفع من شأنه يوماً ثم يأمر باعتقاله يوماً آخر؟». وهل اعتُقل بأمر من السلطان ردّ روفائيل محتداً؛ إن السلطان براء مما يحصل. «الاتحاديون» هم الذين يقترفون هذه الجرائم البشعة!.

احتدم السجال بين مدافع عن السلطان ومنتقد له إلى أن ارتفع صوت رزق الله مسعود يدعو إلى إنهاء الجدل قائلاً: «المهم أن إخواننا قد وصلوا سالمين إلى ديار بكر، إن بفضل السلطان وإن بفضل الرحمن!...».

«ومن قال إنهم وصلوا سالمين؟». كان يوسف عبد الأحد، الذي فاجأ الحضور بقدومه، هو من طرح هذا السؤال. وإزاء النظرات المندهشة، الفضولية، التي تسلطت عليه من كل صوب، تابع يقول: «لقد قمت بزيارة للمطران تبوني، بغية الاطمئنان على صحته؛ فهو طريح الفراش منذ أيام، كما تعلمون ولا بد. وأثناء وجودي عنده حضر طبيب شرعي تركي هو من أصدقائه وما رواه لنا ذلك الطبيب النزيه يجعل حجر الصوان يسيل دمعه حزناً وحسرة!».

تجاهل يوسف عبد الأحد الأسئلة الملّحة التي انهالت عليه دفعة واحدة وقصد الأريكة التي كان يجلس فوقها عبد الله حلاّق فوسّع له هذا الأخير مكاناً. طلب من لطيفة كأساً من الماء ثم أخرج منديلاً من جيب جلبابه ومسح العرق المتصبب من جبهته وعنقه. ولم يَستأنف الكلام إلا بعد أن تجرّع الماء وربّت على رأس الطفلة التي بقيت منتصبة أمامه خشية أن تفوتها كلمة واحدة من حديثه. «لقد قُتل الأسقف يا إخوان، قال؛ تلقى رصاصتين، واحدة في رأسه والأخرى في صدره. ممدوح هو مَن أطلق عليه النار. أرداه قتيلاً وأطلق يد السَّفَلة من رجاله كي يمثلوا بجثته. كان أكثرهم اندفاعاً وغد يدعى باشو سرّاج؛ فقد انهال بمديته على جسد الأسقف الطاهر وراح يمزّقه تمزيقاً». وأطلق يوسف عبد الأحد تنهدة عميقة قبل أن يضيف: «كان الأسقف آخر من سقط برصاص الحقد والغدر، فقد قُتل جميع رفاقه في القافلة تباعاً، مئة رجل بعد مئة. كان ممدوح قد خاطب ضحاياه قبل أن يأمر بالفتك بهم فقال: «لقد أعطتكم الإمبراطورية بالأمس الآلاف من الامتيازات؛ أما اليوم فلن تعطيكم إلا ثلاث رصاصات...». وقد تم إعدام الفوج الأول من المساكين في مغارة شيخان؛ والفوج الثاني عند قلعة زرزوان؛ والفوج الثالث في وادٍ غير بعيد عن ديار بكر. وقد فُرض على الأسقف أن يعاين بملء نظره الإعدامات كافة. كما فُرض عليه أن يسير مغلول اليدين، حافي القدمين، فوق أرض وعرة

وتحت شمس محرقة؛ إلى أن وافت أخيراً ساعة ملاقاته وجه ربّه. ليرحمه الله؛ لقد كان قديساً».

ساد صمت عميق في الباحة الواسعة إلى أن قطعه يوسف ليسأل: «هل من الحكمة البقاء في هذه الديار بعد ما شاهدناه وما سمعناه؟» واستدار الشاب بعد ذلك نحو عمّه الأكبر، روفائيل، وصارحه قائلاً: «إني أعتبر نفسي مسؤولاً عن أسرتي في غياب شقيقيَّ؛ وقد أناط بي سليم هذه المسؤولية قبل أن يغادرنا إلى حلب. وسوف أباشر استعدادات الرحيل منذ اليوم. نذهب بدورنا إلى حلب ونبدأ فيها حياة جديدة». «ولكن ممدوح؟ صاحت أمه؛ كيف نفارق أخاك ممدوح؟ أننجو نحن بجلدنا وندعه هنا يكابد ويتلوع؟...». «ليغادر بدوره، صاح يوسف، فلماذا يغامر بحياته وحياة زوجته وابنه؟ أمِنْ أجل المرتّب الوضيع الذي يتقاضاه؟ إذا ما طلبتِ منه أن يرحل فلسوف يرحل!». «ولكن ما عسانا نفعل في حلب؟»، سألت الأم. «إن أمرَكِ عجيب حقاً، أجاب يوسف؛ فأنتِ مِن حلب أصلاً. لكِ فيها أقارب ومعارف. ثم لمَ إصرارك على البقاء في ماردين؟ أفلم تبادر شقيقتك وديعة إلى مغادرتها مع أسرتها، مع أنها قدِمت إليها قبلكِ؟». لم تشأ بهية أن تعترف، أمام ابنها وأمام الحضور، بأنه يعزّ عليها مغادرة هذه المدينة لأنها عرفت فيها السعادة، لأنها نعمت فيها بالحب... لذلك آثرت أن تجيب على نحو غير مباشر؛ فقالت وهي ترفع رأسها باعتزاز: «إن كنت حريصة على البقاء في ماردين فلأن قبر والدك هنا؛ أندعه وحيداً ونرحل؟». دنا منها روفائيل وقال لها بهدوء: «الأحياء أولى من الأموات يا بهية... لو كان زكريا لا يزال على قيد الحياة لقدّم أمْنَ أولاده على أي اعتبار آخر...». وأضاف بعد هنيهة: «لن يكون الرحيل سهلاً في مطلق الأحوال؛ فلسنا في صدد نزهة أو مشروع استجمام! الطريق ستكون شاقة، صعبة، محفوفة بالمخاطر. كما يتعين علينا، قبل كل شيء، أن نصفّي أوضاعنا هنا ونتدارس أفضل السبل للمغادرة. متى نتحرك وإلى أين؟... ماذا نأخذ معنا وماذا نترك؟... إن مهامَّ جساماً تنتظرنا، ولكن علينا أن

ننهض بها بإقدام وشجاعة، لا من أجلنا نحن بل من أجل أولادنا. . . فلو كان الأمر متعلقاً بي وحدي لما حركت ساكناً». «هل أفهم من ذلك أنك قد صممتَ على الرحيل؟»، سألت زوجته ملكة. فتولّى ابنها بهجت الإجابة عن سؤالها: «وهل يُعقل أن نفكر بالبقاء بعد الذي سمعناه؟ إني أشاطر يوسف الرأي؛ يتعين علينا أن نباشر، من الآن، بالإعداد للسفر». «أوافق على الرحيل إذا ما اصطحبنا ممدوح، عادت بهية تكرر، لن أغادر ما لم يغادر هو أيضاً».

-14-

لم تكن لطيفة بحاجة إلى من ينبئها بأن فاجعة جديدة قد حلّت بأسرتها؛ كارثة مروعة جعلت ذويها يفقدون صوابهم! فما أن اجتازت عتبة دارها حتى تزاحمت المشاهد المأساوية أمام ناظريها وضجّت أذنيها بالنحيب والعويل وصرخات الاستغاثة وصيحات الغضب والاستنكار. أمها تلطم وجهها، يوسف يضرب رأسه بالحائط، أديبة تردد كالبلهاء: «يا رب! يا رب!»، بهجت يركل بعنف المقاعد والدولاب الخشبي وهو يكرر، بملء صوته، عبارة «يا أولاد الكلب! يا أولاد الكلب!»، عمها روفائيل يبكي، عمها رزق الله أيضاً، وكذلك فريدة، وملكة، وروزين، وحنا، وعزيز، كل العائلة كانت تبكي وتنتحب فيما عداها هي وجوليا التي كانت قد رافقتها إلى دار فهيمة خياط. جوليا التي راحت تسألها، وقد تلبّسها الخوف هي الأخرى: «ما الذي حصل؟... هل سنساق بدورنا مع الأرمن؟». نفت بحركة آلية من رأسها إذ أدركت أن المصيبة قد حلّت بأسرتها الصغيرة. بمن؟ بسليم؟... بممدوح؟ طفق جسمها يرتجف وأسنانها تصطك. هل أمها هي التي صرخت: «يا حسرتي على شبابك يا ممدوح؟» أم زوجة عمها ملكة؟ ويوسف، أهو الذي يردد، وهو يجهش في البكاء: «يا حبيبي يا زكريا! يا حبيبي يا زكريا!». أتراه ينتحب على والده أم... أم على ابن ممدوح؟ على زكريا الصغير؟ على الطفل الجميل الدائم الحركة؟... ولكن ما الذي حصل يا رب؟ يا سيدتنا العذراء؟ يا جميع القديسين؟... وأحسّت الطفلة بيد تَقبض على كتفها ثم تشدها إلى حضن زوجة عمها فريدة. استسلمت للذراع التي لفتّها، وللصوت الذي همس في أذنها: «صلي يا حبيبتي، صلّي كي يمنح الله الصبر لأمك!». ومضت لحظات قبل أن تتجرأ على أن تسأل فريدة، ورأسها لا تزال غائرة في صدر زوجة

عمها: «ما الذي حصل؟ ما الذي حصل لممدوح ولزكريا؟». تنهدت المرأة قبل أن تجيب: «لقد وقعت مجزرة في المنصورية... في كنيسة مار آسيا الحكيم أو في جوارها، لست أدري... ويبدو... يبدو أن ممدوح قد ذهب ضحيتها... وكذلك عائلته... أعني زوجته وابنه».

قد تكون زوجة العم أضافت عبارات أخرى، لكن الطفلة لم تسمعها. فقد اسودّت الدنيا من حولها ثم ما لبثت أن غابت عن الوعي. وعندما صحت من غيبوبتها ألفت نفسها ممدّدة فوق ديوان في دار عمها روفائيل. كانت روزين وجوليا جالستين إلى جوارها... ألّحت عليها روزين كي تتجرّع قليلاً من سائل له طعم ماء الزهر، وسألتها إن كانت جائعة أو راغبة في شيء ما. وإزاء الصمت الذي لزمت قالت لها ابنة عمها بنبرة حزينة: «ينبغي أن تكوني قوية يا حبيبتي... تلك مشيئة الله في مطلق الأحوال، وعلينا...». لم تدع نسيبتها تكمل عبارتها إذ صاحت منفعلة: «لا! ليست هذه مشيئة الله، بل مشيئة الشيطان!...». واستقامت في جلستها ثم نهضت رغم الدوران الذي انتاب رأسها. بانت لها باحة الدار من النافذة التي تتصدر الغرفة. كانت شبه ظلمة قد لفتّها في حين دبّت فيها حركة غير مألوفة أعادتها بالذكرى إلى يوم مأتم أبيها. أُناس يدخلون وآخرون يخرجون؛ أذرع ترتفع بالتحية ورؤوس تستدير يميناً ويساراً... «إلى أين أنت ذاهبة؟ سألتها روزين وهي تحاول الإمساك بها؛ ابقي هنا مع جوليا... سوف أحضر لكما بعض الفطائر، فقد حان وقت العشاء». تحررت الطفلة من قبضة ابنة عمها التي عادت تقول، بلهجة راجية: «من الأنسب أن تبقي هنا يا حبيبتي... لا تذهبي إلى أمك... فإذا ما رأتك تبكين أو تغيبين عن الوعي تفاقم حزنها وتعاظم هلعها... يكفيها ما حلّ بها من مصائب...». «لن أذهب إليها، أجابت، غير أني لن أبقى هنا». وبخطوات غير ثابتة غادرت مسكن عمها.

اجتازت باحة الدار محنيّة الرأس، متفادية النظر فيما حولها. سمعتْ حنّا ينادي عليها فتجاهلت نداءه. مرّت بجوار قاعة دارهم الفسيحة

فأغمضت عينيها وأصمّت أذنيها بكفيها، كي لا ترى ولا تسمع ما يدور فيها من خلال نوافذها المطلّة على الباحة. نافذة غرفة نومهم كانت مفتوحة. داست بقدمٍ على حوض الزرع الحجري، الملاصق لجدار الغرفة الخارجي، وبالأحرى علًى حافة النافذة، ثم رمت بنفسها إلى داخل الغرفة. وبالرغم من الظلمة التي لفّتها اهتدت إلى الدِّرج الخشبي الذي من عادة أديبة أن توضِّب فيه المقتنيات الجديدة. أخرجت من الدرج قطعة النسيج المزركش، الذي كان ممدوح قد جاءها بها قبل أيام، وغادرت الغرفة بمثل الكيفية التي دخلت بها إليها، مسرعة في اتجاه مسكن عمها كريم. ومع أن غرفة العم كانت سابحة في شبه عتمة، فقد تقدمت فيها بخطوات ثابتة إلى أن بلغت الكرسي الذي يجاور سريره. جلست عليه وتلفحّت بقطعة النسيج. كان العم كريم يبكي بهدوء ويتنهد بين الحين والآخر. أمسكتْ بيده ومكثا للحظات صامتين، لا هو يسعى إلى الاطمئنان عن أحوالها ولا هي تحاول استفساره عن حقيقة ما جرى. وقطعت الطفلة هذا الصمت أخيراً لتطلب من عمّها، بنبرة شبه آمرة، أن يغنّي. «أغني؟ صاح مستنكراً، وهل هذا وقت الغناء؟» «أنت لا تغنّي للفرح، أجابت، وإنما للحزن. وهذه ساعة الحزن الذي ما بعده حزن!». أجهش العم بالبكاء، أمّا هي فظلّت صامدة، تقاوم الدمع حتى لا يطفر من عينيها. وعندما هدأ نحيب العم عادت تناشده، بلهجة راجية هذه المرّة، أن يغني: «غني لممدوح قالت؛ لشبابه، وجماله، للطفه ومرحه وشهامته؛ غني لي أنا، عسى يسعفني الدمع؛ عسى أقوى على البكاء. أشعر بأن رأسي سينفجر، وأن قلبي سيتوقف. فغني لي، أرجوك؛ غني لي عن الأخ الحبيب الذي فقدت!». وانقضت لحظات طويلة، ثقيلة، مشحونة بالتوتر؛ ثم ارتفع صوت العم بغناء شجي، موجع، ينصهر له القلب حزناً وألماً. غناء يشيد بعنفوان ممدوح، بحبِّه لذويه، لأرضه، للحياة؛ بقصور الأحلام التي شَيّد؛ بالأسرة الرائعة التي بنى؛ بأفعال الخير التي زرعت دربه؛ بشجاعته ساعة المحن؛ ببهاء طلعته ونبل أخلاقه ونفاذ بصيرته... وفيما كان العم يغنّي كانت صُوَر، زاهية الألوان،

تتراءى للطفلة في الظلمة المحيطة. صور يحتل فيها ممدوح موضع الصدارة، موضع القلب. ممدوح يرقص في باحة الدار يوم الاحتفال بزفافه؛ ممدوح يرفع زكريا الصغير بذراعيه وهو يدعوه إلى أن يطاول القمر، ممدوح يمتطي صهوة جواده، منتصباً كالريح، شامخ الرأس؛ ممدوح ينحني عليها ليطبع قبلة على وجنتها... ولشدة تأثرها بما تشاهد رفعت يدها تريد أن تداعب شعر أخيها.

لكن العم انتقل لحظتها من المديح إلى النحيب. ما عاد يتغنّى بخصائل ممدوح، بل راح يلعن النفوس الشريرة والأيادي الغادرة التي تسفك الدماء البريئة، ويناشد الله أن يصّب جام غضبه على ذوي القلوب القاسية، الجلمودية، الذين قصفوا عُمر فارسٍ مغوار بعد أن أذاقوه أمرّ أنواع العذاب، بعد أن قتلوا أمامه زوجته وفلذة كبده... أطلقت الطفلة، عند ذاك، صرخة هول أخرست العم، وراحت تردد، من غير إدراك، من غير وعي: «أنت تلفّق!... أنت كذّاب... أنت تلّفق!... أنت كذاب!...». وبقيت تردد هذه الكلمات، حتى بعد أن ضمها بقوة إلى صدره، إلى أن انبجس الدمع من عينيها غزيراً، جارفاً، محمَّلاً بالأسى والمرارة والغضب.

-15-

«إذا ما بلغنا رأس العين بأمان نكون قد تجاوزنا عتبة الخطر»؛ «المهم أن نصل إلى رأس العين سالمين معافين»؛ «لنصلِّ، صبحاً ومساءً، كيلا نلتقي بأولاد الحرام ونحن في طريقنا إلى رأس العين»؛ «ينبغي أن نحمل معنا زاداً يكفي لأيام، فالطريق طويلة إلى رأس العين حتى وإن قُطعت على ظهر الدواب»؛ «الطعام متوفر في رأس العين على حد زعم مصباح الشركسي»...

منذ أن حَزمت أسرة مسعود أمرها على الرحيل غدت تستيقظ على اسم رأس العين وتغفو عليه. فمِن رأس العين يمر القطار الذي يذهب إلى حلب، وإلى حلب سوف يتجه أفراد هذه العائلة، بعضهم للاستقرار فيها، وبعضهم الآخر للانطلاق منها إلى بيروت ومن ثم إلى الإسكندرية؛ خيار استقرت عليه عائلة رزق الله مسعود لأن بكرها، أنيس، قد غدا يقيم في مصر بعد أن هرب من الجندية الإلزامية؛ خيار زرع الحزن والغم في قلب روزين، ابنة روفائيل، لأنها كانت تهدهد حلم الزواج من ابن عمها حنا؛ وفي قلب لطيفة، أيضاً، إذ غدت لا تحتمل فكرة الفراق عمّن تحب بعد أن فقدت والدها وشقيقها وزكريا الصغير... كانت الطفلة تسعى جاهدة إلى التمسّك بحبل التفاؤل، إلى إبراز الجانب الإيجابي في مشروع الرحيل. ففي حلب يخيّم الأمان؛ وفي حلب يقيم شقيقها سليم وخالاها، حبيب وباسيل، اللذان كثيرا ما حدثتها عنهما أمّها؛ وإلى حلب قد سبقتهم أسرة خالتها وديعة وأُسر أخرى من ماردين عَرفت أولادهم على مقاعد الدراسة. ولكن يبقى الذهاب إلى حلب اغتراباً مؤلماً. فقد فُطِرت على حبّ الماضي، على الحنين الدائم إليه. وماضيها هو في ماردين، المدينة الجميلة والوديعة، المزروعة ذكرياتها في كل ركن من أركانها، في دائرة تحرّكها فيها بالأحرى. وبيتها، أيضاً، هو في ماردين، بيت

الطفولة الذي ما بعده بيت. البيت الذي شيّده جدّها، على أمل أن تقيم فيه سلالته جيلاً بعد جيل؛ البيت الذي أمضت فيه أياماً سعيدة، هنيئة، حافلة بالأحداث السارة إلى أن جاء مرض والدها، ومن ثم وفاته، ليفتحا الباب أمام أحزان سوّدت دنياها... والرحيل إلى حلب يعني، كذلك، الانسلاخ عن العم كريم، بل التخلي عنه في أصعب الأوقات وأحلكها. صحيح أنه ما فتئ يلحّ على أسرته كي تهاجر وبأسرع ما يمكن، مؤكداً بأنه سيكون في منأى عن الأخطار في دار الشيخ حمدان الذي رحّب باستضافته ورعايته، غير أنها تدرك تماماً فداحة المحنة الجديدة التي سوف يُرغم على تحمّلها. فقد كان فسخ خطوبته من الفتاة التي يُحبّ لأنه صَعُب عليه أن يفرض عاهته عليها باسم الرأفة والشفقة. فكيف سيهون عليه، وهو الأبي والأنوف، أن يغدو حِملاً ثقيلاً على شخص غريب، حتى وإن كان هذا الغريب صديقاً قديماً للأسرة؟ كيف سيقوى، أصلاً، على مواجهة حياةٍ ما عادت تَعِده إلا بالأحزان والآلام، وقد فُصل عن أشقائه وأولادهم، عن الدار التي ترعرع فيها، عن أصداء تلك الدار، عن الأصوات التي تعجّ بها، والروائح التي تعبق من أرجائها، والأجواء الدافئة التي تشع منها؟ وكيف سيغنّي مع هبوط الليل، فيبوح بمشاعره لآذان غير معنية بما آل إليه مصير كريم مسعود المفجع، المأساوي، الحالك السواد؟... ومَن عاد، أصلاً، يعير هذا المصير بالاً، حتى في دائرة أسرتها بالذات؟ لا تريد أن تقسو على ذويها؛ فالمصائب التي حلّت بهم، والهموم التي تثقل عليهم، والأخطار التي تحدق بهم، أرغمتهم على تهميش مشكلة العم كريم؛ على إسقاطها من بين أولوياتهم بالأحرى.

هذه الأولويات جرى تحديدها خلال جلسة تشاور شارك فيها زوجا العمّتين وردة وسلمى؛ جلسة كانت قد انعقدت في باحة الدار، على إيقاع صريخ ونحيب المساقين الذين كانت طوابيرهم تجتاز دروب ماردين.. وقد حصل إجماع فوري على مبدأ الرحيل الجماعي، بشرط أن يتم على دفعتين. ففي مرحلة أولى يغادر روفائيل ورزق الله مع عائلتيهما وعائلة زكريا؛ وفي

بحر أسابيع معدودة، ريثما ينتهيان من ترتيب أوضاعهما في القصور وديار بكر، يلحق بهما إلياس كنعان وخليل نعمة مع أسرتيهما. في حلب يلتقي الجميع، ولكن لآنٍ. فلئن عزم العم رزق الله على التوجه لاحقاً إلى مصر، فإن خليل نعمة زوج العمّة وردة، قد اختار هو الذهاب إلى زحلة حيث يعيش عمه، القس جبرئيل. «مناخ زحلة يشبه مناخ ماردين، كرّر في تلك الجلسة، وعمي القسيس قادر على مساعدتي وعلى تأمين مقعد دراسي لعبد الله ومحبوبة». أمّا إلياس كنعان، زوج العمّة سلمى، فهو ينوي الاستقرار في بيروت؛ فهو تاجر والتجارة نشطة في هذه المدينة المرفئية.

كل يبحث عن الحل الأنسب له. تلك هي سنّة الحياة. العم كريم يدرك هذه الحقيقة ويسلّم بها. أما هي، فلا. إنها ترفض التخلي عن عمّها؛ ترفض هجران بيتها؛ ترفض الابتعاد عن بلدتها؛ ترفض الذهاب إلى حلب. لكنها ليست سيدة قرارها. عليها أن تنصاع وتنفذ أوامر أديبة التي غدت تربط وتحلّ مع تقاعس أمها عن النهوض بدورها. فمنذ أن بلغهم نبأ مصرع ممدوح وأسرته وأمها في حالة ذهول، بل خبل. لا تتكلم، لا تغادر مقعدها، لا تتعاطى بشؤون البيت، بل تذرف الدمع وتتأوه. تأبّت عن الطعام في البداية، ولم تتناول كسرة خبز إلا بعدما أنّبها العم روفائيل قائلاً: «ألا يكفي ما يتحمّله أولادك من مآسي؟ أيتعيّن عليهم، أيضاً، أن يقلقوا ويغتمّوا خوفاً عليك؟».

غريب أمر أديبة. تتصرف وكأن الأسرة ذاهبة في إجازة تعود منها لتلقى الدار على حالها، مرتّبة، نظيفة. فهي لا تنفك تغسل، وتنشر، وتكنّس، وتطوي الملابس، والمناشف، وأغطية الأسرة التي ستظل قابعة في الدروج والدواليب، وتحزم، بالمقابل، ما سوف تحمله معها الأسرة من ملابس ومتاع. وقد ضاقت لطيفة ذرعاً بعملها الدؤوب، بانهماكها، على مدى ساعات، في مسح زجاج النوافذ وفرك وحفّ بلاط قاعتهم الكبرى، فرفعت صوتها تقول: «لماذا ترهقين نفسك في تنظيف الدار وتلميعها؟ أإكراماً للذين سيسطون عليها في غيابنا؟». فردّت أديبة بانفعال: «ما هذا الكلام الفارغ؟ أي أحمق سيتجرأ

على الاعتداء على دار آل مسعود؟ على احتلالها؟... قد تطول إقامتنا في حلب، لكننا سنعود حتماً إلى ماردين، إلى دارنا».

هنا تفوّهت الطفلة بعبارة لطالما عاتبت نفسها عليها لاحقاً؛ فقد قالت بنبرة هازئة: «سوف نعود إلى ديارنا دون أدنى شك؛ تماماً كما سيعود عبد الجليل سيوفي إلى ذويه!». نطقت بهذه الكلمات وهرعت ترتمي في حضن شقيقتها الكبرى، مدركة فداحة الخطأ الذي ارتكبت. وللمرة الأولى في تاريخ علاقتها مع أديبة دفعتها هذه الأخيرة بقسوة فكادت تفقد توازنها وتهوي على الأرض.

-16-

تحولت باحة الدار إلى سُوق، إلى بازار يعجّ بالناس وبالضجيج. حقائب، وسِلل، وحزم متكدسة في كل ركن؛ غرباء يذهبون ويأتون، مزوّدين بحبال غليظة، منفِّذين تعليمات العم روفائيل وتوجيهاته؛ سائسون يعلنون أن الدواب قد حُضِّرت وغدت في انتظار تحرك القافلة؛ متاع يُحمَل على أكتاف العتّالين وسط توصيات نساء البيت بالتريث والتؤدة؛ جيران وأصدقاء ومعارف يقدمون زرافات لتوديع أهل الدار؛ قُبلات وتمنيات وتبادل عبارات غدت مألوفة في هذا الزمن التعيس: «ليكن الله في عونكم»، «خذوا بالكم من نفسكم»، «طمنونا عنكم في أقرب وقت»، «رافقتكم السلامة»، «في أمان الله»... صخب وضجيج سادا على مدى ساعتين أو أكثر ثم توقفا، على حين غرة، مع قدوم العم رزق الله وبصحبته أربعة رجال أشداء، مفتولو الشنبات، مدججون بالسلاح؛ فعلى أكتافهم بنادق، وعلى خصورهم خناجر ومديات، وعلى صدورهم أمشاط من الرصاص. كان الأربعة يعتمرون قلابق تفيد بأنهم من الشركس؛ إنهم الحرّاس الذين سيرافقون أسرة مسعود لغاية رأس العين. حرّاس مأجورون طبعاً، غير أن الحصول عليهم كان سيتعذر، بل سيستحيل، لولا وساطة الشيخ مصطفى حمدان: فالشركس يشكّلون أقلية ضئيلة في ماردين، والراغبون في حمايتهم كثُر في زمن انعدم الأمن فيه.

انقبض صدر لطيفة لدى مجيء الرجال الأربعة، فقد كان لظهورهم الوقع الأليم عينه الذي أحدثه، قبل بضعة أشهر، دخول نعش أبيها محمولاً على أكتاف أربعة عتّالين. فلئن حضر النعش ليقتلع الأب عن بيته، ليرحّله بعيداً عن ذويه وأحبائه، فقد جاء الحراس الأربعة هذه المرّة ليدقوا ناقوس الهجرة إلى ديار الغربة؛ جاؤوا يعلنون أن ساعة الانسلاخ عن دار اختزنت ذكريات

طفولة سعيدة قد أزفت، وأن لحظة وداع العم كريم وتقبيله للمرة الأخيرة قد دنت، بل غدت وشيكة للغاية؛ فلطيفة تدرك، في صميمها، أن رحيلهم سيكون بلا عودة، على غرار رحيل الأب، ومن بعده الشقيق الغالي... تودّ لو تستطيع أن تردد، أسوة بأديبة وبابنتي عمّها، «عندما سنعود»! عبارة تُبلسم جراح القلب، ولكن من تخدع بها؟ نفسها؟ أم العم كريم الذي يدرك، هو الآخر، أن فراقه عن ذويه سيكون نهائياً...

من حيث وقفتْ، في وسط الباحة، جالت بنظراتها على ما يحيط بها كأنها تريد أن تعانق بعينيها، وأن تثبّت في قرارتهما كل جزء من أجزاء تلك الدار الغالية. مسكن عمها روفائيل، مع أصص الريحان على أطراف نوافذه، والتي اعتاد عمها على تمرير يده فوقها كلما مرّ في جوارها. مسكن عمها رزق الله، المطلّ على صدر الباحة، والذي تؤطّر مدخله شجرتا كباد متشابهتان في الطول والحجم وكأنهما توأمان. غرفة المؤن، المحاذية للمطبخ، التي تصطف فوق مصاطبها ذخيرة الأسرة الغذائية من زيت، وسمن، وحبوب، وأطايب على أنواعها كالزبيب، والتين المجفف، والملبن، والبستيق[1]، والدبس، والعسل... وعندما تكسو الثلوج الطرقات في فصل الشتاء، فتنقطع المواصلات بين ماردين والخارج، بل يغدو التنقل داخلها أيضاً صعباً وخطراً، فإن خوابي غرفة المؤن، المملوءة بالقليّة اللذيذة، تتولى تأمين وجبات الغذاء على أسابيع... أما المطبخ الفسيح، الذي تدّب فيه الحياة مع طلوع الفجر، فقد كان حقاً «ندوة نساء آل مسعود» كما كانت تسميه ملكة. فمن أضاع واحدة من بينهن وجدها في ذلك المطبخ. فهذه تطهو، وتلك تجلي، وأخرى تعجن... كانت الروائح التي تنتشر منه بمثابة روزنامة تحّدد الأيام والفصول والأعياد. فإذا ما عبقت الباحة برائحة السمك المقلي، أو شوربة العدس، أو العجة، فهذا يعني أن النهار يصادف الجمعة، يوم الصوم الأسبوعي عن اللحم.

---

١ - حلوى تصنع من ثفالة العنب والسكر والنشاء.

وإذا ما فاحت رائحة الدجاج أو الكيبة[1] أو الكبة هميس، فهذا يعني أنه الأحد أو يوم عيد. أما إذا ما دوّخت رائحة الكليجة أهل الدار والجيرة فهي تبشر بالمرفع[2] وباقتراب موعد الصوم الكبير... وبعد المطبخ يأتي مسكن العم كريم! لا تريد أن تنظر إلى عمها الآن حتى لا يغلب عليها البكاء، فتضطر إلى توديعه بعينين دامعتين. ولكن كيف تتفادى رؤيته وقد استقام في سريره، المجاور للنافذة، يراقب كل ما يدور في الباحة وكأنه يسعى، هو الآخر، إلى أن يختزن في قرارة ذاكرته مشاهد حياة سوف تتلاشى... أمها جالسة هي الأخرى في قبالة إحدى نوافذ مسكنهم. غير أنها لا تراقب ما يجري في الباحة بل تحملق في الفراغ، غير معنية بالاستعدادات للرحيل. سوف تغادر مكانها، ولا ريب، عندما سيُنادى عليها؛ وأغلب الظن أنها سترحل من دون أن تلقي نظرة وداع على الدار التي إن عَرفت فيها أعواماً طويلة من السعادة؛ فقد كابدت فيها أيضاً من مرارة الفواجع والمآسي.

«لماذا لا تجيبين؟ أما سمعت ما قلته لك؟». ولكن هل سبق ليوسف أن كلّمها؟ فهي لم تنتبه إلى وجوده قبل اللحظة. ماذا قال لها؟ استفسرته فعاد يوضّح: «سألتكِ عما تحملين في هذه الصرّة، فإن كان زاداً فضعيه في السلّة الكبيرة التي رفعها بهجت تواً على الدابة». ولما نفت بحركة من رأسها عاد يقول، ولكن بصوت خفيض هذه المرة: «هل جمعتِ فيها أشياء ثمينة؟ أعني مصاغاً أو مجيديات...». وحيال نفيها المتكرر صاح بشيء من النزق: «ماذا وضعتِ فيها إذاً؟» فردّت بهدوء: «أشياء تخصّني». هزّ يوسف كتفيه وابتعد بعد أن أوصاها بأن تكون جاهزة لأنهم سوف يتحركون بين لحظة وأخرى. «إني جاهزة»، أجابت وهي تشد الصرّة إلى صدرها وتطبع قبلة خجولة على أحد أطرافها. ففيها وضَعتْ قطعة النسيج المزركش، التي أهداها إياها

١- كرش خروف محشوة بالأرز واللحم أو بالبرغل واللحم.

٢- الأسبوع الذي يسبق فترة الصوم الكبير عند النصارى وتقام خلاله الولائم والاحتفالات.

ممدوح، وكيساً ورقياً صغيراً فيه حبّات من الملبّس، كان والدها قد جاءها بها من السوق عشية ذلك اليوم المشؤوم الذي وقع فيه صريع المرض...

ودّعتْ عمها كريم من غير أن تبكي؛ بل ظلّت تبتسم إلى أن غادرت غرفته. وابتسمت، أيضاً، لابن عمّها حنّا عندما رفعها بين ذراعيه وأجلسها على ظهر الدابة التي اعتلاها شقيقها يوسف. «تمسكي بي جيداً، أوصاها هذا الأخير، وإلاّ سقطتِ على الأرض». جوليا، التي ركبت هي خلف شقيقها بهجت، أخذت تضحك وكأنها مُقدِمة على نزهة. أما أمها وزوجتا عميها اللواتي اعتلت كل واحدة منهن دابة فقد كانت دموعهن تسيل غزيرة، أسوة بأديبة وروزين. وتحرّكت القافلة، يتقدّمها الحرّاس سيراً على الأقدام، يتبعهم العمّان، فالنساء، فيوسف وبهجت مع الطفلتين. أما عزيز وحنّا، اللذان سارا في المؤخرة، فكانا يقودان دابة حُمِّلت بالمؤن والمتاع.

كان الجيران قد خرجوا إلى عتبات بيوتهم ليودّعوا أسرة مسعود. أمام دار آل خياط وقفت فهيمة إلى جانب أمها، وفي يدها منديل أبيض راحت تلوح به لمّا لاحت لها لطيفة وجوليا. وكذلك فعلت وردانة جبّور عندما مرّت القافلة الصغيرة أمام دارها. وحين بانَ الكوخ الوضيع الذي تقطنه سوسة القبرغايه اختطفت لطيفة النظر إلى ابنة عمها ثم صاحت: «خالة سو...و....سة!». توقعت أن تأتي صرختها قوية، مدوّية، غير أن الصوت الذي خرج من حنجرتها كان مخنوقاً، مرتجفاً، أجشّ...

-17-

- لا تنظري إلى يمينك! لا تنظري إلى الكنيسة!

على كلمات يوسف، المحذِّرة، الناهية، ودّعت لطيفة ماردين. كانت القافلة الصغيرة قد بلغت التخوم الجنوبية للبلدة، حيث تنتصب كنيسة مار ميخائيل. انصاعت الطفلة طواعية لأمر شقيقها، تجنباً لصدمة جديدة هي في غنى عنها. فقد سمعت الكثير عن الجرائم المروِّعة التي تُرتكب عند الصخرة العالية التي تجاور الكنيسة، والتي استحال لونها أحمر دامياً. فما من يوم بات ينقضي من دون أن يُعدم، رمياً بالرصاص أمام حجر الشؤم ذاك، عدد من الشبان، والشيوخ، بل ومن النساء والأطفال.

أغمضت عينيها خشية أن تغافلاها فتنظر حيث لا يجوز. أغمضت عينيها فبانت لها الصخرة كما عهدتها، حارساً على ألعاب الأطفال المتحلّقين من حولها. ففي أيام الآحاد والأعياد كان الأولاد، الذين قدموا مع ذويهم لحضور القدّاس، يغادرون الكنيسة تباعاً ويجتمعون عند الصخرة لتنظيم ألعاب جماعية. كان صريخهم، وضجيجهم، وأصداء ضحكهم تشوّش على المصلّين، بل وعلى الكاهن أيضاً، فيرسل القندلفت زخيا ليوّبخهم ويأمرهم بلزوم الصمت. وكانوا يلتزمون بالأمر، ولكن لدقائق معدودات... ويوم عيد الشعانين أقدم منصور، شقيق وردانة جبّور، على تسلق تلك الصخرة؛ وحين بلغ قمّتها راح يضرب على صدره وهو يردد، بصوت جهوري: «أنا حلمي بك! أنا متصرّف ماردين الجديد!». وقد أثارت حركاته موجة من الضحك والتصفيق كانت ستطول لو لم يخرج والده من الكنيسة مهرولاً ويصرخ بأعلى صوته: «اِخرس يا مجنون! أتريد خراب بيتنا؟!».

«لقد غدا الضحك ممنوعاً في ماردين»، قالت مخاطبة نفسها، ولكن بصوت مسموع. فأجابها يوسف، مؤاسياً: «سوف نبدأ حياة جديدة في حلب، سوف ننعم براحة البال وبرغد العيش؛ لا تنسي أن لدينا فيها أقارب، وأن سليم قد سبقنا إليها!... يعني أنك ستضحكين فيها ملء صدرك». لم تشأ أن تعارضه، ولاسيما أنها كانت تدرك، في قرارة نفسها، أنه غير مقتنع تماماً بما يقول، وأن هدفه التهوين عليها. لذلك آثرت تغيير الموضوع؛ تظاهرت بالفضول وهي تسأله: «هل سيرافقنا الحرّاس لغاية حلب؟». ضحك يوسف وأجاب: «طبعاً لا!... فمن يعيد الدواب إلى ماردين؟... هل كنت تتوهمين أن الدواب ستسافر معنا في القطار؟... هل كنت تتوقعين أن نشتري لكل دابة بطاقة، فنصعدها إلى العربة وندعوها إلى الجلوس في مكانها المحدد والمكوث بلا حركة؟». «وهل خلتني بلهاء؟»، قالت وهي تضحك بدورها؛ وانحنت على ظهر شقيقها وقد تجرأت أخيراً على فتح عينيها. وبعد لحظات عادت تسأله: «هل القطار هو، فعلاً، غرف تسير على عجلات؟ فهذا ما زعمَته وردانة جبّور نقلاً عن والدها الذي سافر فيه قبل شهر». «إنه شيء من هذا القبيل»، أجاب يوسف الذي ما كان يملك المزيد من المعلومات عن وسيلة النقل العجيبة الغريبة تلك. «وهل توجد مقاعد، وطراريح، وقناديل وأَسرّة في تلك الغرف؟»، سألت من جديد. «بل توجد فيها، أيضاً، قدور ومناقل وحتى تنّور»، ردّ الشاب بنبرة متهكمة قبل أن يضيف:

- لم أركب القطار قبلاً كيما أفيدك بما يحتوي؛ عندما سنصل إلى رأس العين سنرى ما شكله وما في داخله.
- يعني هذا المساء؟...
- هذا المساء؟!... بل بعد أسبوع في أفضل الأحوال!... إن طريقنا طويلة، يا لطيفة، ولترافقنا السلامة: هذا ما نطلبه من الله، فصلّي كي يحرسنا ويحمينا.

ترددت الطفلة قبل أن تعلن:

- لن أصلّي... لن أطلب شيئاً بعد اليوم، لا مِن الله ولا من السيدة العذراء ولا من أي قديس...

- ما هذا الكلام؟ صاح يوسف باحتداد: يتعيّن علينا، دوماً، أن نصلّي وأن نتضرع للرب ونشكره على عطاياه!

- وعلامَ أشكره؟ على وفاة والدي؟ على قتلِ ممدوح وعائلته؟ على شلل العم كريم؟ على مصرع عبد الجليل سيوفي؟ أم أشكره على انسلاخنا عن بيتنا وبلدنا؟ على آلاف المساكين الذين يُهجَّرون، ويُعذّبون، ويُذبحون؟... لا، لن أصلّي ما لم يغير الله موقفه منا! لن أغفر له ما لم يعترف بأنه قد بالغ في الإساءة إلينا!... فماذا فعلنا له، قل لي؟

توقعت أن يوبخها يوسف، بل أن يقسو عليها بالكلام؛ فهو شديد الإيمان، يصوم ويصلّي على الدوام، وينصاع أبداً لإرادة الله. وهو لا يكفر ولا يجدّف حتى لو حلّت به المصائب والكوارث تباعاً، بل يتقبلها برحابة صدر لأن «تلك هي مشيئة الباري عز وجل»، شأنه في ذلك شأن أديبة.

لكن يوسف لم يوبخ ولم يزجر. راح، بالعكس، يقهقه؛ بهجت، الذي كان يتقدمهما فوق دابته، سأل، مِن غير أن يدير رأسه: «أتضحك لأنك تغادر جحيم ماردين يا يوسف؟... لا تتفاءل كثيراً يا ابن العم: فنحن ننتقل من أرض عثمانية إلى أرض عثمانية». فأجاب يوسف، بعد أن هدأت نوبة ضحكه: «لست منشرحاً يا بهجت؛ ولئن غلب عليّ الضحك فبسبب إنذار وجّهته لطيفة. احذر لمن؟ لله!... أجل، إن شقيقتي الصغرى تتعامل مع الباري، عز وجلّ، معاملة الند للند...». وتابع يوسف يقول، ولكن بلهجة جادة هذه المرة: «نحن لم نغادر أرضاً عثمانية يا بهجت! لقد غادرنا أرضنا، أرضنا التي غزاها العثمانيون! أأذكّرك بأن إقامتنا فيها تعود إلى ما قبل التاريخ الميلادي؟ لقد عاش فيها أجدادنا على مرّ العصور؛ صنعوا حضارة، فلحوا، جنوا، ازدهروا، تكاثروا؛ من صفوفهم خرج مفكرون، وعلماء، وفلاسفة، وشعراء، وتجار انتشروا فوق بقاع الأرض قاطبة. وصلوا إلى الصين وإلى

أميركا، بنوا وشيّدوا حيثما أقاموا... نحن ننتمي إلى أرض مجيدة وشعب عظيم يا بهجت. ينبغي ألا ننسى ذلك، ولو لحظة واحدة، لا سيما في غربتنا».

لم يعقّب بهجت على كلام ابن عمه، بل أطلق تنهدة عميقة أتبعها بضربة من سوطه على مؤخرة الدابة التي انصاعت على الفور تحثّ خطاها.

كانت القافلة قد خلّفت ماردين وراءها، متقدمة على درب ترابية تحيط بها كروم العنب وبساتين عمرت بأشجار التين والتفاح. تذكرت لطيفة نزهاتها الصباحية مع عمّها كريم فراودتها الرغبة في البكاء. ماذا عساه يفعل الآن؟ هل أرسل الشيخ حمدان مَن ينقله إلى داره؟ هل سيوافق العم، أصلاً، على مغادرة بيته وعلى قبول ضيافة الشيخ؟ لقد أكد ذلك مراراً، ولكن ربما كيلا يعطّل مشروع رحيل ذويه. وقد يصرّ على لزوم غرفته بعد أن اطمأن إلى مغادرتهم... وطفر إلى ذهنها سؤال سارعت تطرحه على شقيقها: «أين سنبيت الليلة، قالت، أفي خان أم عند معارف؟». «لست أدري، أجاب يوسف، فإن وجدنا خاناً بتنا فيه؛ وإلا نمنا في العراء». «في العراء، صاحت الطفلة مذعورة؛ ولكن قد يعتدي علينا قطاع الطرق!». «معنا حراس مسلّحون»، ردّ يوسف مطمئناً.

-18-

للّيلة الثانية على التوالي باتت أسرة مسعود في العراء. لم تبحث، على أي حال، عن خان لتخلد إلى الراحة فيه. فقد أفادها مهاجرون قادمون من ويرانشهر غرباً، ومن نصيبين شرقاً، أن الخانات جميعها قد صودرت من قِبل السلطات لتأمين مبيت المسؤولين عن السوقيات، وأن الحقول قد غدت أكثر أماناً من أوكار الشتوات وقطاع الطرق تلك... للّيلة الثانية، إذاً، افترش جميع أفراد الأسرة الأرض، متوزعين داخل حقل صغير تسيّجه شجيرات صبّار. شجيرات تجرّدت كلياً من ثمارها التي التهمها، ولا بد، الجياع المشرّدون على الطرقات... فظُهر ذلك اليوم كانت الأسرة قد توقفت بجوار مجرى جدول جفّت مياهه، لأخذ قسط من الراحة وتناول طعام الغداء. وقد تولى العم روفائيل تقسيم بطيخة حمراء كبيرة، كان قد ابتاعها من أحد الفلاحين، ثم تولى بهجت توزيعها على الصغار والكبار. وقد جرى تجميع القشور في ركن فتهافت عليها الذباب. غير أن «وليمة» الحشرات لم تدم طويلاً؛ فقد صادف مرور جمع من المهجّرين فسارعوا ينقضّون على تلك البقايا. أخذوا ينهشون في قشر البطيخة الأبيض، سعياً وراء قدر من الماء يبلل حلوقهم التي جفت، وأملاً في ذرة من الحلاوة التي كادوا أن ينسوا مذاقها... وقد استأثر ذلك المشهد المفجع باهتمام سائر أفراد الأسرة، فيما عدا لطيفة. فقد شغلتها عنه النظرة الماكرة، الشريرة، الجشعة التي ألقاها أحد الحرّاس على شقيقها يوسف، على خصر يوسف، بالتحديد، المؤطر بزنّار عريض مصنوع من نسيج خمري مزركش. كانت تعلم أن كل ما تملكه أسرتها من مصاغ ومجيديات قد أخفي خلف ذلك الزنار. فهل اكتشف الحارس هذا المخبأ؟ هل هو طامع في مالهم؟ في حصانتهم ضد العوز والاستجداء؟ سارّرت شقيقها بما لحظته

عيناها عندما استأنفت قافلتهم مسيرتها، لكن يوسف سَخِر من مخاوفها: «إن هؤلاء الحرّاس يرافقوننا لحمايتنا لا للاعتداء علينا»، قال بنبرة هازئة. ثم تابع، بشيء من الزهو: «لستُ بحرمة يا لطيفة. في مطلق الأحوال! لقد غدوتُ رجلاً... والرجل لا يُعتدى عليه...».

نسي يوسف، ولا بد، في أي زمن أسود يعيش؛ نسي أن الاعتداءات، في أبشع صورها، غدت تطال يومياً الآلاف من الرجال، الضعفاء منهم والأشداء على حد سواء. لذلك أخلد للنوم مطمئناً إلى وجود الحرّاس، المتوزعين على أطراف الحقل الصغير، مسلماً أمره لرعايتهم، لسهرهم عليه وعلى سائر أفراد أسرته. كان قد اختار لنفسه مكاناً منزوياً بعض الشيء، بعيداً عن شخير عمّه، وعن تبرّم النسوة من قساوة الأرض ورطوبة الجو، وبعيداً أيضاً وخاصة عن أمه التي ما تكاد تنفرد بنفسها حتى يغلب عليها النحيب والبكاء.

تلا يوسف صلواته المسائية المعتادة وهو راكع على ركبتيه، بالرغم من الحصى الصغيرة التي انغرست في جلده، ثم تمدّد فوق التراب، جاعلاً من صرّة ملابسه وسادة ومن سترته غطاء. ولشدة إعيائه بعد نهار طويل، قضى نصف ساعاته وهو راكب على دابة، ونصفها الآخر وهو يسير على قدميه، أغفى في مثل لمح البصر. هل نام دقيقة أو دقيقتين أم ساعة أو ساعتين؟ فقد استيقظ فجأة على لسعة باردة على عنقه ونفخة ساخنة على وجهه. وقبل أن يسترد وعيه كانت يد جلفة تنطبق على فمه وصوت يهمس في أذنه: «إياك أن تصرخ أو تتحرك وإلا ذبحتك كنعجة»؛ وترافق الصوت، الذي ذكّره بفحيح أفعى، بوخزة نصل في رقبته.

سيطر الهلع على يوسف الذي خشي أن تكون ساعة أجله قد أزفت؛ وقد زاد في روعه كون مطلق التهديدات واحداً من حرّاس قافلتهم! فقد تعرّف عليه بفضل النور الخافت الذي كان يبثه القمر. فبمن يستنجد وقد غدا الحامي هو المعتدي؟ وكيف يستنجد، أصلاً، وقد فقد القدرة على الكلام وعلى الحراك؟ فقد خارت قواه، وشُلّت أطرافه، واختنق صوته في حنجرته.

فحتى لو رفع المعتدي يده عن فمه ونصله عن عنقه، لما أطلق صرخة أو أتى بحركة. وعاد الصوت يهمس في أذنه: «أعطني بسرعة ما تحمل من مال... كل ما تحمل... هيا، فك زنّارك وناولني المجيديات!».

تحامل يوسف على نفسه كي يرفع رأسه، ومن ثم ليجلس؛ وبيدين ترتجفان فزعاً واضطراباً فك زنّاره فبان كيس من القماش الأسود ثُبِّت على خصره بشريط جلدي رفيع. انقضّت يد الحارس على الفور على الكيس تبغي انتزاعه عنوة؛ لكن الحزام الجلدي، المعقود بإحكام، أفشل مسعاه. حاول الجاني عند ذاك أن يقطع الشريط بسكّينه، ولمّا لم يفلح لعن والدي يوسف وأهل ملّته وشتم أمّه وحريمه. استبشر يوسف خيراً بثورة غضب المرافق الحقير. فشتائمه ومسبّاته قد توقظ واحداً من أهله أو من الحرّاس فيهبّ لنجدته، وبأسرع ما يمكن؛ ذلك أن نسيج كيس النقود والمصاغ بدأ يتمزّق بفعل ضربات سكين الوغد!... وما هي إلا ثوان حتى استولى اللعين على كامل محتوياته ودسّها في جيب سرواله. وبعد أن هدد يوسف من جديد، هامساً في أذنه: «إن سمعتك تصرخ أو تستغيث فلن أكتفي بذبحك؛ والله والله سأذبح أيضاً جميع أفراد أسرتك»، وثب واقفاً على قدميه وابتعد مسرعاً.

احتار يوسف ماذا يفعل؛ أيمتثل لأمر الوغد فيفرّط بأموال ومصاغ أسرته؟ أم يجازف بإطلاق صرخة توقظ النيام فيعرّض نفسه وذويه للخطر؟ غير أن حيرته لم تدم طويلاً، إذ حُسِم الأمر بمنأى عن تدخله. فقد ضج الحقل فجأة بأصداء صهيل الدواب ووقع حوافرها على التراب. «ما الذي يجري؟»، صاح العم روفائيل الذي أيقظته الضوضاء من نومه؛ فردّ عليه صوت خشن: «لا يجري شيء على الإطلاق؛ كل ما في الأمر أننا راحلون». وتبعت هذا التوضيح موجة من القهقهات تلاها لغط قوي ثم هدوء مباغت. هرع يوسف إلى عمّه وقبل أن يفتح فاه ليروي له ما حصل معه كان بهجت، المهرول في اتجاههما، يصرخ مذعوراً: «لقد هرب أولاد الـ... أخذوا الدواب وسرقوا المؤن وفرّوا». فضرب روفائيل يداً على يد وهو يردّد: «ما كان ينقصنا إلا هذه المصيبة!».

-19-

كانت مصيبة فعلية، بل كارثة حقيقية. فالسير على الأقدام على دروب وعرة فاق قدرة النساء والطفلتين على التحمّل؛ والتقدم على غير هدى، مِن دون دليل يُرشد إلى الطريق الصحيح، أوقع الرجال في حيرة وبلبلة، بل تسبب في نشوب أكثر من مشّادة كلامية تفاقمت حدتها بفعل القلق والتعب والخوف، فهذا يرى من الأنسب أن تعود القافلة أدراجها حتى تبلغ بلدة القولية، فتتزود من جديد بالمؤن وتستأجر دوابّ مع ساستها، وذاك يصرّ على المضي في اتجاه رأس العين وبلوغها بأسرع ما يمكن. ولكن كيف السبيل إليها؟ هذا يؤكد أنه لا مفر من المرور بتلّ أرمن، وذاك يستحسن تجنّب المرور بالقرى والبلدات تفادياً لدوريات الميليشيات. فالحرّاس، الذين كانوا كُلِّفوا بمرافقتهم، كانوا تلقوا توجيهات من متصرّف ماردين بتأمين حمايتهم والحؤول دون أن يتعرّض الشتوات لهم. وكان المتصرّف قد أعطى هذه الإيعازات بناء على تدخل الشيخ مصطفى حمدان، صديق الأسرة الوفي. كانوا يسافرون بأمان نسبي إذاً، ولكن تغيرت أوضاعهم مع فرار مرافقيهم المسلّحين. «إن دمائي تغلي في عروقي غضباً عندما أفكر بهؤلاء السفلة، صاح بهجت؛ ففور عودتهم إلى ماردين سيسارعون، دون أدنى ريب، إلى دار الشيخ مصطفى حمدان ليطمئنوه إلى وصول أسرة مسعود بسلام إلى رأس العين!... «لم نفارقهم إلا بعد أن صعد سائر أفرادها إلى القطار»، سوف يقولون!... وسوف يصدّقهم الشيخ الجليل؛ فكيف تنتابه الشكوك بصدد هؤلاء الأوغاد وقد أوصاهم بنا المتصرف نفسه؟». «قد يسدي إليهم الشيخ حمدان مكافأة، قال حنّا؛ وقد يضيف بضع مجيديات من جيبه إلى المجيديات التي سرقوها من يوسف!». واحمرّ وجه يوسف خجلاً وغيظاً لدى ذكر عملية السلب التي ذهب ضحيتها؛

ذلك أنه لم يكفّ عن معاتبة نفسه على تخاذله أمام أول خطر أحدق به... فقد كان سُلِّم أموال الأسرة بصفته ربّها، المسؤول عنها، أي بصفته رجلاً بكل معنى الكلمة. غير أنه لم يتصرّف كالرجال، لم يدلل عن شجاعة ونخوة. خارت قواه حالما أحسّ بنصل السكين على عنقه، وانصاع لإرادة المعتدي وكأنه طفل لا حول له ولا قوة. هل شعرت أديبة باضطرابه وحرجه؟ فقد سارعت تقول، خارجة عن صمتها المعتاد: «نحن نفدي يوسف بأموال الأرض قاطبة!... إن المجيديات تعوَّض، أما الأرواح فلا». كان في عبارتها الأخيرة إشارة واضحة إلى ممدوح وعائلته، لذلك خلّفت وقعاً حزيناً، أليماً. تنهد العم روفائيل، وكذلك فعل شقيقه رزق الله بينما اغرورقت بالدمع عينا بهية التي كانت تتضرع للرب، صبحاً ومساءً، ليحمي بقية أفراد أسرتها وليمنحها الصبر على فقدان بكر أولادها وابنه الوحيد. رأت روزين أن تغيّر الأجواء فقالت بنبرة تعمّدتها مرحة: «الجانب الإيجابي الوحيد في المصيبة الجديدة التي حلّت بنا هو انشراح صدر العم كريم!... أجل؛ فسوف ينام مطمئن البال علينا بعد أن يكون حراسنا أكدوا له أننا غادرنا رأس العين متوجهين إلى حلب».

- غادرناها في القطار، محمّلين بالمتاع والأطايب، أضاف بهجت هازئاً.
- لعنة الله على هؤلاء الأنذال، صاحت ملكة؛ لقد أنفقت نهاراً بأكمله في تحضير الكليجة! صنعت منها كمية كانت ستكفينا حتى بلوغنا حلب...
- فقدان الكليجة يهون بالمقارنة مع ضياع القليّة، قالت فريدة؛ فقد وضعتُ منها في الجرّة ثلاثة أرطال على الأقل! كان في نيتي أن أقدّم بعضاً منها إلى أهل بهية كي يذوقوا لحم ماردين اللذيذ...
- هل أخذوا أيضاً التمر والجوز والزبيب والتين المجفف؟ سألت جوليا... أبلى؟... ولكن ماذا سنأكل؟ سوف نموت من الجوع قبل أن نصعد إلى القطار.

- أمّا نحن فسوف نأكل قشور البطيخ التي يرميها الناس، أعلنت لطيفة بلهجة أسيانة؛ فقد سلبونا أموالنا وما عدنا نملك ولو متليكة واحدة!

ضحك العم روفائيل وربّت على رأس الطفلة مطمئناً. دعا بعد ذلك الجميع إلى استئناف السير، واعداً بوقفة استراحة جديدة عند الأكواخ التي كانت تلوح عند الأفق البعيد. «سوف نلقى عند الفلاحين ما نقتات به، قال، وسوف نتزود من عندهم بما يكفينا حتى نبلغ رأس العين».

- لكن متى سنبلغها، سألت روزين؛ أهذا المساء؟ أم غداً؟ أم بعد أسبوع؟

- بعد يوم على الأرجح، أكد رزق الله؛ شرط أن نسرع في خطانا لا أن نسير كالسلاحف.

- أنا شخصياً ما عدت أقوى على وضع قدم أمام الأخرى، قالت فريدة.

- وهل تريدين أن أحملك؟ رد رزق الله.

كان رزق الله نحيلاً وقصيراً بقدر ما كانت فريدة بدينة وطويلة. لذلك أثار تعليق الزوج موجة من الضحك شاركت فيها بهية بالرغم منها.

استأنفت القافلة سيرها، حنا وعزيز وبهجت ويوسف في المقدمة، والنساء والفتيات من ورائهم، ورزق الله وروفائيل في المؤخرة. لحسن الحظ كانت غيوم بيضاء قد افترشت السماء، ملطِّفة الأجواء نسبياً، حاجبة شمس تموز الحارقة التي تغدو أشعتها كاوية مع انتصاف النهار. كانت النساء تجرّ أقدامهن جراً وقد أرهقتهن المسافة الطويلة التي قطعنها منذ الصباح الباكر. فمع بزوغ الفجر كان الجميع قد تحرّك، للاستفادة من برودة الجو أولاً، ولبلوغ مكان آمن قبل هبوط الليل ثانياً. هذا إذا ما توفر هذا المكان!... الجوع الذي حرّك عصارات المِعدات شحذ أيضاً الأخيلة والألسن.

- ما رأيكم لو حَضَر أمامنا الآن جاط من الكيبة الساخنة، سألت فريدة؛ لو حضر فعلاً لالتهمته في لمح بصر.

- ولمَ تتمنين جاطاً، عقّب بهجت؛ اطلبي قِدراً كي نأكل جميعاً.

– لتكن الكيبة بالبرغل، قال عزيز.
– بل بالأرز، عارض حنّا.
– والله لآتي على محتوى القدر بكامله حتى ولو حُشيت الكيبة بالزفت، قالت روزين.
– نفسي أنا بِطَبَق من الكبّة هميس، قال يوسف.
– «من هون لبدليس لخاطر الكبة هميس»، علق العم روفائيل مستشهداً بمثل شعبي رائج.
– وأين تقع بدليس هذه، سألت جوليا.
– شمال غرب ماردين، أجاب يوسف موضحاً؛ غير بعيد عن بحيرة فان.
– يوسف شاطر في التاريخ وفي الجغرافيا، قالت لطيفة مفاخرة؛ وهو لا يكفّ عن القراءة وعن التعلّم من الكتب.
– سوف يخلف جدّه يونان؛ سوف يتبوأ أرفع المناصب إن شاء الله، زادت أديبة.
– شرط أن نصل إلى حلب سالمين، قال عزيز؛ شرط ألا يقتلنا الجوع قبل أن تطالنا السكاكين!
– كفاك هذراً، صاحت أمه مستنكرة؛ أنا أكره التشاؤم، فهو يجلب المصائب. لن نموت لا جوعاً ولا قتلاً.
– ولكننا لم نأكل شيئاً بعد تفاح الصباح، ردّ عزيز؛ إن التفاحات الثلاث التي التهمتها عند الفجر لم تشغل زاوية في معدتي، وقد ودَّعَتْها منذ زمن في مطلق الأحوال...
– افترض أننا في شهر صوم، أجابت أمه بحدّة، أي رجل هش أنت! تخور قواك عند أول محنة؟!
بيد أن ملكة سرعان ما أضافت، وبنبرة مرحة هذه المرة:

- لعنة الله على الجوع يا عزيز؛ أعدك بوليمة حين نصل إلى حلب. أعدك بمائدة عامرة بالكتل والبلاّزيز واليبرق والملظوم[1]...
- وبالملبن والزبيب والجوز والعسل، أضافت جوليا.
- في انتظار هذه الوليمة، قالت روزين؛ فلنصلِّ كي تهدينا الملائكة إلى مُزارِع أو فلاح يبيعنا بعض التفاح...
- وألا يبخل علينا بالكمية كما فعل الذي التقيناه فجراً، زاد بهجت.
- ألن تقلبوا صفحة الطعام، صاح حنا محتجاً؛ تكلموا في موضوع ينسينا جوعنا!
- وعمّا تريدنا أن نتكلم، عارضه عزيز بحدة؛ عن آخر مجزرة حصلت؟... أم عن الأخطار التي تتهددنا في كل لحظة؟
- ولماذا لا نتكلم عن ماردين، قالت لطيفة؛ لماذا لا يحدثنا يوسف عنها وقد قرأ كتباً ضخمة عن مدينتنا؟
- والله فكرة! علّق العم روفائيل؛ ولاسيما أن يوسف محدِّث بارع. فقد يشغلنا كلامه عن جوعنا وقلقنا.

شكر يوسف شقيقته الصغرى ضمناً. فاقتراحها ردّ إليه بعضاً من اعتباره؛ أعاد إليه قدراً من خيلائه بعد أن اضطرته حادثة الاعتداء إلى طأطأة رأسه.

- عما تريدونني أن أتكلم، قال، وموضوع ماردين بحر بلا ضفاف؟ فهل تعلمون أنه قد ورد ذكر قلعتها الشامخة في الألف الثالث قبل الميلاد، في عهد السومريين على وجه التحديد. فثمة من قال عنها، في العام ٢٥٨٠ قبل الميلاد، إنها «عش النسور، وسيدة القلاع، ومركز الحصار والدفاع». فهي تنتصب، فوق تلّتها العالية، حصناً منيعاً في وجه

١- أطباق اشتهر بها المطبخ المارديني. الكتل نوع من الكبة التي يدخل السميد في صنعها؛ والبلازيز يعتمد على اللحم والقرع الشتوي؛ واليبرق هو ورق العنب المحشو باللحم والأرز؛ أما الملظوم فعماده اللحم والباذنجان والبندورة.

الفاتحين والغزاة. لم يفلح تيمورلنك في إسقاط قلعتها مع أنه حاصرها على مدى سبعة أعوام؛ أقام حصاره عام ١٣٩٣، ورفعه، مضطراً، في العام ١٤٠٠. بيد أنه لم ينسحب من ماردين إلا بعد أن دمّر أسوارها انتقاماً وعاث فساداً في جوامعها وكنائسها ومعالمها.

وكحّ يوسف قبل أن يضيف:

- وقد عرّج تيمورلنك بعد ذلك على بغداد فاحتلّها وزرع فيها الدمار والخراب، ثم زحف مع جحافله إلى دمشق في العام نفسه، أي في العام ١٤٠١، وفرض عليها المصير عينه... بغداد ودمشق سقطتا في حين بقيت قلعة ماردين صامدة!

أطلق بهجت صفرة إعجاب شجّعت يوسف على أن يتابع قائلاً:

- حتى صلاح الدين الأيوبي، فاتح القدس وقاهر جيوش الصليبيين القادمة من أوروبا، عجز بدوره عن احتلال قلعتنا! قلعتنا التي قال عنها مؤرخ شهير يدعى القزويني: «ليس على وجه الأرض قلعة أحسن منها ولا أحكم ولا أعظم»...

- هل السريان هم الذين بنوا القلعة، سألت لطيفة بفضول.

ضحك يوسف قبل أن يجيب:

- طبعاً لا!... لقد سبقتهم القلعة إلى ماردين بآلاف السنين.

- متى قَدِم السريان إليها؟ سأل عزيز باهتمام.

- السريان هم الآراميون الذين اعتنقوا الدين المسيحي، أجاب يوسف موضحاً. وما نعرفه عن الآراميين أنهم سكنوا أراضي ما بين النهرين في الألف الأول قبل الميلاد. وقد حصلت حملة التنصير في القرن الثاني الميلادي. المسيحيون من بين الآراميين غدوا يُعرفون باسم «سوريويو»؛ واستقرارهم في منطقتنا يعود إلى ذلك التاريخ على الأرجح.

وانبرت لطيفة تقول:

- لقد تعلمنا في المدرسة أن المسيح كان يتكلم بالآرامية. فهل كان سريانياً؟

- ربما، عقّبت أديبة.

- بل بكل تأكيد، زادت روزين.

- ما هذا الكلام الفارغ، صاح يوسف محتجاً؛ لقد ذكرت قبل لحظة أن «السوريويو»، أي السريان، يعودون إلى القرن الثاني بعد الميلاد. فكيف يكون السيد المسيح سريانياً؟

- سوريويو، سرياني، آرامي، كله واحد، قالت ملكة: المهم ماذا سنأكل ومتى؟

- والأهم، أضافت فريدة، متى سنستريح؟ فقد دميت أقدامنا وانقصفت ظهورنا!

- ولماذا تتذمرنّ باستمرار أنتن النساء، زجرها رزق الله زوجها؛ فهل التعب والجوع من نصيبكن فقط؟

- لا، ردّت فريدة؛ غير أننا لا نملك قدرة الرجال على التحمّل والمقاومة، ولا نشاط الأطفال وحيويتهم!...

وأضافت بعد هنيهة:

- وفيما يتعلق بي شخصياً لا تنسَ أني أوزن منك؛ إني أحمل عشرة أرطال على الأقل زيادة عنك!

ضحك رزق الله بالرغم منه ونادى على زوجته كيما تتكئ عليه. وتدخّل عزيز ليقول:

- إن حديث يوسف المشوّق عن ماردين خير وسيلة لشغلنا عن الجوع والتعب؛ فهيا يا ابن العم، اسمعنا المزيد مما عندك.

- سوف أكتفي، مضطراً، بإعطاء بعض المعلومات، أجاب يوسف متباهياً؛ لأننا قد نبلغ حلب قبل أن نعطي تاريخ ماردين كامل حقه.

وكحّ الشاب قبل أن يتابع، بلهجة أستاذ مدرسة:

- كانت ماردين عاصمة الإمارة الأرتقية التي قامت في أواخر القرن الحادي عشر واستمرت حتى مطلع القرن السادس عشر. وقد عَرفت

ماردين عهداً طويلاً من الرخاء والازدهار في ظل السلالة الأرتقية، السلجوقية الأصل، والتي عُرف عن أمرائها حبهم للعلم والفن والشعر ونزعتهم إلى استضافة مشاهير عصرهم وإكرامهم والمنّ عليهم بالأعطيات. ففي عهد الأراتقة أقام الشاعر صفي الدين الحلّي في ماردين لفترة طويلة من الزمن، ونظم قصائد رائعة في مديح الأمير منصور الأرتقي. وقد شَيّد هؤلاء الأمراء قصوراً عظيمة داخل القلعة، كما بنوا مدارس، ومساجد، وشقوا طرقات، وحفروا آباراً... وفي ظل حكم الأراتقة عاد إلى ماردين عدد كبير من الأسر السريانية، التي كانت قد هاجرت إلى بلاد العجم في ظروف عصيبة. وقد ارتأت تلك الأسر، التي برعت في مهن مختلفة، كالحياكة والبناء والدباغة وصناعة السيوف، أن تحافظ على أسمائها الأعجمية. أسماء ما فتئت تثير تساؤلات البعض منا لأنها غير عربية. أسماء نعرفها جميعاً لأن بين من يحملها معارف لنا وأصدقاء: أصفهان، شهرستان، ترزيخان، تومجان، قره زيوان... وقد ازدهرت حركة العمران في عهد الأمراء الأراتقة وتدرّجت الأبنية الحجرية الجميلة على سفح التلة التي تنتصب القلعة على قمّتها. إن الحجر الأبيض الذي تبنى منه بيوت ماردين صلب، صالح للنقش في الوقت عينه؛ لذلك تتميز دورنا بواجهاتها المزخرفة التي يرتاح لها النظر وينشرح لها الصدر.

- وهل دير الزعفران قد شُيّد، هو الآخر، في عهد الأراتقة؟ قاطعه عزيز مستفسراً.
- إنه أقدم بكثير، أجاب يوسف؛ فهو يعود إلى أواخر القرن الرابع الميلادي ويُعتبر، بحق، من أبرز معالم عهد المسيحية الأولى. عدد غرفه بعدد أيام السنة، وهذا ما يعطي فكرة عن ضخامة حجمه. أما المخطوطات والكتب الثمينة التي تحتوي عليها مكتبته فلا تُقدّر بثمن.

ومن شاء أن يقدّم عرضاً عن الدَّور الثقافي والروحي الذي اضطلع به هذا الدير، وعن المشاهير الذين تخرّجوا منه أو أقاموا فيه لفترة من الزمن، لاحتاج إلى وضع مؤلَّف بأكمله.

- ولماذا يطلقون عليه اسم الزعفران، سألت جوليا؛ فهل هو طبَقٌ من الأرز؟ أم من الدجاج؟

وأطبقت الطفلة يدها على فمها لتخفي ضحكتها.

- يطلقون عليه هذا الاسم، أوضح يوسف؛ لأن البنائين مزجوا نبات الزعفران بالجص عندما شيّدوه.

كانت لطيفة معنية مباشرة بهذا الدير؛ فوديع، شقيق صديقتها فهيمة خيّاط، قد التحق به ليصبح راهباً. والحال أنها كانت سترتضيه خطيباً لها لو لم يلبِّ دعوة الرب! ورغبة في إطالة حديث شقيقها عن الدير، سألته بدورها:

- لا أذكر أني شاهدت هذا الدير الذي كثيراً ما سمعت عنه. تُرى، هل مررنا بجواره ونحن نغادر ماردين؟

- لا، فهو يقع غرب ماردين لا جنوبها. أنت تعرفين أين يقع شارع البلدة الرئيسي، أعني «برنجي جعدة»؟ حسناً! أن هذا الشارع يربط بين بابين، باب المشكية شرقاً، وباب الصور غرباً. ومن باب الصور تنطلق الطريق المؤدية إلى الدير...

- وإلى البساتين الزاخرة بالفاكهة على أنواعها، زاد بهجت؛ آه على تلك البساتين! على أشجار اللوز، والكرز، والتوت، والأجاص! آه على عيون الماء الصافية التي تروي غليل العطشان. ماء لا أطيب ولا أعذب.

- وآه، ألف آه على الولائم التي كان الشيخ حمدان يقيمها في تلك البساتين، قال روفائيل وهو يتنهد؛ خواريف محشوّة باللحم والأرز والفستق والصنوبر؛ دجاج محمّر؛ قليّة بالبيض؛ بُرَك على أنواعها!... لازلت أذكر حفل الغداء الذي أقامه في بستانه بمناسبة زواج ممدوح...

أدرك العم هفوته فتوقف عن الكلام. لكن إتيانه بذكر ممدوح أدخل الغم من جديد إلى النفوس؛ قضى على المساعي المبذولة للتخفيف من حدة القلق والخوف، للتغلب على التعب والإحساس بالجوع. وإذا بجوقة من الأصوات المتذمِّرة ترتفع على حين غرة: هذا يستفسر عن الاستراحة الموعودة، وذاك يندد بالاستسلام للنوم وقوفاً؛ واحد يهدد بأكل الأعشاب حتى وإن كانت سامة، لأنه سوف يموت من الجوع في مطلق الأحوال، وآخر ينصح بالعودة إلى ماردين «لأن الموت تحت سقف أشرف من الهيمان على الدروب».

ولم تتوقف موجة الشكاوى والتذمّر إلا عندما صاح العم روفائيل محتدّاً: «لمَ هذا الندب؟... نحن لم نخرج في نزهة، وإنما هربنا من مصير أسود. أنتم جياع؟... لا بأس؛ سوف تأكلون، بعد ساعة، أو ساعتين أو عشر! أنتم متعبون؟... سوف ترتاحون، إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد!... فكّروا بالذين يساقون كالبهائم! فكّروا بالذين لا يأملون في كسرة خبز أو جرعة ماء... فكّروا...».

كان العم سيضيف «فكّروا بالذين يذبحون كالنعاج»، غير أنه لم يشأ أن يُعمِل السكين من جديد في الجرح الذي أحدثه مصرع ممدوح وأسرته. لذلك اكتفى بأن قال: «الجؤوا إلى الصلاة، فهي وسيلتنا للتغلب على الصعاب».

بصوت خفيض علّقت فريدة على توبيخ روفائيل قائلة: «صلّينا وتضرّعنا وبقينا نعاني من الجوع ومن التعب...».

-20-

حالف الحظ الأسرة بعد طول عناء؛ فقد بلغت قرية وضيعة قبيل غروب الشمس، أو بالأحرى مجموعة من الأكواخ تحلّقت حول مزرعة انتصبت فيها دار حجرية يجاورها عنبر كبير. وبعد مداولات مثمرة مع صاحب المزرعة، ولقاء عدد من المجيديات، حصلت على إذن بالمبيت في العنبر، وعلى وعد بكمية من الخبز والجبن والتين المجفف. «أما الماء، قال مضيفها، فيمكن استقاؤها من البئر التي تتوسط الباحة».

تولى شاب إحضار الزاد في صينية نحاسية رفعها فوق رأسه؛ سئل عن اسمه فأجاب بأنه يدعى سليمان وبأنه من أبناء نصيبين. «لقد التجأت إلى مزرعة خالي، قال، لأن الوضع في البلد ما عاد يُحتَمل». سارع بهجت يستفسر عن أسباب ودواعي استيائه فأجاب، ببساطة وعفوية: «يصعب عليّ أن أرى بهيمة تعذَّب وتقتل، فكم بالأحرى بني آدم! أنا مسلم، هذا صحيح؛ وضحايا الظلم العثماني هم من المسيحيين. ولكن، أليسوا أبناء الله على غرارنا؟ ثم، ألم نعش معاً في أمان على مدى قرون؟... ما عاد يمضي يوم في نصيبين من دون أن تمرّ بها قافلة من المساقين؛ رؤية هؤلاء المساكين تجعل الدمع يطفر من العين؛ عظامهم تبرز تحت جلدهم، جروحهم تنّز، وأقدامهم تدمي...». وتنهّد الشاب قبل أن يضيف: «رأيت بأم عيني بطون نساء حوامل تُبقَر، وأعضاء شباب وشيوخ تُبتَر، وأطفالاً رضّعاً يُرمون في الهواء ثم يُتلقفون على رؤوس الحراب؛ رأيت فتيات يغتصبن، وحسناوات يُبَعن مع الرقيق، وأُسراً برمتها تُذبح وينكّل بأفرادها على مرأى من ذويهم!... مَن كان يتوقع أن مثل هذه الجرائم يمكن أن تُرتكب؟ من كان يتخيل أن نصيبين، البلدة الآمنة والوديعة، ستتحول إلى ساحة للتعذيب والتنكيل والقتل؟ فعن طريقها غدت

تمر قوافل المساقين إلى الموصل، قوافل قادمة من ديار بكر، وطور عابدين، وبدليس، وسعرت، وماردين وسواها من البلدان والمدن... يعني مصائب العالم غدت تتدفّق علينا... بصراحة، ما عدت أحتمل. هجرت البلد والبيت والأسرة وقَدِمت إلى هنا... في المزرعة أهتم بالدواجن، وبالغنم والبقر أيضاً. أمضي ساعات نهاري في الزرائب والأقنان مع أني أجيد القراءة والكتابة. والله والله، أقولها بصدق: أصبحت أفضِّل عِشرة الحيوانات على الآدميين في هذا الزمن الأسود».

«إنه زمن الشيطان الرجيم»، عقّب العم روفائيل الذي تابع يقول، وهو يربت على كتف الشاب: «يبقى باب الأمل مفتوحاً ما دام هنالك أحرار من أمثالك... مباركة هي البطن التي حملتك!».

لم يقترب أحد من صينية الطعام بعد انصراف الشاب. حتى لطيفة وجوليا، المتلهفتان لكسرة خبز وقطعة من الجبن، مكثتا جامدتين في مكانهما، لا تجرؤان على الإتيان بحركة. فقد طغت أجواء مأساوية على جلسة الأسرة وتضاربت مشاعر الخوف والحزن والغضب. هذا يتنهد، وذاك يضرب كفاً بكف، وآخر يردد «لا حول ولا قوة إلا بالله»، إلى أن رفعت ملكة صوتها قائلة: «وما الفائدة من النحيب والندب؟... نحن جياع وأمامنا طعام. فلنأكل ما دام الزاد متوفراً، وما دمنا على قيد الحياة!...». ثم تابعت وهي تقسم رغيفاً من الخبز وتوزّعه على جوليا ولطيفة: «لقد أُعطينا اليوم خبزاً وجبناً... لكن من يدري إن كنا سنحظى بشيء غداً؛ فقد نضطر إلى أكل الحجارة». فعقبت فريدة، بسذاجتها المعهودة: «وهل لكِ أسنان لتطحني الحجارة؟... سوف تموتين من الجوع!». راحت ملكة تضحك وهي تربت على كتف فريدة التي اغتبطت إذ رأت الأسارير تنفرج من حولها، والتي تساءلت، في الوقت عينه، لماذا استُقبِلت ملاحظتها بالابتسام والضحك.

التُهم الخبز والجبن والتين المجفف التهاماً في ثوان معدودة؛ وتولى عزيز تعبئة دلو من الماء من البئر ومرّره على الكبار والصغار كي يشربوا. «غدونا

نتصرّف كالعوام، نشرب من الدلو»، قالت روزين وهي تجفّف فمها بمنديل أخرجته من عبّها. «وهل كنت تتوقعين أن تشربي في كأس من البلّور في هذا العنبر؟»، عقّب بهجت. «تشرب في كأس من بلور وتنام على وسادة من ريش النعام»، زاد شقيقها الأصغر، عزيز. «دعوها وشأنها، قال حنا محتجاً، أفلا يحق لها أن تتذمر من شروط الحياة القاسية التي فُرضت علينا؟». وتدخّل يوسف ليوضِح: «نحن لا نتقزز مثل النساء، أولاً؛ وقدرتنا على التحمّل أكبر، ثانياً». «أود أن أرى واحداً من بينكم يتحمّل آلام الوضع»، اعترضت ملكة قبل أن تضيف: «أما فيما يتعلق بالتقزز فإن المرأة تنسى حتى معنى هذه الكلمة من جراء تعاطيها المزمن مع الأواني القذرة، والثياب المتّسخة، ومؤخرات الصغار! فغسل الطناجر، والملابس الداخلية، وغيارات الأطفال الرضّع وما أشبه، يلغي، مع الأيام، حتى الشعور بالتقزز!».

انتصب يوسف في جلسته يريد أن يشرح ويعلل، غير أن العم روفائيل سبقه إلى القول: «وهل هذا وقت السجال في مواضيع كهذه؟ لنشكر الله ونحمده لأننا أكلنا وشربنا، ولأننا سوف نتمدد بعد قليل ونغطّ في النوم، فقد غلب عليّ النعاس شخصياً، حتى إني أكاد أنام وأنا قاعد». «نم أنت، أجاب شقيقه رزق الله، ودعنا نحن نتكلم». استدار رزق الله بعد ذلك نحو يوسف وقال له: «إن هذا الشاب، يا ابن أخي، أقصد ابن الحلال الذي جاءنا بالطعام تواً، لا يشكل استثناء بين أهل نصيبين. إن أصحاب النخوة كثيرون في صفوفهم. فإبان مجازر عام ١٨٩٥ هاجمت مجموعة من الأوغاد حيّ النصارى في نصيبين وراحت تنهب وتحرق وتعتدي على المدنيين العزّل، موقعة خمس ضحايا بين تجار البلدة. وكان هؤلاء الأشرار سيقتلون الأبرياء بالعشرات، أسوة بما فعلوه في قرى مجاورة، لو لم يهّب لمواجهتهم شيخ قبيلة طي. تصدى لهم بقوة وهزمهم وأجبرهم على الفرار... نِعْم الرجال كان، على غرار سائر أفراد هذه القبيلة».

- أتعلم يا عم، أجاب يوسف، أن قبيلة طي كانت سريانية قبل أن تعتنق الإسلام؟

- أنت تميل إلى سَرْيَنة العالم برمته، مازحه بهجت.

- بل إلى اعتبار كل أبيّ على سطح الأرض متحدّراً من أصل سرياني، زاد حنّا.

- ليس من عادتي إطلاق أحكام بلا أساس، ردّ يوسف ممتعضاً؛ وأما فيما يتعلق بقبيلة طي فتصريحات مشايخها هي التي كشفت عن أصلها السرياني.

- إن قبيلة طي لا تحتكر النخوة والمروءة، قال العم رزق الله؛ ولئن خصّنا الشيخ مصطفى حمدان برعايته وعطفه فلأنه ينتمي إلى قبيلة أبية كريمة أخرى هي قبيلة المشكوية. فإبان أحداث ١٨٩٥ الدموية، التي طالت ماردين أيضاً، كانت هذه القبيلة قد تعهدت بالحفاظ على الأمن في المنطقة الممتدة من باب المشكية إلى المنارة الكبيرة، منطقة جلّ سكانها من النصارى... لا زلت أذكر تماماً تلك الأيام العصيبة... ففي أواخر ذلك العام الأسود بلغتنا أنباء عن مجازر ترتكب بحق النصارى في ديار بكر وفي عدد من البلدات والقرى التي تجاورها. وقد دبّ الذعر بين سكان ماردين عندما حضر إليها مَن أفاد بأن عصابات مسلّحة قد هاجمت قريتي القولية وتل أرمن، مضرمة النار في بيوتهما، معتدية على سكانهما، وبأن هذه العصابات، التي تعيش على القتل والسبي والنهب، سوف تزحف على ماردين في القريب العاجل. وكما يحصل عادة في مثل هذه الأوضاع هرول الناس في اتجاه الكنائس والأديرة، سعياً من جهة وراء أمكنة يفترض فيها أن تكون آمنة، ورغبة في التجمّع من جهة أخرى. وقد التجأت عشرات الأسر إلى دير الرهبان الكبوشيين، في حين انضمت أسرتنا إلى الأفواج الزاحفة إلى كنيسة السريان؛ أي عائلات ديلانجي، وقاووق، وجبور،

ومعمارباشي، وعبد الأحد، ولحدو، وسواها... ضاق المكان بنا، لكن الأمطار الهاطلة بشدة حالت دون توزعنا في باحة الكنيسة الفسيحة. وحين سمعنا صوت ناقوس يدق من بعيد، ربما ناقوس دير الزعفران، أدركنا أن عصابات القتلة قد دنت من ماردين. وقد جاءتها بالفعل من ناحية عين سنجة حيث راحت تفتك بالأهالي العزّل. وكان الخراب والدمار سيعمّان ماردين لو لم ينبرِ زعيما المشكوية، أحمد آغا وسعيد آغا، وكذلك زعيم المندلكانية، فرج بك، يدافعون عن النصارى. فقد أمروا رجالهم بالتصدي للمعتدين، فاشتبكوا معهم وأجبروهم على الفرار. وفي أعقاب تلك الحوادث تعهد المشكاوية بالحفاظ على الأمن في ماردين من أقصى غربها ولغاية المنارة الكبرى. وقد وفوا بعهدهم رغم التطميع ورغم الضغوط.

توقف العم رزق الله عن الكلام وقد شعر بأنه أطال في سرده وشرحه، وربما أثقل على مستمعيه. لكن يوسف ناشده أن يمضي في استحضار أحداث الماضي، مؤكداً على أهمية الاطلاع على دقائق وقائع تاريخية قد تطويها يد النسيان. لذلك عاد العم يروي:

- في أواخر كانون الأول من العام عينه، أعني عام المجازر، عام ١٨٩٥ المشؤوم، جرت محاولة أخرى لإشعال نار الفتنة في ماردين. فقد ارتأت بعض الزعامات المحلية أن تستغل حالة الفلتان الأمني التي عمّت المنطقة لتحقق مكاسب مادية على حساب النصارى. وقد طلبت تلك الزعامات الاجتماع بشيخي المشكوية، أحمد آغا وسعيد آغا، والد صديقنا الشيخ حمدان، وراحت تحرّضهما ضد المسيحيين. ومن جملة ما جاء على لسان أولئك المتعطّشين إلى سفك الدماء البريئة: «إن المسلمين في ديار بكر يقولون عن مسلمي ماردين إنهم نصارى لا مسلمون، وهذا عار علينا؛ عار لن نغسله ما لم نفعل بالنصارى ما فُعل بهم في ديار بكر وسواها». وقد جاء جواب أحمد آغا واضحاً، صريحاً:

«لقد تعهدنا بالحفاظ على أرواح النصارى وعلى بيوتهم وأرزاقهم من باب المشكية إلى المنارة ولن نخلف وعدنا. وإذا ما رأينا أحداً يتعدّى على مسيحي داخل هذه المنطقة، قطعنا رأسه بلا أخذ ولا رد». وعندما انفضّت الجلسة حرص الشقيقان أحمد آغا وسعيد آغا على التعريج على دارنا ليُعلِما والدنا بما حصل. كان الوالد، رحمه الله، بصحبة صديقه المؤلف والعلاّمة إسكندر آدم. وقد شكرا الشقيقين على موقفهما المشرّف. وبعد أن غادرا دارنا توجه الأخَوان إلى كنيسة الأرمن، حيث اجتمعا بأعضاء مجلس الملّة الأرمنية ونقلا إليهم خلاصة ما دار في تلك الجلسة الحاسمة.

وأطلق العم رزق الله تنهدة عميقة قبل أن يضيف:

- لقد أراد أولئك السفلة أن يفعلوا في ماردين ما فعله سواهم في ديار بكر وغيرها من المدن والبلدات. ألديك فكرة يا يوسف عن فداحة الجريمة التي اقترفت في عام ١٨٩٥؟ فبحسب تقرير رفعه نائب القنصل الفرنسي في ديار بكر إلى سفير بلاده في اسطنبول، أُبيد أكثر من خمسة وثلاثين ألف سرياني في ديار بكر والقرى التابعة لها خلال الأسبوع الأول من تشرين الثاني عام ١٨٩٥! هل تتخيل؟ خمسة وثلاثون ألف بني آدم قتلوا لا لسبب إلا لكونهم سرياناً، أي من سكان البلاد أباً عن جد.
- وهل الآتي أفضل، قاطعه بهجت، وهل الأحداث التي نعيشها الآن أقل هولاً؟... في الماضي كان تدخّل بعض الآغوات يكفي لحمايتنا؛ أما اليوم فقرار إبادتنا ما عاد قابلاً لأن يُلجم: فهو صادر عن أعلى المستويات!... ألم ينصحنا الشيخ حمدان بالهجرة؟ أليست نصيحته تسليماً واعترافاً بعجزه عن حمايتنا؟... عام ١٨٩٥ قُدّر عدد الضحايا بعشرات الآلاف؛ وما أخشاه هو أن يرتفع عدد ضحايا المجازر الجديدة إلى مئات الآلاف!

وارتفع صوت ملكة، المتمددة في جوار زوجها، يعاتب ويحتج: «وهل هذا حديث يُسمع قبيل النوم؟ كيف سيغمض لنا جفن وقد أدخلتم الرعب إلى قلوبنا؟». وقبل أن تنهي عبارتها كان زوجها يطلق شخيراً قوياً سارع رزق الله يعقّب عليه قائلاً: «ليس من عادة روفائيل أن يشخر يا ملكة إلا عندما يفكر بجارتنا زهيدة، صاحبة البشرة البيضاء كالحليب والشعر الأسود كالليل؛ إنه يحلم بها حتماً الآن. أيقظيه بلطمة وإلا أمضى الليل بأكمله في صحبتها».

فردّت عليه وهي تضحك: «نم واسمعنا شخيرك أنت الآخر، وغداً قل لنا مع من أمضيت ليلتك».

-21-

«أهو يوم الحشر؟»، «أرأس العين هذه أم برج بابل؟»، «من أين قَدِم كل هؤلاء الناس؟... أين سيبيتون وماذا سيأكلون؟» «وأي قطار سيتّسع لهذه الحشود؟... قد نضطر إلى الانتظار أسابيع، بل أشهر، قبل أن نظفر بمقعد في قطار حلب»، «أفلا نستطيع بلوغها سيراً على الأقدام؟»، «وهل هذا سؤال يطرح؟ فالقطار يحتاج إلى يوم بأكمله ليقطع المسافة التي تفصلنا عن حلب، وهو يسير بسرعة البرق!»، «بسرعة البرق؟ ولكن، كيف سنقوى على التنفس؟... على النظر؟»، «ألن تتوقف قلوبنا عن الخفقان؟»، «كل شيء مدروس ومحسوب. المهم أننا قد بلغنا رأس العين، والأهم أن نوفَّق في ركوب القطار».

كان ذلك هو التعليق الأخير للعم رزق الله، وقد أطلقه بلهجة من يرغب في وضع حد لتساؤلات لا طائل تحتها. والواقع أن المشهد الذي وقعت عليه الأسرة لدى بلوغها رأس العين كان خليقاً بإثارة الحيرة والدهشة. فالمعروف عن هذه القرية الصغيرة، المنتصبة على ضفاف نهر الخابور، والمشيّدة على أنقاض مدينة بيزنطية، أنها لا تضم أكثر من أربعمئة إلى خمسمئة نسمة جلّهم من المزارعين. العم روفائيل، الذي كان قد مرّ بها قبل عامين تقريباً، كان وصفها لبقية أفراد الأسرة بأنها قرية أشباح ليس فيها «طير يطير أو وحش يسير». ولكن ها هي قد تحولت إلى نقطة تجمّع بشري هائل، وترافق تضخّمها السكاني بحركة تجارية دؤوب وبتوسع عمراني ملحوظ. فقد تعّددت فيها الأسواق النشطة، وبني فيها مستوصف وعدّة أفران تعمل بلا توقف، كما انتشرت، من حول بيوتها، صفوف متراصة من الخيام. ومع أن عدد المساقين،

والمهجّرين، والمنفيين المتدفقين عليها كان يقدر بعشرات الآلاف، فقد سادها نظام ونظافة ملحوظان.

لمح بهجت شاباً من معارفه يخرج من أحد الأفران محمَّلاً بكمية وفيرة من الخبز. نادى عليه بأعلى صوته فهرع الشاب، وهو من عائلة عازار، نحو القادمين الجدد. رحّب بهم وعرض اصطحابهم إلى مكتب المأمور المكلّف بتنظيم شؤون الإقامة والمغادرة. «سوف يؤمّن لكم المأوى ليومين أو ثلاثة، ويزوّدكم بكل ما تحتاجون إليه من معلومات بخصوص رحلة القطار»، أوضح قائلاً.

- أكاد لا أصدّق أذنيّ بعد عينيّ، صاح حنّا؛ مأمور خاص لخدمة الوافدين!... منذ أسابيع ونحن لا نسمع إلا عن أعمال السلب والنهب والقتل، فما بال رأس العين تشذّ عن القاعدة؟ هل سقطت سهواً من خريطة الإمبراطورية العثمانية؟

ضحك الشاب الذي كان بهجت قد نادى عليه باسم حبيب وأجاب وهو يدس رغيفين من الخبز الساخن بين يدي الطفلتين جوليا ولطيفة:

- إن الدنيا لا تخلو من أولاد الحلال، يا صديقي؛ وقد أنعم الله على قضاء رأس العين بقائمقام إنساني وخلوق، هو يوسف ضياء بك، وعلى سنجق دير الزور بمتصرف منصف وشهم هو علي سواد بك، وبفضل هذين المسؤولين غدت شروط الحياة مقبولة بالنسبة إلى الآلاف من المبعدين عن أراضيهم ودورهم؛ أعني بالنسبة إلى الخمسين ألف أرمني الذين توافدوا على رأس العين في الأشهر الأخيرة.

- خمسون ألف أرمني، خمسون ألف قلت، قاطعه روفائيل مستغرباً؛ لقد مررت من هنا قبل عامين فألفيت البلدة خالية، ساكنة، لا أثر للحياة فيها. وها هي تغدو، بين عشية وضحاها، في مرتبة ماردين من حيث التعداد السكاني!...

- إلى جانب الأرمن هنالك، أيضاً، العشرات من الأسر السريانية

والكلدانية، أوضح المدعو حبيب؛ بعضها ينتظر أول فرصة سانحة للتوجه إلى حلب أو دير الزور أو الموصل، وبعضها الآخر يزمع إطالة إقامته إلى أجل غير مسمى.

- من هي تلك الأسر، أعني الأسر السريانية؟ سألت فريدة بفضول؛ أهي من ماردين أم من بلدات أخرى؟

- دعينا من هذا الموضوع، قاطعها زوجها؛ لنذهب الآن إلى المأمور لتأمين موضوع مبيتنا، وإلى السوق لابتياع حاجاتنا. بعد ذلك تبحثين عن معارفك بين الوافدين، هذا إذا ما أنجزنا ترتيباتنا قبل هبوط الليل!

بسرعة غير مرتقبة أُنجزت تلك الترتيبات. حصلت الأسرة على ثلاث خيام نظيفة، نُصبت على أطراف المخيّم المترامي الأبعاد. وقبل أن تنتهي النساء من تنظيم شؤون المنامة فيها، كان الرجال يعودون إليهن محمّلين بالمؤن. خبز طازج شهي الرائحة، زيتون أسود، بضعة قوالب من الجبن الأبيض وسلّة من العنب. وقد أثار حنّا موجة من الصيحات الفرحة والمندهشة حين أعلن، وهو يفتح كيساً ورقياً حمله بتؤَدة: «احذروا بماذا جئتكم أنا؟ بالبسطرما!... أجل؛ لقد عثرت عليها عند أرمني عجوز أقام شبه حانوت غير بعيد عن مكتب المأمور. لقد أكد لي الرجل أن البسطرما هي من صنع زوجته التي يشهد لها أهل ويرانشهر ببراعتها في صنعها».

- وهل من أرمنية لا تجيد صنع البسطرما، علّقت فريدة وهي تمدّ يدها نحو الكيس الذي جاء به ابنها.

بهية التي ما عاد يُسمع لها صوت منذ أن غادرت الأسرة ماردين، خرجت عن صمتها لتقول:

- ما الذي يحصل هنا؟... لست أفهم! هل سيق الآلاف من الأرمن إلى رأس العين كي يستقروا فيها ويتفرغوا لصنع البسطرما؟... إن كانت السلطة راغبة في توفير حياة آمنة لهم، فلماذا أخرجتهم من بيوتهم وشردتهم على الطرقات؟

- الله وحده يعلم، أجاب روفائيل، وهو يقسم رغيفاً من الخبز ويحشوه بالبسطرما.

ولكن شخصاً من آل جنانجي هو من تولى الإجابة عن تساؤلات بهية. كان إسكندر جنانجي من وجهاء ماردين المعروفين وكان، مع شريكه بديع قره كلا، من أكبر تجار الحبوب. وما أن أفاده الشاب حبيب عازار بوصول آل مسعود إلى المخيم حتى سارع لزيارتهم. فقد كان يعرف رزق الله وروفائيل تمام المعرفة، وكان نوى أن يعقد على شقيقتهما سلمى، غير أن إلياس كنعان سبقه إلى طلب يدها.

- يا أهلاً، ويا أهلاً، ردّد وهو يدلف إلى خيمة روفائيل حيث كانت الأسرة قد اجتمعت لتناول طعامها.

عانق الشقيقين بحرارة، وربت على أكتاف الأبناء، وصافح السيدات والفتيات. ولما عاد يكرر: «يا أهلا! ويا أهلا!» مازحه روفائيل قائلاً: «أين تؤهل بنا يا إسكندر؟ أفي سراي والدك؟ أم في إيوان دارك؟ أم في حدائق مزرعتك؟».

فأجابه إسكندر جنانجي على الفور: «في مكان أمين يا روفائيل، في مكان أمين، أي في فردوسٍ أرضي في أيام النحس هذه».

- وما قصة هذا الفردوس، استفسره رزق الله؛ لقد حدّثنا حبيب عازار عن قائمقام إنساني ومنصف وعن متصرّف أكثر إنسانية وإنصافاً بعد؛ ولكن من أين جاء المال؟ مَن تولى الإنفاق على هذا المخيم وعلى بقية مشاريع العمران؟ السلطات العثمانية؟ من المستحيل... فحتى لو أبرزت لي فرماناً صادراً عن الباب العالي يأمر بعمران رأس العين وبتحسين شروط حياة الوافدين إليها، لما صدّقتُ عينيّ!

- السلطة، متمثلة بالمتصرف والقائمقام، هي وراء إرادة العمران، أجاب إسكندر جنانجي. أما المال فمن الأرمن، من أثريائهم ومؤسساتهم الخيرية... مال ما كنا سنستفيد منه لولا رأفة هذين المسؤولين،

لولا شهامتهما وإنصافهما. تخيلوا أن طروداً أرسلها أهل المساقين والمهجّرين قد وصلت إلى أيدي أصحابها بفضل سهر المتصرف والقائمقام على مصلحة المساكين والمعذَّبين... سهر دائب ومتواصل. فسكان رأس العين هم في غالبيتهم الساحقة من الشيشان الآتين من جبال القفقاز؛ أما المسيحيون فما كان عددهم ينوف على مئة نسمة حتى اندلاع الحرب. والحال أن الشيشان يكرهون الأرمن؛ فقد عانوا منهم كثيراً، على حد زعمهم، إبان حروبهم مع جيوش قيصر روسيا. لذلك ما أن أخذت قوافل الأرمن تتدفق على رأس العين حتى شرعوا يعتدون عليهم بالضرب والنهب؛ فكأن أرمن ديار بكر، وماردين، وويرانشهر، ومذيات، وسواها من بلدات المنطقة قد قدموا إليها من القفقاز، وكأنهم هم المسؤولون عما عانى منه الشيشان هناك! ولكن القائمقام وضع حداً سريعاً لتجاوزاتهم واعتداءاتهم. أمر بإلقاء القبض على ثلاثة من الشيشان كانوا جرّدوا أسرة أرمنية من أموالها وحاولوا التطاول على نسائها، وأوعز بجَلدهم عند مدخل المخيم، على مرأى من ذويهم ومن أبناء ملّتهم، كي يتعظوا ويكفوا عن تعدياتهم.

- بارك الله فيه؛ بارك الله فيه، ردد روفائيل.

- بارك الله فيه وأكثرَ من أمثاله، زاد رزق الله.

أما بهية فقالت بصوت متهدج:

- يا ليت كان هذا القائمقام المنصف عُيِّن في المنصورية! كان سيحمي ممدوح وأسرته ويكفّ عنهم أيدي الأوغاد.

تنهد إسكندر جنانجي وتوجه بصوت حزين إلى بهية:

- لقد سمعنا بما حصل في المنصورية من فظائع ومآسٍ. رحمة الله على ممدوح؛ نِعم الشباب كان!

وأضاف مستديراً نحو رزق الله وروفائيل:

- نحن الآن في أمان في رأس العين، غير أن هذا الوضع قد لا يدوم. بل

أغلب الظن أنه لن يدوم... فقد أبلغَنا شاب من آل معمارباشي استقر مؤخراً في حلب أن والي المدينة، مصطفى عبد الخالق، ما فتئ يرفع التقارير إلى اسطنبول، متهجماً فيها على متصرف دير الزور، يوسف ضياء بك، ومقترحاً تنحيته عن منصبه.

- ألم يكن مصطفى عبد الخالق هذا والي بدليس من قبل؟ سأل رزق الله.

- أجل، أجاب إسكندر جنانجي؛ وقد نُقل إلى حلب، بحسب ما سمعنا، بهدف تنظيم السّوقيات، وأيضاً، التصفيات!... فهو مِن أنصار حلّ المسألة الأرمنية باللجوء إلى الإبادة الجماعية. وقد استاء من وجود خمسين ألف أرمني على قيد الحياة في رأس العين.

- ولماذا نذهب إلى حلب وقد بُليت بمثل هذا الوالي، سأل بهجت؛ فهل هربنا من الدب لنقع في الجب؟ في ماردين لنا معارف على الأقل، لنا أصدقاء بين مشايخ القبائل يمكننا الالتجاء إليهم في ساعة الشدة. أما في حلب فسوف نكون بلا دعم ولا سند في مواجهة تعسّف الوالي واستبداده.

- لكننا لسنا أرمناً، قال يوسف محتداً؛ وقد أوضح لنا إسكندر أفندي أن والي حلب معني بالمسألة الأرمنية، وبها فقط!... ثم ألم يلحّ علينا سليم كيما نغادر إلى حلب؟ أرسل في طلبنا مع كل قادم منها؛ ولو لم يكن مطمئناً إلى الوضع الأمني فيها لما أصرّ على رحيلنا من ماردين. لست أرى، بصراحة، مبرراً لمخاوفك.

امتعض بهجت من ردة فعل ابن عمه؛ اعتبر أنه قد طُعن في كرامته في حضور واحد من أبرز أعيان ماردين. لذلك أجاب بنبرة متهكمة:

- لا أستغرب ثقتك العمياء بحلب وبأهلها، فأنت حلبي بنسبة خمسين بالمئة! أما أنا، المارديني مئة بالمئة، فيحقّ لي أن تساورني الريبة من

هذه المدينة؛ من حكامها، ووجهائها، وسواد شعبها... فلماذا تريدها أن تختلف عن مديات أو سعرت، عن المنصورية أو قلّس؟

- لأنها حلب وكفى، أجابته بهية بهدوء؛ ففي هذه المدينة عاش النصارى بأمان منذ قرون طويلة، وسوف ينعمون بالأمان عينه لقرون طويلة قادمة! ربما كان الوالي الحالي دموي النزعة؛ ربما بيّت الشر للمسيحيين في رأس العين أو في بدليس أو في سواهما. غير أنه عاجز عن إلحاق أي ضرر بهم داخل حلب... لم يفعل ذلك أحد من قبله، ولن يفعل ذلك أحد من بعده.

- ولماذا؟ سأل بهجت بفضول وبقدر من التحدي.

- لأن أهل حلب لن يسمحوا بذلك. فنحن مسالمون يا بهجت. ولئن بقيت مدينتنا حية، مأهولة، مزدهرة، مع أن عمرها قد ناف على ستة آلاف عام، فلأننا نعرف كيف نصونها ونصون أنفسنا. وما هو أهم من ذلك، كيف نصون بعضنا بعضاً.

كان إسكندر جنانجي ينعم النظر في بهية وهي تتكلم. كان جمالها قد لفت انتباهه منذ أن عقد عليها صديقه الراحل، زكريا مسعود. فقد أُعجب بقامتها المشيقة، وببشرتها البيضاء، وبعينيها الخضراوين. أعجب بشكلها وظل جاهلاً بشخصيتها؛ ذلك أنه لم تتح له فرصة الإصغاء إليها وهي تتكلم. فزيارته إلى دار آل مسعود قد اتسمت، على الدوام، بطابع رسمي، وكان لا يجتمع خلالها إلا برجال الأسرة... وقد فوجئ، والحال، بنباهة بهية، بقوة شخصيتها وبدقة محاكمتها. ورغبة في إرضائها، ولا ريب، تعمّد امتداح حلب التي فاخرت بالانتساب إليها. قال وهو يحدّق النظر فيها:

- إن سعداء الحظ هم الذين سيبلغون حلب!... لقد سبق لي أن زرت هذه المدينة أكثر من مرة، أيام كنا أحراراً في تنقلاتنا؛ وقد ترددت على سوقها القديمة، لأغراض تجارتي، فارتحت كثيراً للأجواء السائدة

فيها، أعني لذلك التآخي بين المسلمين والمسيحيين من تجارها. إنهم لا يكنّون لبعضهم سوى الاحترام والمودة.

وتنهد إسكندر جنانجي قبل أن يضيف، مستديراً هذه المرّة نحو رزق الله وروفائيل:

- أما بلادنا نحن فالسلام عليها! أما أرضنا نحن فقد غدت جدباء! فأي محصول سيعطيه تراب ما عاد يرتوي إلا بدماء الأبرياء؟... فما من كهف، ما من بئر، بل ما من حفرة في بلدنا الحزين إلا وغصّت بالجثث المتفسّخة... الخلاص في حلب، أجل، أقصدوها، وبأسرع ما يمكنكم. أمّا نحن الأرمن فمحكوم علينا أن نبقى في رأس العين. نبقى فيها مرغمين ونتضرع للرب، صبحاً ومساءً، كي يحفظ لنا قائمقامها النزيه ولا يحرمنا منه.

-22-

لولا صفوف الخيام، المتدرجة إلى ما لا نهاية، لخالت لطيفة نفسها في نزهة، في يوم فرح لا تشوبه الهموم ولا تسكنه المخاوف. فقد كانت تلعب بصحبة ابنة عمها جوليا وطفلتين من جيلهما؛ واحدة من ماردين تدعى مريم سيوفي، وأخرى من ديار بكر تدعى عفيفة كبرو. كانت أديبة قد أيقظتها مع بزوغ الفجر ودعتها لمرافقتها إلى ضفة النهر، الخابور كما أسمته، للاغتسال قليلاً وغسل بعض حاجياتهم. «علينا أن نبكّر، قالت، كي نتفادى الجموع». كانت قد ضربت موعداً لابنة عمها روزين التي خرجت من خيمتها فور سماعها نداءهما. كانت جوليا برفقتها وقد حملت، هي الأخرى، صرّة من الملابس المتّسخة. «أين سننشر بعدما نغسل؟»، سألت لطيفة. «على الأشجار، أجابت روزين؛ وإن لم تتوفر ننشر على الأحجار». «يعني مثل النَّوَر»، عقبت أديبة. «وهل حالنا أفضل»، ردّت روزين وهي تضحك.

«إن روزين رائعة حقاً، قالت لطيفة مخاطبة نفسها؛ تبقى مرحة حتى في الأوقات العصيبة».

«إن روزين تبقى مرحة، فكّرت أديبة؛ ما دام حنّا في الجوار... ولكن إلى متى ستظل تضحك؟».

كان حنا يتمشى أمام خيمة أسرته وهو يدخن سيجارة. بادرته روزين قائلة: «هل رأيت السيجارة في نومك؟... يقيني أنك لم تأكل شيئاً بعد!». «قضمتُ كسرة من الخبز»، أجاب الشاب وهو يبتسم. وأضاف بعد أن رمى لفافته على الأرض وداسها بقدمه:

- والله لأعطي نصف عمري لقاء ركوة قهوة ساخنة مع صحن كليجة

محشوة بالتمر!... عندما أفكّر بأني كنت أتعالى على طعام أمي وأتدلل عليه، لا أنعت نفسي إلا بالحمار!

- البركة فيك، ردّت روزين بنبرة ماكرة: لست حماراً لا من قريب ولا من بعيد، كل ما في الأمر أن طعام أمك لا يؤكل... إلا بصعوبة!

- اللعنة عليك، أجابها حنا ممازحاً.

عرض الشاب بعد ذلك أن يرافق بنات عمّه، فرحبّن باستثناء أديبة. فقد كان من المعيب، في نظرها، أن تغسل ملابس داخلية في حضور رجل، وإن يكن حنا بمثابة شقيق لها.

بدت الدرب حتى ضفة النهر قصيرة، ولاسيما أن حنا لم يكفّ عن التظاهر بمشاكسة روزين، مثيراً ثورات غضب مفتعلة لدى هذه الأخيرة، ونوبات ضحك لدى لطيفة وجوليا، بل حتى لدى أديبة أحياناً. وعندما بان النهر هرعت الطفلتان نحوه، ترافقهما التحذيرات والتنبيهات. فمياه الخابور تظل زاخمة حتى في عز الصيف، ومجراها يتسم بالقوة والعنف. لذلك، حين أعرب حنا عن رغبته في السباحة، عارضته روزين بشدة. «قد يجرفك النهر، قالت: يغدر بك ويسوقك إلى حيث لا ترغب». فردّ حنا وهو يضحك: «أسافر على حساب الماء وأوفّر ثمن بطاقة القطار». بيد أنه سرعان ما أضاف: «المشكلة أن الخابور لن يوصلني إلى حلب: إن رحمني فسيبقى يجرجرني على مدى أيام ثم يرميني في نهر الفرات!».

- وهل يوصلك الفرات إلى مصر، سألت جوليا: هل يوصلك إلى بلد أنيس؟ فقد سبقكم أنيس إلى مصر، أليس كذلك؟

- أجل، أجاب حنا وهو يربت على رأس الطفلة: لقد سبقنا أنيس إلى مصر، ولكن مصر بعيدة جداً يا جوليا، لا الفرات ولا القطار يوصلانني إليها.

وتنهد الشاب قبل أن يضيف:

- أمامنا رحلة أخرى، طويلة ومنهكة؛ ولست أدري ما الذي ينتظرنا في الإسكندرية...

- ولماذا لا تبقون في حلب؟ لماذا تصرّون على الذهاب إلى مصر، سألت روزين بانفعال.

هز حنا كتفيه في حركة استسلام وهو يجيب: «لست أنا من قرّر ذلك، بل أنيس، وقد أخذ والدي برأيه».

لم يسبح حنا، إذ لم يكن من المعقول أن يتعرّى أمام بنات عمّيه، وأمام غيرهن من الفتيات اللواتي رحن يتوافدن زرافات على النهر. اكتفى بغسل وجهه، وذراعيه، وقدميه، وبرشّ بنات عميّه بالماء مثيراً صياحهن وضحكهن. غادرهن بعد ذلك ليذهب إلى السوق، فانشغلت أديبة وروزين بغسيلهما والطفلتان بلعبهما. وحين انضمت إليهما مريم سيوفي وعفيفة كبرو اكتملت فرحتهما...

- سوف نواصل اللعب طول النهار ولن نفترق قبل هبوط الليل، قالت جوليا.

- غداً، أيضاً، نلتقي هنا لنستأنف اللعب، زادت لطيفة.

- قد أُحضر معي حبلاً، عرضت مريم؛ فلدينا في الخيمة حبل طويل كنا قد حزمنا به متاعنا. سوف آتي به ونتبارى في القفز عليه.

- أما أنا فقد صنعت لي جدتي كرة من الصوف، قالت عفيفة؛ أجل، من كومة صوف لست أدري أين عثرت عليها. سأحملها معي غداً...

- سوف نمضي أوقاتاً رائعة على ضفاف هذا النهر، صاحت لطيفة مغتبطة.

- شرط ألا نغادر غداً، بل ربما هذا المساء، اعترضت جوليا؛ فمن يدري إلى متى سنظل هنا؟...

- من يدري؟ ردت لطيفة باحتداد؛ أنا التي أدري! أفلم تسمعي ما قاله بالأمس إسكندر أفندي؟

- وما الذي قاله إسكندر أفندي؟ سألت جوليا متهكمة.
- قال إن القطار إلى حلب لن يمر قبل يومين، وإنه لمن الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، إيجاد أماكن فيه لأفراد الأسرة بكاملهم...
- لن تسافرا إذن، صاحت مريم وهي تقفز من الفرح؛ لن تسافرا قبل يومين على الأقل.

انقضت ساعات الصباح والطفلات الأربع في حالة من النشوة. لعبن بالطمّة، بفضل كيس الخرز الذي لا يفارق جيب جوليا؛ ولعبن بالحصى التي جمعنها من فوق شريط الأرض الرطبة الذي يحاذي النهر؛ ولعبن بالغميضة وإن لقين بعض الصعوبة في العثور على أمكنة للاختباء. انتصف النهار من غير أن تشعر جوليا ولطيفة بالتعب أو بالجوع. ولولا إصرار أديبة وروزين على اصطحابهما إلى الخيمة لتناول طعام الغداء لما غادرتا ضفة الخابور السحرية. لما غادرتاها لحين؛ ذلك أنهما لم تبارحا المكان إلا بعد أن قطعتا عهداً لرفيقتيهما بالعودة إليه ثانية، وبأسرع ما يمكن.

وهكذا كان. اجتمع شمل الفتيات الأربع من جديد واستؤنف اللعب بنشاط وحمية، إلى أن أطلت عليهن تلك الطفلة البائسة...

كيف ظهرت فجأة أمامهن؟ من أين جاءت؟ ومتى جاءت؟ أسئلة تزاحمت في ذهن لطيفة وهي ترنو إلى تلك الطفلة الحزينة التي وقفت على مسافة أمتار من حلقتهن، تختطف النظر إليهن بعينين سكنهما الذعر. طفلة دون العاشرة، هزيلة الجسم، شاحبة الوجه، حليقة الرأس، على ذراعيها النحيلتين انتشرت بقع حمراء وبثور بيضاء؛ وعلى ساقيها، اللتين لم يبق منهما سوى عظام يكسوها جلد خشن وجاف، بانت آثار خطوط، بعضها أحمر وبعضها الآخر أزرق مائل إلى الاخضرار. انحنت فجأة والتقطت من الأرض حبة عنب وأخفتها خلف ظهرها. حبة كانت جوليا قد رمتها تواً، ربما لأنها عفنة أو متدرنة. فالعنب الذي جاء به حنّا من السوق لم يكن طازجاً، غير أنه لم يجد أفضل منه.

دسّت لطيفة يدها في جيبها بحثاً عن أي شيء يمكن أن تقدمه للطفلة الجائعة. غير أنها ألفته خالياً تماماً من المأكولات. وقبل أن تستفسر جوليا إن كان لديها هي ما يؤكل، ولو كسرة خبز أو حبة فاكهة، كانت الطفلة تبتعد مسرعة في اتجاه المخيم.

- نديمة هو اسمها المتعارف عليه، انبرت مريم سيوفي تقول؛ أما اسمها الحقيقي فلا أحد يعرفه: فهي خرساء، لا تتكلم. ربما أصبحت خرساء بعد الذي أصابها.
- وما الذي أصابها، استفسرت جوليا.
- إنها من نصيبين على ما يبدو. لقد سيقت مع أبويها وإخوتها. وقد قُتل أبواها وبيع إخوتها. أما هي فلم يشترها أحد؛ ربما بسبب نحولها الشديد؛ أو ربما لأنها استطاعت أن تهرب قبل أن تباع...
- وكيف عرفتم ذلك، عادت جوليا تسأل؛ ما دامت لا تتكلم؟
- لقد تمكن بعض الذين كانوا في تلك القافلة من إنقاذ أنفسهم، أجابت مريم؛ دفعوا مبالغ طائلة من المال لحرّاسهم فغضوا النظر عن هربهم. وقد رووا فيما بعد أن جميع الذين سيقوا في تلك القافلة أُعدموا تباعاً، باستثناء الصبايا والأطفال الذين كان نصيبهم البيع في المزادات العلنية.
- عندما وصلت هذه الطفلة إلى المخيم، أضافت عفيفة كبرو، كانت شبه ميتة. إنها أفضل حالاً الآن: فهي تقتات من فضلات الأسر.
- يبدو أنها فضلات نادرة، عقّبت جوليا؛ فالمسكينة لا تزال شبه ميتة! ولكن من يهتم بها؟ من يرعاها؟ أين تنام؟ ومع من؟...

هزت عفيفة كتفيها تعبيراً عن جهلها وعن لامبالاتها في آن معاً. وفيما راحت جوليا تردد: «ليكن الله في عونها!» ومريم سيوفي تدعو الله أن يحميها من مصير كهذا، سألت لطيفة وهي تنظر لجهة المخيم: «ولماذا سمّوها نديمة؟... أما كانت تستحق اسماً أكثر ألقاً وأجمل وقعاً بعد كل ما عانت؟».

-23-

تمحورت أحاديث الأسرة عشية ذلك اليوم حول بيع الآدميين في زمن الفواجع والمعاصي. فما أن روت لطيفة وجوليا قصة الطفلة نديمة التي أفلتت من قبضة تجار البشر، ربما لأنها لم تجد من يشتريها، حتى انطلقت الألسن تنقل الأخبار الشائعة داخل المخيم.

- تخيّلوا، قال عزيز، أن سعر الأطفال الذين دون السابعة يتراوح من خمسة إلى عشرين قرشاً، أي أن الطفل يباع بسعر الحَمَل! ولئن تدنت أسعار الأطفال إلى هذا الحد فلأن العرض يفوق بكثير الطلب. فماذا يفعل بهم الجلاّدون بعد أن يكونوا قد ذبحوا أهلهم أو أعدموهم بالرصاص؟ يتلّهون في البداية بقتل بعض منهم، ثم يتخلصون منهم بأبخس الأثمان... أما الصبية والفتيات الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة فإنهم يُسعَّرون بمجيدتين أو بثلاث مجيديات...

- وقد يرتفع هذا السعر أكثر، قاطعه حنّا قائلاً: عندما تكون الفتاة أو الفتى من أسرة مسيحية معروفة. فقد أفادني شخص من آل قريو أن نسيبة له بيعت مؤخراً في ماردين بثماني ليرات عثمّلية.

- يبدو أن ماردين قد شهدت، غداة رحيلنا، مزاداً علنياً على أعداد كبيرة من المساقين، جلّهم من السريان، قال روفائيل؛ وقد دفعت أرملة يوسف سعدو نانو مبالغ طائلة لشراء أكبر عدد ممكن من أولئك المساكين وإطلاق سراحهم؛ وكذلك فعل المطران تبوني. هذا ما أفادني به إسكندر أفندي جنانجي حين التقيته هذا الصباح في السوق. فهو، بفضل علاقته الطيبة مع المأمور هنا، يطّلع على كل ما يجري في

ماردين. فلدى المأمور جهاز تلغراف يربطه بمكتب المتصرّف، وكلما ورد إليه خبر مثير سارع إلى إعلام إسكندر أفندي به.

- عشنا وشفنا، البشر يباعون ويشترون، قالت ملكة وهي تتنهد.

- يبقى البيع والشراء أفضل من القتل، عقّبت فريدة.

- لا، خيرٌ للفتاة أن تُقتل من أن تصبح جارية، صاحت روزين. لو خُيّرت شخصياً بين الحلّين لما ترددت لحظة في طلب الموت.

- لو هُدِّدت فعلاً بالموت، قاطعها بهجت، لرميت نفسك بين أحضان من يعرض شراءك... هذا إن وجد من يرغب في اقتنائك، أضاف ممازحاً.

- ما هذا الكلام، صاحت ملكة؛ بعيد الشر عنها ألف مرة!... لن يهددها أحد بالموت!... لا هي ولا سواها... غداً نأخذ القطار، إن شاء الله، ونغادر أرض المآسي هذه.

- معك كل الحق يا ملكة، قال روفائيل؛ إنها أرض المآسي فعلاً... فمنذ شهور ونحن نعيش كابوساً رهيباً... يخال لي، في بعض الأحيان، أن زكريا قد أخذ معه أماننا، وراحة بالنا، وطيبة عيشنا عندما رحل. فقد بدأت متاعبنا يوم غادرنا...

- بل يوم أصيب كريم بتلك الرصاصة الغادرة، قال رزق الله؛ فمنذ تلك الحادثة المشؤومة والمصائب تتعاقب علينا. فقدنا زكريا، وفقدنا ممدوح وعائلته، وتخلّينا، مضطرين، عن شقيقنا المقعد، وتشردّنا على دروب محفوفة بالمخاطر... بتنا نبيت تحت الخيام، نحن أبناء يونان مسعود!

وتابع رزق الله يقول وهو يحدّق في شقيقه:

- هل أحسنّا صنعاً يا رفّول عندما شددنا الرحال؟... إن الشكوك لتساورني الآن. كيف هان علينا كريم؟... كيف هانت علينا دارنا؟ تركناها مرتعاً للأوغاد وقد أرادها والدنا صرحاً لأسرتنا...

- وهل كان أمامنا خيار آخر، قاطعته ملكة بحدة؛ نصون الدار أم نصون الأولاد؟... أمّا كريم، فهو الذي ألحّ علينا بالرحيل، لا تعتقد أنه يغيب عن فكري لحظة واحدة، ولكن عليّ أن أفكّر بالأولاد أولاً!

وأضافت ملكة بصوت حزين، شبه خافت:

- ألا تكفينا الخسارة الفادحة التي تكبدناها مع فقدان ممدوح وأسرته؟ لو لم نتردد، لو لم نتخوف من مواجهة المجهول، لو حسمنا أمر رحيلنا من اليوم الأول لاندلاع نار الفتنة، مع مصرع عبد الجليل سيوفي وميخائيل العوّاد، فلربما بقي ممدوح على قيد الحياة...

- ما هذا الكلام، صاح زوجها معاتباً، وهو يختطف النظر إلى حيث جلست بهية.

- ملكة تتكلم بدافع حبها لممدوح وحسرتها عليه، قالت بهية وهي تبتسم بحزن؛ لكن ممدوح، في اعتقادي، ما كان سيوافق على الهجرة، على مغادرة الولاية إلى غير ما عودة. فقد كان فخوراً بعمله الوظيفي، حريصاً على النهوض به على أحسن وجه؛ وكان واثقاً من أن الدولة العثمانية لن تتخلى عن حماية اليعاقبة. ثم إنه كان شديد التعلق بأرضه، بماضي أسرته وملّته... لقد استاء من سليم يوم اختار الاستقرار في حلب لضرورات عمله. فكيف يوافق على سلوك الطريق عينها؟ لا يا ملكة! لا رزق الله ولا روفائيل بمسؤولين عما حصل... لقد ذهب ممدوح ضحية قيَمه ومبادئه، ضحية نبله وشهامته.

كانت لطيفة تتابع باهتمام حديث الكبار وقد قبعت بجانب جوليا التي استسلمت للنوم مع هبوط الليل. ثمة سؤال كان يلح عليها من غير أن تتجرأ على طرحه. ففي حضور عميها روفائيل ورزق الله كانت تلزم الصمت ما لم تدعَ للكلام. ولكن لدى سماعها أمها تتحدث عن ممدوح رفعت صوتها تسأل:

- أليس من المحتمل أن يكون زكريا الصغير لا يزال على قيد الحياة؟...

فربما بيع، أسوة بسواه من الأطفال... ربما اشتراه المطران تبوني أو تلك السيدة المحسنة التي تحدثتم عنها؟... ربما...

وإزاء النظرات التي تسلطت عليها من كل صوب، نظرات مذهولة، معاتبة، وأخرى حزينة غشّاها الدمع، ارتبكت وتبلبلت؛ أمسكت عن الكلام ثم أجهشت في البكاء.

-24-

غدوا داخل القطار! بعضهم جالس وبعضهم الآخر واقف. متاعهم تَوزّع بين المقاعد وعلى الرفوف المعدنية التي اعتلت النوافذ؛ أما زادهم فحُفظ بأمان في أحضان النساء. فروفائيل دفع ثمنه غالياً، وقد أوصاه السمّان الأرمني الذي باعه الجبن والزيتون والبسطرما والخيار بأن يأخذ حيطته بالنظر إلى المجاعة السائدة في حلب؛ فقد ندُر الغذاء فيها وبهظت أسعاره بسبب الحرب من جهة، وتدفّق المهجّرين والجنود عليها من جهة أخرى. «لقد غزاها العسكر، قال له السمّان؛ عسكر تركي، وعسكر ألماني، وعسكر نمساوي، وعسكر أولاد كلب!...». ولكن لئن أفاد روفائيل أفراد أسرته بالتواجد العسكري الكثيف في حلب، فقد لزم بالمقابل الصمت بصدد المجاعة السائدة فيها. فلِمَ يجلب الغم إلى قلوب غمرها التفاؤل مع وصول القطار؟

ذلك أنه للمرة الأولى منذ زمن بعيد طغت أصداء الضحك على التذمر والشكوى والنحيب. فركوب القطار كان، بحد ذاته، تجربة خارقة؛ والابتعاد عن ديار حوّلها ساستها إلى وادٍ للموت كان انعتاقاً من الحزن والهلع، وتحرراً من كابوس بدت فصوله وكأنها لن تنتهي.

سبق لبهية أن سافرت بالقطار؛ لجأت إليه قبل عامين لزيارة أهلها في حلب بمناسبة زفاف ابن شقيقها الأكبر، باسيل. أما ملكة وفريدة وبقية الإناث والذكور، فيما عدا روفائيل، فتلك كانت المرة الأولى التي يصعدون فيها إلى آلة متحركة. لذلك امتزجت فرحتهم بقدر من الارتياب، بل بشيء من الرهبة. فركوب المجهول محفوف دوماً بالمخاوف. ومن يدري ماذا سيحصل عندما سيقلع ذلك التنين الضخم الذي ينفث دخاناً أسود من رأسه ويولول ويشنخر ليعلن عن مروره؟ فقد أقام الدنيا وأقعدها عندما وصل إلى المحطة؛

طغى صفيره القوي على أصوات الناس قاطبة، ومكث يهدر ويزمجر حتى بعد أن توقف؛ ربما ليفرض هيبته على الحشود الساعية إليه، على الأمواج البشرية الزاحفة في اتجاهه. فمع أن المسؤول عن المحطة كان يصرخ من فوق الكرسي الذي اعتلاه: «لا توجد أماكن شاغرة في القطار؛ لا فائدة من التزاحم؛ انتظروا القطار القادم؛ عودوا إلى خيامكم!»، فإن الأجسام كانت تتدافع، والأيادي تمتد في محاولات يائسة للإمساك بباب، بنافذة، بشيء من هذا القطار اللعين الذي ما إن يصل، فتتلقفه العيون وتنشرح له الصدور، حتى يبارح مخلفاً وراءه أحلاماً محطّمة وآمالاً مندحرة.

- كيف تمكّنا من الصعود إلى القطار؟ كيف تأمنّت لنا هذه الأمكنة؟ لماذا ساعدنا المأمور دون سوانا؟

ربما كانت هي المرة العاشرة التي طرحت فيها روزين أسئلتها هذه من دون أن تحظى بجواب؛ فهذا كان منشغلاً بتوضيب المتاع، وذاك بالتأكد من أن ما من طرد قد نُسي أو إجراء قد أُهمل. ولكن ما أن استقرت جلسة الأسرة داخل عربة كان قد سبقهم إلى احتلال الجزء الأكبر منها أناس قادمون من نصيبين، ومن ديار بكر وخربوت، حتى وجدت أسئلة روزين من يجيب عنها في شخص زوجة عمها، فريدة:

- إن الفضل لله، قالت؛ فقد شاء أن يمنحنا مكاناً في هذا القطار.

- بل الفضل لله ولروفائيل، أضاف زوجها وهو يضحك. فلولا مبلغ المال الذي دفعه للمأمور لبقينا واقفين على رصيف المحطة...

- كم دفعت له؟ سأل يوسف مخاطباً عمه روفائيل.

لم يُجب هذا الأخير بل رسم بيده حركة تفيد بأن الموضوع غير ذي أهمية. ولكن شقيقه رزق الله تولى الإجابة فقال:

- عشر ليرات عثملية...

وإزاء الابتسامة التي قابل بها روفائيل هذا الإعلان استفسره رزق الله بفضول:

- لقد اتفقنا على هذا المبلغ، فهل دفعت له أكثر؟ هل طالبك الوغد بالمزيد؟

وإزاء صمت روفائيل تنطّع بهجت بالإجابة:

- أعطاه بعضاً من مصاغ أمي...

- ولماذا، صاح رزق الله منفعلاً؛ لماذا قبلت بابتزازه؟

- لو لم أقبل، أجاب روفائيل، لما سافرنا لا اليوم، ولا بعد شهر، ولا بعد سنة!... ألم ترَ تلك الحشود المستميتة في سبيل ركوب القطار؟ قطار يصل إلى رأس العين وهو مكتظ أصلاً بالركاب... فلو لم أرشِ المأمور الذي سيرشي بدوره من هم أرفع منه شأناً لقفلنا عائدين إلى ماردين.

- وماذا أعطيته من مصاغ ملكة، سألت فريدة.

- قلادتي وإسواري الجنزير، أجابت ملكة.

ضربت فريدة كفاً بكف تعبيراً عن سخطها وحزنها؛ لكن ملكة فاجأت الجميع عندما أعلنت، وهي تضحك:

- لقد وعدني روفائيل بقلادة أوزن وبإسوار مرصّع بالماس. فالويل الويل له إن لم يف بوعده...

وتاهت عبارتها الأخيرة وسط صيحات الدهشة والفزع: فقد تحرك القطار! ارتجّت النوافذ، ودوّى الصفير، وهشهشت العجلات، ومال الواقفون على الجالسين، وتدحرّجت بطيخة بين الأقدام، وهوت صرّة من فوق الرف فتلقفتها فريدة وهي تردد: «ويلي... ويلي... لخاطر الله... زلزال... زلزال...».

-25-

كانت جوليا قد استسلمت للنوم منذ بعض الوقت؛ وكذلك فعلت روزين وأديبة. جوليا فتحت فاها فيما بقيت يدها مطبقة على الكرة الصوفية التي أهدتها إياها عفيفة كبرو. وروزين راحت تشخر، مثيرة ضحك عزيز وتعليقاته الساخرة. أما أديبة فانكمشت على نفسها، كأنها خجلة من النوم في مكان عام. يوسف كان يتحدث عن القديس إفرام، الذي كان شاعراً ومن مواليد نصيبين، وكان عمّاه يصغيان إليه باهتمام، أسوة ببهجت وحنّا. أما النساء فكن يتهامسن تارة، ويصلّين طوراً، وقد أمسكت كل واحدة منهن بسبحة يتدلى منها صليب. تأبّى النوم عن جفون لطيفة، فانزلقت من فوق المقعد الخشبي الذي شغلت أقصى طرفه وغادرت المقصورة من غير أن ينتبه إليها أحد؛ فقد ضاقت بجلستها الطويلة في هذا المكان المغلق، ولاسيما أن الهواء فيه كان فاسداً والجو خانقاً. شقّت طريقها بتؤدة بين الحقائب والقفاف وبلغت الباب من دون أن تُحدث صوتاً يفضح مناورتها. خطت خطوتين فغدت في الممر الضيق والطويل المحاذي للمقصورات والسابح في شبه ظلمة. هدير القطار كان يُسمع بقوة أشد، ربما لأنه ما من أنسيّ سواها في هذا المكان، وربما، أيضاً، بسبب تعدد النوافذ التي كانت نصف مفتوحة. أحسّت بلسعة باردة على ذراعيها العاريتين ففركتهما بكفيّها. دنت من أول نافذة وأطلّت برأسها على الخارج. لم تر شيئاً على الإطلاق؛ فقد امتد الخلاء أمامها إلى ما لا نهاية. لا شجرة، لا كوخ، لا أحد من بني آدم، لا حمار... غير أن الريح التي لفحت وجهها بقوة، وكأنها ماء بارد صبّ عليه، حملت إليها رائحة زكية؛ رائحة قمح مشوي... عبّت من الهواء المنعش بنهم عطشان انحنى تحت صنبور ماء.

في البعيد، حيث تلتحم السماء مع الأرض، بان لها ثعبان ضخم، ثعبان له بداية وليس له نهاية. وللحال طفرت إلى ذهنها صورة الأخت تيريز، الراهبة الفرنسية التي كانت مكلّفة بتعليم من هنّ في سنها من الطالبات. فقد جاءت إلى الصف ذات يوم بصورة ثعبان قالت إنه يُعرف باسم «بوا» وإنه لا يعضّ ضحيته بل يقتلها خنقاً. وقد ادّعت أن هذا الثعبان الشيطاني إن التفّ حول رقبة فيل تمكن من خنقه!...

كانت قد شكّت في صحة أقوال الأخت تيريز عندما زعمت أن ثعباناً، لا يعض ولا يسمّم، قادر على التغلب على فيل. ولكن أمام حجم تلك البوا التي شغلت الأفق أعادت النظر في شكوكها... لحسن الحظ أن القطار لا يتقدم في اتجاهها، بل يسير في خط موازٍ لها، وإلا لكانت التفّت من حوله حين يبلغها، فتحطّم عرباته وتحيل ركّابه أشلاء! وتساءلت إن لم يكن من واجبها تنبيه ذويها إلى وجود ذلك الحيوان الشرير؛ ولكن لو فعلت لاستحقت التوبيخ، لأنها غادرت المقصورة من دون استئذان، ولدعيت إلى العودة إلى مكانها في جوار جوليا. والحال أن وقفتها في هذا الممر قد راقت لها...

لون الثعبان يميل إلى البنفسجي الفاهي، لون جميل ذكّرها بسماء ماردين ساعة الغروب. تنهدت وقد غلب عليها الحنين إلى مدينتها الحبيبة، إلى بساتينها الغنّاء، إلى بيوتها المتدرجة المتعانقة المتلاحمة، إلى قلعتها الشامخة، إلى نسيمها العليل، إلى ضوء قمرها، إلى سهراتها الحلوة، إلى أزقّتها الأليفة حيث يطيب اللعب... وتنهدت ثانية، حزناً هذه المرّة على الذين أودعتهم أمانة في عنق أرضها؛ على والدها، وعلى شقيقها وعلى عمها. فقد كانت على قناعة بأنها لن تلتقي عمها كريم من جديد. أهو عمّها الذي يغنّي الآن؟ أيعقل أن يصلها صوت من ماردين؟ أفليست هذه أغنيته المفضلة؟ الأغنية التي كان ينشدها ليلاً قبل أن يصاب بتلك الرصاصة الغادرة، قبل أن

تحلّ عليهم المصائب بالجملة. فهي تسمعها الآن بوضوح:

«غزالة مكحّلة بأرض البرية
سقتني الميّة وقالت لي هنية
دي قولوا يا حلاوتها ويا لطافتها
واش بيضا ونازوكية العربية»

وكادت تصرخ «عمو كريم، أين أنت؟!»، غير أنها صحت على الواقع. لقد كانت في قطار يشق طريقه إلى حلب؛ وغدت هي على مسافة شاسعة من ماردين، مسافة يعجز أي صوت عن قطعها حتى ولو كان صوت عمها! لا ريب في أن مسافراً، في عربة مجاورة، هو الذي أنشد هذه الأغنية؛ مسافر غلب عليه الحنين للولاية، أسوة بها. وها هو يردد مقاطع من تلك الأغنية التي ترافق الأعراس والسهرات والنزهات الجماعية تحت ضوء القمر؛ أغنية حفظت مقاطع عديدة منها عن ظهر قلب. أغنية «دلالي دلال».

ونظرت من حولها يميناً ويساراً؛ وعندما تأكدت من انفرادها في الممر المعتم ضمت صوتها إلى صوت المنشد المجهول وراحت تغني بدورها:

«على ضوّك يا قمر
تفاح حلو حشنا دلالي دلال
ومن المسا للصباح
خدود حمر بسنا دلالي دلال»

وانتابتها رغبة في الرقص، في الضحك، في الزغردة، في إعادة إحياء أجواء السهرات التي طالما شهدتها باحة دارهم، تلك الباحة الفسيحة، مع حوض مائها، وأصص ريحانها وورودها، وشجيرات كبّادها، وأرائكها التي تحلو الغفوة عليها في ليالي الصيف؛ الباحة التي أقيم فيها حفل زفاف ممدوح والتي عزف فيها ميخائيل العوّاد من المساء وحتى مطلع الفجر...

«على ضوّك يا قمر» عاد الصوت يردد. ولكن قبل أن «يحوش» المنشد

«التفاح الحلو»، صاح أحدهم بحدة ونزق: «أخرس يا كلب!... وإلا قطّعتك إرباً!...».

ارتعدت الطفلة فسارعت تنضم إلى ذويها داخل المقصورة. كان يوسف لا يزال يتكلم، وروزين تشخر، وأمّها تصلّي. وسّعت لنفسها مكاناً في جوار يوسف وانتظرت أن ينهي عبارته حتى تضغط على يده لتلفت انتباهه. «ألم تنامي بعد؟» سألها شقيقها مستغرباً. نفت بحركة من رأسها وانبرت تقول، بلهجة واثقة: «رأيت ثعباناً في الخارج... ثعبان هائل؛ فهو أطول من القطار، بل أطول من عشرين قطاراً». «ثعبان أطول من عشرين قطاراً؟»، سألها يوسف وهو يبتسم. «أجل، أكدت الطفلة؛ أنت تجهل وجوده لأنك لم تدرس عند الأخت تيريز... هي التي حدثتنا عنه... اسمه «بوا». أسمعت يوماً بهذا الاسم؟ طبعاً لم تسمع». «وأين رأيت ذلك الثعبان؟»، عاد يوسف يستفسرها وهو يكبت رغبته في الضحك. «في البعيد، أجابت، عند آخر الأرض؛ لونه ليلكي جميل. لحسن الحظ أننا لا نسير في اتجاهه، وإلا التّف حول القطار وهرسه ونحن معه!». «لحسن الحظ»، قال يوسف موافقاً. «ما قصة هذا الثعبان؟»، سأل العم رزق الله الذي بدأ النعاس يثقل جفنيه. انحنى يوسف عليه وقال بصوت خفيض: «إنه انعكاس للضوء عند الأفق، ولا بد، وقد خالته لطيفة ثعباناً عملاقاً».

-26-

«وصلنا إلى حلب! وصلنا إلى حلب!».

كانت جوليا تردد هذه العبارة وهي تقفز فرحة، منفعلة. لطيفة، التي كان النوم قد استعصى عليها حتى طلوع الفجر، لم تستوعب للحال مفاد هذا الإعلان. بقيت مسترخية فوق مقعدها، تجاهد لفتح عينيها، إلى أن صاح بها يوسف: «هيا! انهضي! سوف نبارح القطار!...». عندئذ فقط تنبهت للحركة التي دبّت من حولها. سلاّت تتلقفها الأيدي، صرر تُسحب من فوق الرفوف، حقائب تجرّ، أجسام تتصادم، أصوات ترتفع، نصائح تسدى بلا طائل وسط الضجيج والصريخ. من النافذة المفتوحة لمحت بهجت. كان واقفاً على رصيف المحطة، رافعاً ذراعيه، يتناول تباعاً أمتعة يمرِّرها له والده. أحست بيد تقبض على يدها وسمعت أمها تقول: «هيا يا حبيبتي، لقد وصلنا».

غادرت القطار ويدها في يد أمها. وعندما وطأت أرض حلب للمرة الأولى شعرت بأن حلماً قديماً وعزيزاً قد تحقق، وإن على نحو منقوص. فلطالما تمنّت أن تتعرف على مدينة أمها، ولكن في ظروف غير هذه الظروف. فقد كان بودّها أن تأتيها زائرة، لا مهاجرة تسعى وراء وطن جديد. كان بودّها أن تأتيها بصحبة أبويها وكامل أفراد أسرتها، لا يتيمة الأب ومفجوعة بوفاة شقيق.

«ابقوا متجمعين، ملتفين على بعضكم، فلا يذهب واحدكم شرقاً وثانيكم غرباً». كان العم روفائيل هو من أعطى هذه التوصية التي سارع يتبعها بأخرى: «تفقدوا متاعكم وتأكدوا من أنكم لم تنسوا شيئاً في القطار». «لم ننسَ فيه إلا خوفنا، أجابت ملكة وهي تضحك؛ وقد نسيناه عامدين متعمّدين». «ودّعناه إلى الأبد، زادت ابنتها روزين؛ تمنينا أن ينقلع وألا يعود أبداً». «إن شاء الله،

إن شاء الله»، ردد العم رزق الله وهو يرفع سلّة بيد وحقيبة بأخرى. «إلى أين نتجه؟»، سألت فريدة التي ضمّت إلى صدرها صرّة كبيرة كانت قد جمعت فيها الخبز مع الجبن مع بقايا البسطرما. «الحقي بي»، أجابها ابنها حنّا وهو يشير بيده إلى مدخل المحطة، إلى باب عريض تزاحم عنده الوافدون والراحلون.

تقدم حنّا الركب، شاقاً طريقه بصعوبة نحو البناء الحجري الذي انتصب بمحاذاة الرصيف، والذي اختلفت هندسته عن الطراز المعماري المتبع في ماردين. بناء مربّع، اعتلاه سقف مخروطي الشكل، وغطّى هذا السقف قرميد ملّون. «أترى بيوت حلب جميعها على هذا المنوال؟»، تساءل الشاب مستغرباً؛ ولم يلبث استغرابه أن تحوّل إلى دهشة وذهول عندما أصبح داخل بهو المحطة الفسيح. لا لأنه فوجئ، فحسب، بحركة لم يعهدها في ماردين، من أرتال من المسافرين يتدافعون أمام مقصورات صغيرة احتلها مأمورون بلباس رسمي، إلى عشرات العتالين يتسابقون على حمل الأمتعة والهرولة بها يميناً ويساراً، إلى أفواج من الباعة يرفعون فوق رؤوسهم صوانٍ عمرت بالكعك وبالشمندر المسلوق؛ بل كذلك لأن البهو غصّ بطابور من العساكر بدوا له وكأنهم قادمون من كوكب آخر؛ فلا شكلهم مألوف ولا اللغة التي يرطنون بها مفهومة؛ فقاماتهم مديدة، وبشرتهم بيضاء، وعيونهم فاهية اللون، وشعورهم مائلة إلى الشقرة. أما كلماتهم، التي تطايرت وانتشرت في كل صوب، فما كانت تنتمي إلى أي لغة عرفها أو سمعها. استدار على نحو تلقائي يبحث عن ابن عمه بهجت الذي كان يسير في المؤخرة، قابضاً بيد على يد شقيقته جوليا ومثبتاً، بالأخرى، سلّة على كتفه؛ وبصوت عالٍ سأله: «من يكون هؤلاء الجنود في رأيك؟ فلا هم بعرب ولا بأتراك». وتولى العم روفائيل الإجابة عن سؤاله: «إنهم ألمان، قال، أو ربما نمساويون... لغتهم واحدة في مطلق الأحوال... إنهم منضبطون على ما سمعت، لا يتعدّون على المدنيين الآمنين ولا يخلقون لهم متاعب».

«شكلهم يسبّح الخالق»، همست روزين في إذن أديبة فيما كانت أمها تمازح بهية قائلة: «لو كان شتوات ماردين على شاكلتهم لغفرت النساء لهم سلوكهم». وابتسمت بهية بالرغم منها؛ ابتسمت بالرغم من الحزن الذي ما عاد يبارحها؛ ابتسمت وحثت الخطى على نحو تلقائي. فقد غدت في مدينتها، حيث ينتظرها سليم، وحيث ستلتقي من جديد بكامل أفراد أسرتها. بشقيقيها حبيب وباسيل؛ بأختها وديعة التي سبقتها إلى حلب؛ بأعمامها وأخوالها وأولادهم؛ بالأصدقاء والجيران والمعارف... شدّت على يد لطيفة تستعجلها في سيرها. فقد كانت توّاقة إلى مغادرة المحطة، إلى اختصار الزمن والمسافة اللذين يفصلانها عن أحبائها.

أمام باب المحطة الخارجي، وعلى رصيف محاذٍ لبنائها الحجري الجديد، اصطفّت عربات حنطور تجرّها دواب. «سوف نحتاج إلى ثلاث»، قال العم روفائيل بصوت مسموع وهو يدنو من حوذي انتصب على المقعد الأمامي لواحدة من تلك العربات. «وإلى أين أنتم ذاهبون؟»، سأل الرجل وهو يقبض على السوط الطويل الذي كان أسنده إلى جواره. «إلى بوابة الخلّ»، ردّت بهية التي سرعان ما أضافت برسم روفائيل: «سوف أصعد مع الأولاد إلى العربة الأولى كيما أدلّ الحوذي على بيت شقيقي حبيب...». هز روفائيل رأسه موافقاً. وما هي إلا لحظات حتى صعد كامل أفراد الأسرة إلى العربات الثلاث ومعهم حقائبهم وصررهم وسلّاتهم.

جلس يوسف إلى جانب الحوذي في حين احتلت بهية وأديبة صدر الحنطور؛ أما لطيفة، التي كان بودها أن تشارك يوسف جلسته، فكان نصيبها مقعداً صغيراً ضيقاً لم يُفسح لها فيه، على كل حال، سوى ركن محدود: فقد حُشرت بين كيس الكعك، الذي كان يوسف اشتراه في رأس العين، وسلّة العنب التي ابتاعها عمّها لدى توقف القطار في إحدى المحطات... كان ظهرها للحوذي ووجهها لأمها ولأديبة. «لا أرى شيئاً من حيث أجلس، قالت محتجة؛ لو وافق يوسف أن يفسح لي مكاناً إلى جانبه لتمتّعت برؤية حلب». «مِن المعيب أن تجلس

الفتيات إلى جانب الحوذي»، ردّت أديبة على الفور؛ «سوف تشاهدين حلب طولاً وعرضاً، قالت بهية وهي تربّت على رأس الطفلة؛ فسوف نقيم فيها!». «لمدة أشهر على الأقل»، أوضحت أديبة التي كانت على اقتناع مطلق بعودة الأسرة إلى ماردين، إن لم يكن في بحر هذا العام فبعد عامين أو ثلاثة.

هزّت لطيفة كتفيها وأغمضت عينيها. وحين سألتها أمها لماذا أطبقت جفنيها وقد تذمّرت للتو من ضيق رؤيتها أجابت غاضبة: «أفضل العمى على التلصص؛ فماذا سأرى من حلب من الزاوية التي حُشرت فيها؟ نصف بيت من هنا وربع شجرة من هناك؟ إني في غنى عن هذه الرؤية!...».

كانت الطفلة قد صمّمت على ألا تفتح عينيها قبل بلوغ دار الخال حبيب. لكن اهتزاز الحنطور المفاجئ وارتفاع صوت الحوذي ينهر دابته أرغماها على الإخلال بعهدها. سألت بصوت مضطرب: «ما الذي يحصل؟ لماذا ترتج العربة؟».

«بسبب البلاط الذي رصفت به الطريق، أجابت الأم التي تابعت موضحة: كان هذا البلاط في الماضي يغطي سفح القلعة. فلحلب أيضاً قلعتها؛ قلعة قديمة وعظيمة». «ولكنها، حتماً، دون مستوى قلعة ماردين، ردّت الطفلة؛ فقلعتنا لا مثيل لها في الدنيا! اسألي يوسف، فقد قرأ الكثير عنها». «وما دخلك أنت بالقلاع، قالت أديبة؛ هل تفهمين شيئاً بخصوصها؟». وتابعت، موجهة كلامها إلى أمها: «لست أدري من أين اكتسبت لطيفة هذه العادة السيئة، أعني إصرارها على إبداء رأيها في كل موضوع يثار!». «حسناً! صاحت الطفلة منفعلة؛ لن أغمض عينيّ فقط، بل سأصم أذنيّ وأمتنع عن الكلام أيضاً». وعلى الفور أطبقت جفنيها من جديد، ووضعت كفيّها على أذنيها، وزمّت شفتيها، وأحنت رأسها حتى كاد يلامس ركبتيها.

«ما كنت أتخيل وصولي إلى حلب على هذه الصورة، ردّدت بينها وبين نفسها؛ ما كنت أتوقع هذا الانقباض في صدري وأنا أدخل إلى مدينة أمي. فهل سيرافقني الغمّ طول إقامتي فيها؟».

-27-

كانت الأسرة، بفروعها الثلاثة، قد توزعت على السطّحين المتلازمين لداري الخالين باسيل وحبيب. فنزولاً عند الرغبة الملحة لهذين الأخيرين وافق روفائيل ورزق الله على الإقامة مع عائلتيهما عند شقيقي بهية، ريثما يعثران على دار، ويرتّبان شروط استقرارهما فيها. «نحن، في ليالي الصيف، ننام على السطح في مطلق الأحوال، أكد الخال حبيب؛ وسطح دارنا وحده يتّسع لطابور جيش».

كان السطحان متّصلين، لا يفصل بينهما سوى درابزين حجري أسمته سلمى، صغرى بنات الخال حبيب، «سطارة». وقد قفزت الطفلة من فوقه مراراً، وفي ركابها لطيفة وجوليا، متنقلة من سطح إلى آخر، تلبية لطلبات الكبار في البداية، وبهدف اللعب واللهو في النهاية، إلى أن ارتفع صوت الخال باسيل يدعو الصغار إلى لزوم الصمت والكفّ عن الحراك لأن هنالك من يود الإخلاد إلى الراحة بعد رحلة طويلة وشاقة.

«مَن الذي سينام، سألت جوليا بصوت خفيض؛ فهذا يتكلم، وذاك يتنهد، وآخر يضحك، ناهيك عن الذين يدخنون، أو يفصفصون البزر. فهل انفردنا نحن بإحداث ضجيج أو إقلاق الناس؟». «لا، ولكن من عادة الكبار أن ينهوا الصغار عما يسمحون به لأنفسهم»، أجابت لطيفة التي سرعان ما أضافت وهي تتثاءب: «لقد غلب عليّ النعاس، على كل حال، وليس في نيتي مقاومته، ولاسيما أني متشوقة إلى التمدد فوق فراش مريح ونظيف... فقد نسينا طعم النوم الهنيء منذ أن غادرنا ماردين. بتنا لا نغفو إلا من شدة التعب، فوق التراب والحجارة تارة، أو على مقعد قاسٍ في قطار يرّج ويعنّ طوراً».

كانت النساء قد انفردن بسطح الخال باسيل؛ مددن الفرشات على طوله

وعرضه وتوزّعن فوقها، السيدات من جهة والفتيات من جهة أخرى.. فإلى جانب أديبة وروزين انضمت وردة ابنة الخال حبيب، وكاترين ابنة الخال باسيل، في حين احتلّ ركن السيدات، بالإضافة إلى بهية وملكة وفريدة، كل من زيزف، زوجة الخال حبيب، ونديمة، زوجة شقيقه باسيل. كانت لطيفة قد أصرّت على أن تنام على سطح الذكور، إلى جانب شقيقها سليم الذي لم تفتأ تعانقه وتقبّله كلما مرت في جواره. ولما كانت جوليا لا تفارق ابنة عمها فقد استأذنت بالمبيت إلى جانبها؛ وما أن سُمح لها بذلك حتى انبرت سلمى تعرب عن رغبتها في الانضمام إلى نسيبتيها «الناجيتين بمعجزة من الموت»، كما رددت بعبارة مسرحية سخرت منها لطيفة ضمناً. والواقع أنها امتعضت بعض الشيء من إلحاح جوليا وسلمى على ملازمتها حتى في ساعة النوم. كان بودّها أن تتمدد إلى جانب سليم، وأن تمسك بيده، وأن تسرح مع أحلامها وذكرياتها، فلا تتكلم، ولا تصغي إلى ثرثرة الطفلتين. وهكذا فعلت في النهاية مع أن جوليا لم تكفّ عن سرد الأحداث المفجعة المروّعة التي عاشتها الأسرة في الآونة الأخيرة، كما أن سلمى لم تكفّ عن التعليق على كل واقعة بعبارات فيها الكثير من المبالغة، سواء في الإفصاح عن الحزن أو عن الخوف. فلطالما رددت: «لو كنت مكانكم لتوقّف قلبي عن الخفقان»، أو «لفقدت وعيي من شدة الهلع»، أو «لتدفقت مني الدموع سيلاً جارفاً...».

وانشغلت لطيفة، لفترة، بتأمل السماء، فاضطرت إلى الاعتراف بينها وبين نفسها بأن سماء حلب، ليلاً، أجمل من سماء ماردين! فالنجوم تتلألأ فيها، تسطع، تتوهج بحدّة مقلقة في روعتها، فكأنها ستغادر البساط الأسود الذي نثرت فوقه، ستنفصل عنه لتهبط بهدوء، كندائف ثلج، فوق رؤوس النيام. واقترنت صورة ندائف الثلج ببرودة فراشها المنعشة؛ برودة محبّبة بعد حرّ النهار القائظ. مدّت رجليها لتصلا إلى جوانب من الفراش لم تنتقل إليها بعد حرارة جسدها، وابتسمت برضى لملمس الشرشف الناصع البياض الذي تمددت فوقه. «لقد عدنا آدميين، قالت ضمناً، والفضل لبيت الخال. اغتسلنا،

وارتدينا ثياباً نظيفة، وأكلنا طبيخاً ساخناً، وها نحن ننام فوق فراش مريح، تحت سماء صافية، رائعة، يضيئها قمر اكتملت دائرته، فغدا كوجه صبية حسناء على حد تعبير العم كريم...».

على ضوئك يا قمر، تفاح حلو حشنا!... لكم غدت ماردين بعيدة مع أنه لم تنقض على مغادرتها سوى أيام معدودة! أيام حفلت بمغامرات وبمستجدات وتطورات قد لا تحصل في شهور بكاملها. ناهيك عن الوجوه الجديدة التي تعرّفت عليها خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن؛ وحسبها منها الوجوه التي التقتها في بيت الخال حبيب الذي غصّ بالأقارب والمعارف والأصدقاء فور ذيوع خبر وصولهم.

كانت أمها قد طرقت بيد ترتجف على الباب الحديدي الواطئ المطلي بدهان أسود؛ طرقت على الباب ونادت بصوت خنقه التأثر والانفعال: «حبيب، باسيل، أنا بهية! جئت مع الأولاد...».

وما أن فُتح الباب حتى قامت الدنيا ولم تقعد. معانقات، قبلات تتبادل، زغاريد تطلق، دموع تذرف، وعبارة واحدة تكرر: «يا ألف حمد لله على السلامة»، تلحقها عبارة: «يا حسرة على ممدوح، سمعنا وصعب علينا أن نصدّق»، ثم استفسارات عن الأحوال: «هل أنتم جائعون؟»، «ماذا تأكلون؟»، «ماذا تشربون؟»، إلى أن ارتفع صوت بهية يسأل: «أين سليم؟». «سوف نرسل من يعلمه بقدومكم، أجاب الخال حبيب؛ إنه في المقهى. مقهى ساحة الجديدة». «في المقهى؟ سأل يوسف مذهولاً؛ ألا يذهب إلى عمله؟... أليس لديه عمل؟». ابتسم الخال وأجاب: «إنه يبحث، يسعى، ولكن الأيام صعبة». «يبحث عن ماذا؟ عاد يوسف يسأل؛ لقد جاء إلى حلب ليقيم فيها تجارة. فلماذا لم يشرع بتنفيذ مشروعه؟». «يتاجر بماذا، أجاب الخال؛ كل شيء مفقود يا حبيبي... كبار المحتكرين وحدهم يتاجرون في هذه الأيام... وسليم لا يملك لا أموالهم، ولا علاقاتهم ووساطاتهم، ولا قسوة قلوبهم. فهؤلاء الأوغاد يثرون على حساب إفقار الناس وتجويعهم».

وتذكرت لطيفة كيف ضَرب يوسف كفّاً بكفّ لدى سماعه شروح الخال حبيب، وكيف استدار نحو أديبة وقال لها بصوت مسموع، وهو يهزّ برأسه تعبيراً عن سخطه وأسفه: «في المقهى!... لقد غادرَنا سليم في هذه الأيام الحالكة ليداوم على المقاهي!». وتذكرت الطفلة أيضاً كيف أنها لامت شقيقها على هذا التعليق المهين بحق سليم، وكيف أنها غفرت له حين شاهدته يعانقه بحرارة لمّا حضر، ثم يبكي على صدره وهو يأتي بذكر ممدوح وعائلته.

شدّت على يد سليم على نحو تلقائي فانحنى عليها شقيقها، الذي كان جالساً في فراشه يتبادل أطراف الحديث مع عميّه، وسألها مداعباً: «لماذا تقبضين على يدي؟ هل تخشين رحيلي؟». «لن يرحل أحد بعد الآن، أجابت بثقة وتصميم؛ لن نفترق عن بعضنا مهما حصل». وأضافت بعد هنيهة، ولكن بنبرة حزينة هذه المرة: «ما عدت أحتمل الفراق... ما عدت أقوى عليه».

-28-

«شلومِك؟»: ما فتئت جوليا تكرّر هذه الكلمة وهي تضحك، ساخرة من لهجة أهل حلب وطريقة نطقهم. استاءت منها لطيفة التي خشيت أن يسمعها أحد من أهل الدار فيغتاظ، وغيرة على والدتها التي تبقى حلبية وإن تزوجت وأنجبت في ماردين. وعندما عادت جوليا تردد، للمرة العاشرة أو العشرين، «شلومِك؟» أجابتها بحدّة: «وهل عبارة «أشون أنتِ؟» أفضل؛ إنها تضحِك ابنة خالي سلمى تماماً كما تضحكك أنت كلمة «شلومِك؟» هذه...».

لزمت جوليا الصمت لفترة وقد امتعضت من توبيخ ابنة عمها التي من عادتها أن تؤيدها في كل ما تفعل. ولكن سرعان ما غلبت عليها الرغبة في الكلام فعادت تقول:

- في ماردين ما كنا نسمع إلا عن السَّوقيات؛ أما حديث أهل حلب فلا يدور إلا عن السَّفر برلك. فما قصة هذا السفر؟ وإلى أين يؤدي؟
- لا يؤدي إلى أي مكان، أجابت لطيفة بتعالٍ؛ فهو لا يعني السَّفر كما نفهمه.
- عجيب أمر أهل حلب! لغتهم لا تُفهم مع أنها عربية... فماذا يقصدون بالسفر ما دام لا يعني سفراً؟...
- يقصدون الحرب... أجل، الحرب.
- وأية حرب؟
- الحرب التي نعيش!
- وهل نحن نعيش حرباً!... هل رأيت جيوشاً تتقاتل؟... أنا لم أشاهدها؛ ما شاهدته، بالمقابل، أبرياء يُهانون، يُضربون، يُعذّبون، يُقتلون...

- الحرب دائرة، شئت أم أبيتِ؛ هذا ما أكدّه سليم بالأمس. كان يتكلم مع يوسف، ويشرح له الأسباب التي حالت دون مباشرته بتنفيذ المشروع التجاري الذي من أجله جاء إلى حلب. لقد سمعته يقول، بالحرف الواحد: «منذ أن أعلن السفر برلك والسلطة تصادر كل ما يمكن الاتجار به، من حديد، إلى خيوط، إلى نسيج، إلى صوف، إلى مواد غذائية، إلى جلود، إلى عطور... تصادرها لصالح الجيش والمجهود الحربي». الحرب الحالية اسمها سفر برلك إذاً؛ هذا ما استخلصته من كلام سليم.

وتابعت لطيفة تقول، بغية تبديد شكوك ابنة عمها التي لم تبدُ مقتنعة تماماً بشرحها:

- ألم نشاهد عسكراً في المحطة؟ عسكر قال عنهم والدك إنهم ألمان أو نمساويون. فلماذا قدِموا إلى حلب في رأيك؟ للسياحة؟ للاستجمام؟... لقد جاؤوا إليها بسبب الحرب، بسبب سفر برلك هذا!

وفوجئت الطفلتان بدخول سلمى عليهما؛ كانت صغرى بنات الخال حبيب تردد بلهجة باكية وهي تمد يدها في حركة استجداء: «سفر برلك يا مدام! خبز ما في يا مدام!».

- ماذا دهاك، صاحت لطيفة وهي تسعى إلى كتم ضحكتها؛ من أين خرجت بهذه النغمة؟

- سمعتكِ تتكلمين عن سفر برلك، أجابت سلمى، فتذكرت الشحاذ الأرمني العجوز الذي بقي على فترة يطرق بابنا ظهر كل يوم؛ وبمجرد ما نفتح له كان يبادر إلى التنغم بهاتين الجملتين.

وعادت سلمى تردد: «سفر برلك يا مدام! خبز ما في يا مدام!» وهي تؤدي حركات هزلية. نهرتها لطيفة قائلة:

- لماذا تسخرين من هذا المسكين؟... لو شاهدت مثلنا قوافل الأرمن المساقين إلى الموت لما طاوعك قلبك بالضحك عليه... ربما كان هذا الشحاذ ربّ أسرة ففقدها؛ ربما كان يملك ثروة فنهبت؛ ربما...

فقاطعتها سلمى محتجّة:

- ربما، ربما؛ وما دخلي أنا بقصة حياته؟ ثم ألا يحق لنا أن نضحك قليلاً؟ فالحياة هنا ليست أفضل بكثير مما هي عليه في ماردين! نحن، أيضاً، نعاني هنا من الخوف، ومن المرض، ومن التقنين، بل وفي كثير من الأحيان من البرد والجوع. ما عاد الناس، في بعض الأحيان، يتجرؤون على حمل عجينهم إلى الفرن خوفاً من أن يُسرق منهم! فقبل أسبوعين حصل شجار عنيف في ساحة باب الفَرَج بسبب بضعة أكياس من القمح؛ وكانت النتيجة أن قُتل شخص وجرح خمسة آخرون!

كانت سلمى محقّة في ما تقول. فالوضع المعيشي في حلب كان قد تردّى على نحو خطير. فحتى الخبز، وهو المادة الغذائية الأساسية، غدا سلعة نادرة لا يحصل عليها عامة الناس. فسعر رطل الطحين ارتفع إلى ست مجيديات، أي إلى أكثر من ليرة عثملية، والويلُ ثم الويل للأُسر التي لم تدّخر، سلفاً، حاجتها من القمح! ولم يكن مردّ هذه الفاقة الغذائية إلى مصادرات السلطة التعسفية، ولا إلى احتكارات كبار التجار الإجرامية فحسب، بل أيضاً إلى التزايد المتسارع في تعداد سكان حلب. فإليها زحفت طوابير اللاجئين من سريان، إلى أشوريين، إلى كلدان؛ وفيها أقامت لجنة الاتحاد والترقي مركز استقبال قوافل «المهجَّرين» الأرمن، أي البضعة آلاف المتبقين من أرمن ولايات الأناضول الشرقية وبقية أرجاء الإمبراطورية ممن نجوا من الموت بمعجزة؛ وعن طريقها كانت تمرّ الجيوش العثمانية والألمانية والنمساوية، باعتبارها عقدة مواصلات هامة، ومحطة رئيسية على طريق الخط الحديدي الذي يصل بغداد باسطنبول. وإلى جميع هؤلاء يضاف ألوف من الأرمن الأثرياء، الذين نجوا بجلدهم بفضل ما دفعوه من رشوات لجلّاديهم أو محتجزيهم، والذين التجؤوا إلى حلب ليقيموا بين أبناء طائفتهم. ذلك أن الأرمن، الذين كانوا سبقوهم إلى القدوم إلى حلب والذين مضى أكثر من عشرة أعوام على إقامتهم فيها قبل أن تعلن الحرب، أُعفوا من التهجير. وقد تضخّم عدد هؤلاء

«المقيمين» بشكل ملحوظ بعد أن انخرطت في صفوفهم الأفواج المتلاحقة من الوافدين، أي من المساقين الذين أفلتوا من قبضة حرّاسهم.

لم تكن الجهات المسؤولة في حلب، وعلى رأسها عبد الأحد نوري، المسؤول عن شعبة المهجّرين، بغافلة عن هذه الظاهرة. ولئن غضّت النظر عنها فلاعتبارات نفعية. فوجود هؤلاء اللاجئين شكّل مصدر ارتزاق جديد لعناصر الشرطة والمسؤولين الحكوميين. ذلك أن ما من حملة تفتيش في بيوت الأرمن إلا وكانت تعود عليهم بالفائدة: فقد كانوا يتقاضون رشوات كبيرة لقاء صمتهم عن ذلك الوجود غير المشروع.

لم تكن المداهمات تقتصر في الواقع على بيوت الأرمن؛ فقد كانت عناصر الشرطة تستبيح مساكن الحلبيين قاطبة، بحثاً عن الفارّين من الجندية. فشباب حلب، على مختلف طوائفهم، كانوا يسعون، بشتى الوسائل، إلى التهرب من التجنيد. فشروط الحياة العسكرية كانت لا تحتمل، ونهاية المجندين كانت وخيمة في غالب الأحيان، والحرب التي يراد زجّهم في أتونها ما كانت تخصّهم من قريب أو بعيد. فالناس، في غالبيتهم، كانوا يجهلون، يومذاك، مَن يحارب مَن، ولماذا جرى الإعلان عن سفر برلك النحس ذاك. وإزاء تفاقم ظاهرة التهرب من التجنيد لجأت السلطات إلى تشكيل دوريات خاصة، تطوف في الشوارع، وتلقي القبض على كل من تعتبره صالحاً للخدمة، فتسوقه، مقيّداً بالحبال، إلى مكتب التجييش؛ اللهم إلا إذا استطاع المسكين أن يفتدي نفسه ببقشيش يسديه إلى رئيس الدورية... وقد راجت أغانٍ شعبية حول تلك الدوريات التي كان الحلبيون قد ابتكروا ألقاباً لرؤسائها، منها «الورّاق» ومنها «الغراب الأسود» الذي تقول بصدده واحدة من تلك الأغاني:

«افتكرناه جاي من اسطنبول
طلع جاي من المنزول»[1]

١- المنزول اسم حي المواخير في حلب.

وقد أدّى تردي الشروط الصحية إلى انتشار الأوبئة، مِن جرب إلى تيفوس إلى كوليرا... وإذ عجزت المستشفيات والمستوصفات عن استقبال أرتال المرضى، لم يكن يندر أن يحتضر المصابون في الشوارع العامة، فتتولى عربات البلدية جمع جثثهم ودفنها في مقابر جماعية.

رغم ذلك بقت للحياة متعها الصغيرة، ولاسيما عندما كان يقيِّض لأفراد الأسرة الواحدة أن يجتمعوا بعد طول فراق. لذلك تعالت أصداء الضحك مراراً من دار الخال حبيب، في أواخر صيف ١٩١٥ المأساوي ذاك، وانعقدت فيها سهرات حلوة سواء في باحتها، أو على سطحها المتاخم لسطح دار الخال باسيل، الذي كان يستقبل نصيبه من الزوار متى فاض رديفه بهم... فبالإضافة إلى عائلات مسعود الثلاث، التي استضافها الخالان ريثما تتدبر أمورها، كانت أسرة الخالة وديعة، بأفرادها الستة، تداوم هي الأخرى على الدار، وإن انفردت بمسكن خاص في حارة البرغل. فجرجس رشّو، زوج الخالة وديعة، كان سباقاً إلى مغادرة ماردين عندما شرعت الأوضاع الأمنية تتدهور فيها. «خشي على ليراته الذهبية فأطلق ساقيه للريح»، كان يقول العم روفائيل. «بل خشي أيضاً على زوجته وأولاده الأربعة»، كانت تضيف بهية التي تعتبر أن من واجبها أن تدافع عن زوج شقيقتها وإن لم تكن تحمل له وداً كبيراً في قلبها. فجرجس رشو لم يكن بشعاً فحسب، بل صعب الطباع أيضاً، مستبداً، سريع الغضب، غيوراً، متطلباً، لا يكفّ عن توجيه الانتقادات. «كيف لا يكون عكر المزاج، كانت ملكة تتساءل بسخرية، وقد بلاه المولى بهذا الشكل القبيح؟». فقد كان قصيراً، هزيلاً، شديد السمرة، جاحظ العينين، ضخم الأنف، أهدل الشفتين. غير أنه كان، بالمقابل، مقداماً في التجارة، بارعاً فيها، وعلى قدر كبير من الحنكة والدهاء. بعكس زوجته وديعة التي إن تكن مُنحت جمال الشكل فقد تميزت، للأسف، ببلادة العقل. بلادة أورثتها لأبنائها الثلاثة، عبود وإسكندر وداود. وحدها مريم، صغرى أولاد جرجس رشو، كانت ذات عقل متيقظ وشخصية قوية. ومع أنها كانت لا تزال

في السادسة عشرة فقد كان والدها يستشيرها قبل أن يحسم قراره بصدد القضايا العائلية الشائكة، وحتى أحياناً بصدد أمور تتعلق بتجارته وإدارة أمواله... ولكم سارر عديله الراحل، زكريا مسعود، قائلاً: «يا ليتها وُلِدتْ صبياً!... كنت سأعهد إليها بزمام أعمالي وأموت مطمئناً على ديمومة ثروتي... ثروة سوف يبددها، حتما، الأغبياء الثلاثة الذين رزقتني بهم وديعة». وكان زكريا مسعود يعاتبه على ازدرائه بأبنائه ويلحّ على شهامتهم وطيبة قلبهم، وكان جواب جرجس رشو: «إن طيبة قلبهم تزيد الطين بلّة؛ فهي تجعل منهم لقمة سائغة للمحتالين والنصّابين».

ولئن جار جرجس رشو في حكمه على أبنائه فقد كان، رغم ذلك، شديد التعلّق بهم، مستعداً لأن يفتديهم بماله، وكم بالأحرى بحياته التي تبقى دون ثروته أهمية في نظره... وقد افتداهم فعلاً بمئة وخمسين ليرة عثملية ذهبية، دفعها عداً ونقداً، ليعفيهم من الجندية. وما فتئ «يفتديهم»، يومياً، بالمجيديات والليرات التي يخرجها من مخابئها مرغَماً، ليحضِر من السوق ما يتمنّونه من مآكل. ما يتمناه هو الآخر، في الحقيقة... ذلك أن بطنه هي نقطة ضعفه. لذلك بقيت زوجته تعدّ الأطباق الشهية رغم الارتفاع الجنوني في أسعار المواد الغذائية.

وبقدر ما كان جرجس رشو حريصاً على التوفير، كانت زوجته، وديعة، سخية ومضيافة. وكانت تنجح في التغلب على بخله بأساليبها الخاصة التي بقيت لغزاً بالنسبة إلى الآخرين. فنادراً ما كانت تدخل إلى دار شقيقها حبيب، أو دار باسيل، وهي خاوية اليدين. وغداة وصول عائلة مسعود قدِمت في عربة حنطور حاملة طنجرة ضخمة امتلأت حتى الشفّة بالكبة هميس، وسلة كبيرة احتوت على خبز وجبن وفاكهة. وقد زغرد الوافدون للكبة «التي عبقت برائحة ماردين»، على حد قول فريدة، و«التي تنسي هموم الدنيا» على حد زعم يوسف. ولمّا كان سليم متغيباً عن الدار ساعة وصول الخالة فقد حرصت هذه الأخيرة على أن تحفظ له حصتّه لأنها قد وعدته بها. «ألم تعده

بشيء آخر؟»، تساءلت ملكة وهي ترمق بهية بنظرة ماكرة. ولم تجبها هذه الأخيرة وإن ابتسمت بالرغم منها. فمع أن وديعة لم تجهر يوماً برغبتها في أن يعقد سليم على وحيدتها مريم، ومع أنها لم تصارح قط شقيقتها بهذه الأمنية، فإن أمرها كان افتضح لدى أسرة مسعود. وكثيراً ما كان العم روفائيل يمازح سليم قائلاً: «تزوج من ابنة خالتك واطوِ صفحة همومك المادية... تريد أن تتاجر؟ حسناً! فهذه أفضل صفقة يمكن أن تقدم عليها...». وكان جواب سليم واحداً لا يتغير: «إن مريم شديدة السمرة؛ ولن أتزوج إلا من فتاة بيضاء، بعينين خضراوين وخدّين مورّدين». جواب كان ابن عمه بهجت يسارع إلى التعقيب عليه قائلاً: «احسب حسابي إن كانت لها شقيقة تتمتع بالمواصفات عينها؛ فنفسي، أنا الآخر، في صبية بيضاء البشرة كالحليب!».

-29-

لم تستوعب لطيفة ضخامة حجم حلب وتسلّم بأنها أكبر من ماردين بما لا يقارن إلا عندما زارت المقبرة القائمة على مرمى حجر من دار الخال حبيب في بوابة الخل. سلمى هي التي قادتها إليها مع جوليا، زاعمة أن من عادة أطفال الحي أن يجتمعوا في هذا المكان الرحب ليمارسوا ألعابهم. «لن نتوغل داخلها، قالت، بل سنبقى على الأطراف». ولم يكن ثمة حاجة، بالفعل، للتوغل داخلها كيما تتضح شساعة مساحتها. فقد كانت القبور، بشواهدها الحجرية، تمتد إلى ما لا نهاية...

«هل الذين دفنوا هنا هم، جميعهم، من أهل حلب؟»، سألت لطيفة التي أهابها المشهد. «بكل تأكيد!»، أجابت سلمى مفاخرة، كما لو أن كل شاهدة قبر نصب يخلّد ذكرى موقعة مجيدة أو انتصاراً حاسماً... «إن الراقدين هنا حلبيون أباً عن جد»، أضافت وهي تشير بحركة واسعة من ذراعها إلى صفوف الأضرحة. جوليا، التي كانت تستهويها مشاكسة سلمى، تدخلت لتقول بنبرة تعمدتها ساخرة: «لا عجب إن كان الحلبيون أباً عن جد يموتون أفواجاً؛ فمناخ مدينتهم غير صحي على الإطلاق!». انتفضت سلمى وأجابت بانفعال وحدّة: «غير صحيّ؟! من أين خرجت بهذه الفكرة؟... إن الغرباء يقصدون مدينتنا كي ينعموا بمناخها...». ضحكت جوليا باستهزاء وهي تقول: «وبماذا ينعمون؟ بجوها الخانق؟ بقيظها الشديد؟ بغبارها الكثيف؟... فأين مناخ حلب من مناخ ماردين؟ إن مناخنا، نحن، هو الصحّي...». «ما دامت حلب لا تعجبك عودي إلى ماردين!»، ردّت سلمى بلهجة متعالية. وإزاء النظرة المعاتبة التي رمقتها بها لطيفة، سارعت تضيف، محاولة تبرير ردّة فعلها: «ماذا جنينا من وراء كل هؤلاء الغرباء الذين اجتاحوا مدينتنا؟...

لقد جلبوا لنا الغلاء، والأوبئة، ووجع الرأس... وفوق ذلك كله يعاملوننا من عليائهم، وكأننا نحن أهل القرى وهم أهل المدن».

- ماردين قرية؟! هل تقصدين أن ماردين قرية؟ صاحت جوليا التي احمرّ خداها وجحظت عيناها لشدة غضبها وانفعالها.

كانت الملاسنة ستتحول إلى شجار حاد، بل ربما إلى شدّ للشعور وتبادل لكلمات التجريح، لو لم تتدفق إلى المقبرة لحظتها مجموعة من الفتيات سرعان ما اتضح أنهن صديقات سلمى ورفيقات لعبها. فقد نادت عليهن للحال وسارعت تقدم لهن «الضيفتين العزيزتين القادمتين من مدينة كبيرة تدعى ماردين». وانعقدت حلقات اللعب على تخوم المقبرة الفسيحة التي لم يقيّض للطيفة، طول فترة إقامتها في دار الخال حبيب، أن تتجاوز الصف العاشر من قبورها. فالصبيان وحدهم كانوا يجازفون بتخطي تلك الحدود؛ كانوا يذهبون حتى أواخر المقبرة ويعودون بقصص يقفّ لها شعر الرأس. يوماً يسمعون صراخاً ونحيباً صادرَين من تحت التراب، ويوماً آخر يشاهدون ميتاً جلس على ضريحه يقرأ ما كُتب على شاهدته. أمّا كيف عرفوا أنه ميّت فالأمر في منتهى البساطة: كان ملفّحاً بكفن أبيض!...

لو طالت إقامة أسرتها في دار الخال الحبيب فلربما تجرأت الطفلة على الغور في مجهول المقبرة. ولكن قبل أن ينقضي أسبوعان على وصولها إلى حلب كانت عائلة مسعود تنتقل إلى حي الصليبة حيث استأجرت داراً مؤلفة من بضع غرف. «نتدبر أمرنا فيها، ما فتئ يردّد العم رزق الله؛ ريثما يأخذ كل واحد منا دربه؛ نحن نتوجه إلى إسكندرية مصر، وروفائيل وعائلته إلى بيروت». «ولمَ الإلحاح على الرحيل، كان يجيبه سليم؛ لمَ تتشتت الأسرة ويمسي كل فرع من فروعها في بلد؟ أرسلوا وراء أنيس واستقروا في حلب بدلاً من أن تذهبوا إليه في مصر». وكانت روزين تؤيد سليم وتعاضده إذ جلّ ما كانت تخشاه هو أن يرحل حنّا مع أسرته، فتفقده على نحو نهائي. صحيح أن

والدها لا يزال يتدارس، هو الآخر، فكرة الاستقرار في بيروت؛ لكن بيروت تبقى قريبة من حلب، لا تفصلها عنها بحار وبواخر!...

بيد أن مشروع الاستقرار في الإسكندرية ظل يمارس جاذبيته على رزق الله مع أنه كان يعني الانسلاخ عن باقي أفراد أسرته. فقد كان يريد الابتعاد أكثر ما أمكن عن أرض التهجير، والتعذيب، والتنكيل؛ عن أرض المذابح والمجازر؛ أرض لم تخجل من الارتواء من دم ممدوح وأسرته، ومن دم عشرات الآلاف من الأبرياء. فحلب، أشاءت بهية أم أبت، تبقى جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وخاضعة بالتالي للسلطة عينها التي خططت لإبادة شعوب بأكملها ونفذّت خطّتها المريعة بقلب جلمودي لا يتأثر لاستغاثة الأمهات، أو لعويل الأطفال... لم يعتبر رزق الله نفسه يوماً منارة علم أو ذكاء؛ فلا هو شغوف بمطالعة الكتب التاريخية واللاهوتية على غرار المرحوم زكريا الذي كان بحراً في المعرفة؛ ولا هو بناظم قصائد شعرية أسوة بكريم، ليكن الله في عونه؛ ولا هو بالمتحدث اللبق، والمساجل البارع، وصاحب العقل اليقِظ والجواب الحاضر أبداً كشقيقه روفائيل. ولكن لديه من الوعي ما يكفي ليدرك الحقيقة التالية: ما من مجرم حقير، ما من سفّاح متعطش للدماء، كان سيتجرأ على النهب والاغتصاب، وعلى القتل والتعذيب، لو لم تصدر الإيعازات بالسلب والتشريد والإبادة عن أعلى مستويات السلطة. فما الشتوات، والميليشيات على أنواعها، والعصابات على مختلف هوّياتها، وعناصر الشرطة من أدنى مراتبها إلى أعلاها، سوى أدوات تنفيذية لإرادة عليا واحدة يمتد حقل نفوذها من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها! لا شك أن الأوضاع في حلب تبقى أكثر رحمة نسبياً بالمقارنة مع جحيم الولايات الشرقية؛ بيد أنها قد تنقلب رأساً على عقب بين عشية وضحاها، فتصبح ماردين وديار بكر، نصيبين وسعرت، بدليس وويرانشهر، جنّة بالمقارنة مع حلب! فما على الذي يملك ذرة من العقل والحكمة إلا أن يبارح الإمبراطورية العتيدة!... لقد اختار بعض من معارفه الاغتراب إلى العالم الجديد؛ فهنالك مَن قصد

التشيلي، وهنالك من توجه إلى الولايات المتحدة، إلى نيويورك بالذات. لكنه ارتهب من شساعة الهوة التي تفصل عالمه المألوف عن العالم الجديد. لذلك فضّل الحل المصري، لا سيما أن أنيس قد استقر نهائياً في الإسكندرية. فآخِر الأخبار الواردة عنه مشجعة تماماً في الحقيقة؛ فقد أفادت بتملّكه مخزناً وبمباشرته العمل في حقل تجارة الأقمشة على أنواعها. ناهيك عن أن أهل مصر يتكلمون بالعربية؛ يعني يفهم عليهم ويفهمون عليه!

تبقى مسألة الافتراق عن روفائيل، عن عائلته وعائلة زكريا! يشعر، في بعض الأحيان، أن قلبه سوف ينفجر من شدة الحزن. فلماذا، لماذا اسودت الدنيا على ذلك النحو؟ لماذا تعاقبت المآسي فغدت تثقل على صدره كحجر جثّم فوقه؟ لقد ودّع زكريا مرغماً حين واراه التراب؛ وتخلى عن كريم، المُقعد المسكين، وقلبه يقطر دماً؟ فهل حُكم عليه، بغية إنقاذ أسرته الصغيرة، بأن يفارق من تبقى من له من أفراد أسرته الكبرى؟ لكم هو صعب أن يكون المرء ربّ عائلة! فقد تضطره ظروفه إلى اتخاذ قرارات، إلى الإقدام على خيارات يرفضها قلبه ووجدانه. ولكن ماذا عساه يفعل؟... سوف يرحل إلى الإسكندرية. فالحكمة تقضي أن يستقر في مصر، بعيداً عن بني عثمان وعن طوابيرهم من سفاكي الدماء.

ومن يدري؟ فقد يحالفه الحظ في الإسكندرية؛ قد تزدهر تجارته وتتوسع فيرسل في طلب روفائيل وأولاد زكريا؛ بل قد تتحسن أحواله المادية إلى حد يغدو معه قادراً على تأمين سفر كريم إلى مصر... شرط أن تنتهي الحرب، وشرط أن يظل كريم على قيد الحياة.

«لعنة الله على تلك الرصاصة، كان يردد رزق الله عندما يبلغ هذا الحد من تفكيره؛ لعنة الله عليها وعلى مطلِقها. فهل ضاقت الدنيا بهما حتى جعلا من ظهر كريم هدفهما؟!».

-30-

لأن فرص التجارة الصغيرة لم تكن متوفرة فقد توجَّب على سليم ويوسف البحث عن عمل مأجور. وفي حين بقي سليم يتردد تارة في قبول عمل عُرض عليه، ويواجه تارة أخرى رفضاً في الحصول على عمل رغب فيه، وفِّق يوسف، وبسرعة مذهلة، بمنصب كاتب في أشهر فنادق حلب وأحدثها، «فندق بارون» الذائع الصيت!... «إنها حقاً معجزة!»، قال الخال باسيل عندما بلغه النبأ؛ «إن العناية الإلهية هي التي أخذت بيد يوسف»، زاد الخال حبيب؛ «بل خليل نهبية هو الذي أخذ بيده، صحّح العم روفائيل؛ فلولاه لما أسند هذا العمل إلى يوسف رغم كل ما يتمتع به من علم وصفات حسنة!». والواقع أن خليل نهبية، وهو من وجهاء الطائفة الأرمنية في ماردين، كان قد استقر في حلب قبل بضع سنوات ووطّد فيها علاقاته مع أعيان طائفته. وكان الشقيقان أونيغ وأرميناغ مظلوميان، اللذان يديران فندق بارون، من بين أصدقائه المقرّبين. وقد أعلماه صدفة بحاجتهما إلى كاتب شاب، نشيط ويقظ، فسارع يرشح لهما ابن صديقه الراحل زكريا مسعود...

رعاية إلهية، أو وساطة خليل نهبية، لا فرق؛ المهم أن يوسف غدا موعوداً بمرتّب ينفق به على أسرته. وقد جاء هذا الدخل في الوقت المناسب، لأن مبلغ المال الذي كان سليم قد حمله معه عندما قدم من ماردين قد تبدد ولم يبق منه إلا النزر اليسير. أين أنفقه سليم وكيف؟ سؤال ظل يلازم يوسف وإن لم يتجرأ على طرحه على شقيقه. فكيف يستفسره عما حلّ بتلك الذخيرة وقد أخفق، هو نفسه، في صيانة مال الأسرة؟ صحيح أنه قد سُرق منه أو أُرغِم، بالأحرى، على تسليمه تحت التهديد، ولكن النتيجة تبقى واحدة.

سُرّ يوسف بعمله الجديد فور مباشرته به. فشروطه كانت جيدة للغاية،

إذ منحه الشقيقان مظلوميان رتبة محاسب مساعد وعاملاه بلطف ومودة؛ كما أن «انضمامه إلى أسرة فندق بارون»، والعبارة له، قد رفع من شأنه في نظر أسرته، وخاليه، ومعارفه... فاجتياز عتبة هذا الأوتيل كان وقفاً على النخبة من كبار المسؤولين، من أصحاب الرتب العسكرية الرفيعة إلى مالكي الثروات الطائلة... خيرة القوم كانت تؤمّه، بل ما من شخصية عظيمة الشأن مرّت بحلب إلا وحلّت ضيفة عليه. كان رواده، في غالبيتهم، من الأجانب؛ وقد تحوّل باره الأنيق، الحافل بالمشروبات الروحية، إلى نقطة التقاء الضباط النمساويين والألمان.

تطوّع يوسف، نزولاً عند إلحاح ابنة عمه روزين، لإعطاء وصف دقيق للفندق. أطال الكلام عن بنائه الحجري المهيب؛ عن الشرفة الواسعة التي تتقدمه والتي يتأدى إليها درج عريض تتسع كل درجة من درجاته لعشرة أشخاص على الأقل؛ عن صالوناته المؤثثة على الطراز الغربي؛ عن موائده الحافلة بضروب من الأطعمة لم يسبق له أن سمع بها؛ وعن باره، طبعاً، الذي لا يمت بصلة إلى خمّارات ماردين وحاناتها. «كل شيء، فيه راقٍ؛ نظيف، أنيق وراقٍ». كلمات حين نطق بها أفعمته غبطة بالانتماء إلى هذا العالم النظيف الأنيق الراقي!

لكن حديث يوسف تجاوز مع الأيام الوصف المادي للفندق ليدور عن نزلائه والأخبار التي كانوا يتناقلونها؛ وقد غدا نمط حديثه الجديد موضع اهتمام رجال الأسرة، فباتوا ينتظرون عودته كل مساء ليستفسروه بشغف عما رأى أو سمع. ونادراً ما كان يخيّب آمالهم، إذ ما من نهار كان ينقضي من دون حصيلة من الأخبار المثيرة والتطورات الخطيرة.

وبفضل يوسف بقيت أسرة مسعود على اطلاع على بعض ما يحصل في ماردين وفي بقية أنحاء الولايات الشرقية. وما يحصل كان مفجعاً على الدوام، اللهم إلا عندما كان الخبر يتعلّق بأسقف السريان الكاثوليك تبوني، وبنضاله الدؤوب في سبيل إنقاذ الضحايا البريئة. فعلى الرغم من ممانعة

الثلاثي الرجيم المتحكم برقاب أهل ماردين، بدر الدين وممدوح وتوفيق، بقي الأسقف يساعد الهاربين من أيدي الجلادين، بمدّهم بالمال وبتأمين أسرٍ لاستقبالهم، كما ظلّ يدفع فدية تلو الأخرى لعتق من اُسترقّ من فتيات وغلمان. ما كان يميز بين سرياني وأرمني؛ فقد أوصاه صديقه الأسقف مالويان بأفراد رعيته، فوفى بالعهد الذي قطعه له برعايتهم وحمايتهم. ولئن تمكّن الأسقف من النهوض بهذا العمل المشرّف، والمحفوف بالمخاطر في آن معاً، فإنما أيضاً بفضل الدعم الذي كان يحظى به من قبل مسؤولين رفيعي الشأن، سواء في حلب ودمشق أو في اسطنبول، كما بفضل صداقاته المتينة داخل ماردين أيضاً. فعمدة المدينة، حيدر شلبي، الذي سُجلت له مواقف مشرّفة في الدفاع عن موظفيه المسيحيين ضد اعتداءات عناصر الميليشيات، كان دعامة الأسقف الأولى على الصعيد المحلّي. وقد دخل هذا العمدة الشهم في نزاع مكشوف مع بدر الدين وممدوح بسبب تعاضده مع الأسقف ودفاعه عنه. وبهذه الشهامة أيضاً تميّز قائد الشرطة، حسن تحسين بك، الذي مدّ يد المساعدة إلى الأسقف في أكثر من ظرف حرج.

عندما كان يوسف يأتي بخبر جديد عن مآثر الأسقف الشجاع، عندما كان ينقل أسماء الذين أفلح رجل الدين في افتدائهم وعتقهم، كانت موجة من التفاؤل تجتاح دار حي الصليبة؛ الدار الوضيعة التي لا تحتمل المقارنة مع «القصر» الذي كان يونان مسعود قد شيّده في ماردين. لكن أخبار يوسف كانت، مع الأسف، مفجعة في معظم الأحيان. ففي أواخر صيف عام ١٩١٥ ذاك شهدت ماردين، وللمرة الأولى، مزاداً علنياً لبيع عدد من النساء... للمرة الأولى رأى أهالي ماردين، بأم أعينهم، واحداً من تلك المزادات المخزية التي كانوا سمعوا بها مجرد سماع حتى ذلك التاريخ... وحين نَقل يوسف هذا الخبر لذويه تأوّه من تأوّه، وذرف الدمع من ذرف. ولكن حين أوضح أن أرملة يوسف سعدو نانو قد افتدت العشرات من اللاتي عرضن للبيع دوّى التصفيق وارتفعت الأصوات تحيي تلك المحسنة العظيمة!

بعد المزاد على النساء شهدت ماردين مزاداً على الغلمان: عُرض منهم للبيع ستمئة في دفعة أولى، ثم مئتان في دفعة ثانية... «ولمّا كان العرض أكبر من الطلب، أوضح يوسف، نجا فريق من أولئك الغلمان من العبودية... لم يجدوا من يشتريهم حتى بأبخس الأثمان!...».

«ولكن يا حسرة، إلى أين يذهب هؤلاء الصبية ومن الذي سيرعاهم وينفق عليهم؟»، تساءلت فريدة حين جاء يوسف بذكر تلك الواقعة. أما لطيفة، التي كانت تصغي باهتمام بالغ إلى أخبار ماردين، فقد ذهب بها تفكيرها تلقائياً إلى زكريا، ابن ممدوح. ذلك أن صوتاً في داخلها كان يقول لها إن الطفل لا يزال على قيد الحياة. دنت من عمها روفائيل وسألته بصوت يكاد لا يكون مسموعاً: «هؤلاء الفتيان الذي تحدث يوسف عنهم، أين أهلهم؟». ربت العم على رأس الطفلة وهو يجيب: «لقد قُتلوا على الأرجح يا حبيبتي...». فعادت تستفسره: «يعني الذين قَتلوا الأهل لم يقتلوا الأولاد... فالأولاد لا يُقتلون في العادة، أليس كذلك؟... ألم يقل يوسف إن عدد الأطفال الذين عرضوا للبيع قد قارب الألف؟». «أجل!»، أجاب العم الذي لم يدرك، للوهلة الأولى، ما المقصود بهذه الأسئلة. ولكن أمام النظرة المستغيثة التي رمقته بها الطفلة لمعت الفكرة في ذهنه. ضمّها عندها إلى صدره وهمس في أذنها: «أنت تفكرين بزكريا بلا أدنى ريب... فيا ليته نجا... يا ليت رحمه قاتل والديه!». تفوه العم بهذه الكلمات وهو يردد في قرارة نفسه: «بل يا ليته قُتل قبل والديه؛ فالموت أرحم من مصير العبودية».

بعد بضعة أيام جاء يوسف بخبر انقبضت لسماعه أفئدة سائر أفراد الأسرة: خبر انتشار الكوليرا في ماردين على نحو سريع ومروّع. فالعم كريم كان لا يزال أسير تلك البلدة: أسيرٌ مُقْعد عاجز عن تجنب الوباء، فكم بالأحرى عن مداواة نفسه! فقد رفض مبارحة غرفته: لم يقبل دعوة الشيخ حمدان للإقامة في داره، مما حمل هذا الأخير على تخصيص خادم له، يمرّ عليه يومياً، ليأتيه بالطعام ويؤمّن له ضرورياته. فهل سيواظب ذلك الخادم

على النهوض بمهامه مع تفشي الوباء الخطير؟ هل سيجد العم كريم من يعتني به إذا ما أصابه ذلك الداء الفتاك، أم أنه سيعرف المصير الأسود للمئات، بل للآلاف من الضحايا التي ترمى في الطرقات ثم تكدّس فوق عربات قبل أن تدفن في مقابر جماعية؟... عندما نقل الخبر إلى ذويه سعى يوسف أن يخفف من وقعه قدر المستطاع. قال إن وافداً حديثاً من ماردين أكد له أن الشيخ مصطفى حمدان لا يزال حياً يرزق؛ واستطرد قائلاً أن لا داعي للقلق على العم كريم ما دام الشيخ حمدان بخير: فقد وعد برعايته ولن يخلف وعده ما دام قلبه ينبض... ولكن ما لم يقله، بالمقابل، هو أن حَجْراً صحياً قد ضُرب على بعض أحياء ماردين في محاولة لاحتواء الوباء، وأنه قد حُرّم الدخول إليها والخروج منها. وما لم يقله، أيضاً، هو أن الحجر قد شمل حيّهم بالذات وأن العم كريم قد غدا، بالتالي، معزولاً تماماً عن العالم الخارجي، ومضطراً إلى الاعتماد على نفسه لتأمين حاجياته. اللهم إلا إذا كان الشيخ حمدان استبق قرار الحجر ونجح في إرغامه على مغادرة الدار... وكان يوسف يراهن على حكمة الشيخ ونفاذ بصيرته ليطمئن نفسه؛ ليطمئنها بعض الشيء على الأقل.

غداة نقله خبر انتشار الكوليرا في ماردين جاء يوسف بأنباء مفجعة أخرى عن سعرت، مدينة الكروم وبساتين اللوز والبندق والتين والرمان. سعرت التي جُلّ سكانها من الكلدان واليعاقبة. فإلى فندق بارون كان قد وصل صبيحة ذلك اليوم المدعو منصور عبوش، وهو واحد من أعيان تلك البلدة. وكان منصور متواجداً في ماردين، حيث يقيم اثنان من أشقائه، حين وقعت مجازر سعرت. وقد روى لاونيغ مظلوميان، بحضور يوسف، ما فصّلته له راهبة دومينيكية كانت شاهدة عيان على تلك المجازر التي نجت منها بالأعجوبة.

مجازر سعرت لم تقترفها ميليشيات تدعمها وتعاضدها حثالة البشر، من مجرمين وقطاع طرق وقَتَلة، بل نفذتها كتائب من الجيش العثماني

النظامي بقيادة جودت، والي ڤان. فبعد الهزيمة التي مني بها هذا الوالي الدموي أمام الجيش الروسي، وبعد أن اضطر إلى إخلاء بلدة ڤان، هرب باتجاه الجنوب ودخل سعرت على رأس طابور ناف عدد جنوده على الثمانية آلاف. وبما أن نياته الإجرامية كانت مرسومة سلفاً، فقد أطلق على فرقته اسم «طابور القصابين»... قصابون من نوع خاص لأنهم لا يتعاملون إلا مع اللحم البشري! وبعد أن ذبح من ذبح وفرم من فرم لم يبق على قيد الحياة من بين نصارى بلدة سعرت الإثني عشر ألفاً إلا مَن سُبي من النساء والأولاد، أو بيع في سوق النخاسة، أو تمكن من الهرب بقدرة قادر.

عندما انتهى يوسف من رواية ما سمعه عن منصور عبوش خيّم صمت ثقيل على جلسة الأسرة. صمت قطعته أخيراً روزين لتقول، بانفعال واضح، موّجهة كلامها إلى ابن عمها: «احتفظ لنفسك بمثل هذه الأخبار من الآن فصاعداً؛ لا تحدثنا إلا بما يطمئن النفس ويُفرح القلب. فنحن نريد أن نعيش، أن نعيش!».

-31-

كان سليم متعطشاً هو الآخر إلى الحياة على غرار ابنة عمه روزين. كان ظمآناً إلى متعها، راغباً في الارتواء من منابع لذّاتها، تواقاً إلى سبر أسرارها، بل إلى التعاطي مع محرّماتها. إنه نسيج وحده بين سائر أفراد أسرته. يرى أنه جاء إلى هذه الدنيا لينعم بها ويعتبر كل إكراه ظلماً وغبناً. محب للآخرين هو، عاجز عن إضمار الشر أو إلحاق الأذى بأي كان. غير أنه ضعيف أمام أهوائه، إلى حد إغفال الواجبات وتجاهل العوائق وتخطّي المحظورات... جميل الشكل هو؛ فقد ورث عن أمه عينيها الخضرواين وبشرتها البيضاء، وعن أبيه قامته الرشيقة وتقاطيعه الدقيقة. جميل وموله بالجمال في شتى تجلياته؛ تتخطف روحه إزاء مشهد طبيعي خلاّب، وينتشي طرباً لصوت رخيم، ويدوخ ويذوب أمام الوجه الحسن... يسخر ضمناً من ورع يوسف المفرط، من تزمّته وصرامته، ولكنه يكّن أعظم التقدير لذكائه، وشهامته، وإحساسه بالمسؤولية. يعتب على ممدوح لأنه، برحيله، قد خلّف في قلبه جرحاً لا يلتئم؛ فلولا إصرار شقيقه على النهوض بعمله الوظيفي، في أخطر الظروف وأشدّها قسوة، لكان بقي على قيد الحياة مع زوجته وصغيره... آه من ممدوح! لقد يتّمه بموته! جعل منه بكر إخوته مع ما يترّتب على هذه البكورة من مسؤوليات يتوجب عليه القيام بعبئها. لو طلب منه أن يفتدي بحياته واحداً من أفراد أسرته لما تردّد لحظة واحدة. ولكن لو توجّب عليه أن يقوم بعمل لا يستسيغه، بغية تأمين لقمة عيش هذه الأسرة، لاستهول المهمة وسعى إلى التنصل منها. تلك هي طبيعته وقد تآلف ذووه معها. فقد كان ممدوح يمازحه قائلاً: «من الأسهل على سليم أن يعطيك روحه من أن يأتيك بكأس من الماء». تآلف الجميع مع سجيته ما عدا يوسف؛ ربما لأنه يصر

على أن يكون الناس جميعاً على شاكلته، ويرفض الاعتراف لهم بحق التمايز! وتبقى لطيفة هي الأقرب إليه؛ تفهمه تماماً لأنها تقاسمه رؤيته للحياة. ينظر إليها فيرى نفسه عندما كان لا يزال طفلاً، ولطالما لامته أديبة على تساهله معها، على استجابته لطلباتها وتسامحه مع نزواتها. إنه يضعف أمامها، ولا ريب؛ ولكن ما حيلته إن كانت تعرف كيف تخاطبه، كيف تضرب على الوتر الحساس في قلبه؟

بالأمس، كانت خطواته قد قادته صوب فندق بارون. توقف قبالته وانشغل، للحظات، في تأمل بنائه المربع، وفي تتّبع حركة ذهاب وإياب رجلين بلباس عسكري كانا يتمشيان على شرفته الواسعة، وهما يتبادلان أطراف الحديث. ضابطان أجنبيان، في أغلب الظن، إذ حين نزع أحدهما عمرته عن رأسه تلألأ شعره الأشقر تحت أشعة الشمس. وفيما كان يتساءل هل هذا الضابط ألماني أو نمساوي توقفت عربة حنطور سوداء أمام مدخل الفندق ونزل منها رجل يرتدي بزّة بيضاء ثم امرأة شابة جمع ثوبها ألوان قوس قزح كلها. علِق طرف هذا الثوب بدرجة العربة فانحنى الرجل على الفور يحرره بحركة رشيقة من يده. عقدت المرأة ذراعها بذراع رفيقها وارتقيا معاً سلّم الفندق الحجري. وحين بلغا الشرفة مرّا بجوار الضابطين اللذين حنيا رأسيهما للحال، في تحية مهذّبة. مدّت السيدة لهما يدها وهي تبتسم، ومالت قليلاً إلى اليسار، في حركة غانجة، وكأنها تريد أن تتكئ على مرافقها. وما هي إلا لحظات حتى غاب القادمان داخل بهو الفندق فيما استأنف العسكريان حركتهما المكوكية على شرفته.

مكث سليم متجمداً في مكانه مشدود الأنظار إلى الفندق، متلهفاً لسبر أسرار عالمه السحري؛ عالم يخرج عن مألوفه، عن كل ما اعتاد مشاهدته. وفوجئ بظهور رجلين على الشرفة؛ خادمين في أغلب الظن إذ كانا يحملان طاولة دارا بها يميناً ويساراً قبل أن يختارا لها مكاناً ظليلاً. وبعد أن فرشا فوقها غطاء أبيض غابا للحظات داخل الفندق ثم عادا رافعين صينيتين

معدنيتين عمرتا بزجاجتي خمر وبكؤوس وصحون صغيرة بادرا على الفور إلى توزيعها فوق سطح الطاولة. وفيما كانا ينقلان مقاعد ويتشاوران بصدد ترتيبها خرج إلى الشرفة ثلاثة رجال بصحبة سيدتين. أخذ القادمون الجدد مكانهم من حول الطاولة، فانسحب الخادمان بعد أن صبّا الخمر في الكؤوس. كان الرجال يتكلمون بحمية، وكانت السيدتان تضحكان، والجميع يتجرّعون الخمر على دفعات.

«ليسوا من أهل حلب على ما أعتقد، قال سليم مخاطباً نفسه؛ فأناقة هندامهم، وطلاقة تصرّفهم، وقدرتهم على الإنفاق، أمور ترجّح أصلهم الأجنبي. فأهل حلب يتضوّرون جوعاً في غالبيتهم؛ يبحثون عن كسرة خبز فلا يجدونها؛ وهؤلاء الخمسة يشربون الخمر في أفخر فندق وكأنه ماء استقي من سبيل الحي!».

«ولكن لماذا لا يكونون من أهل حلب؟ عاد سليم يتساءل بينه وبين نفسه؛ فحلب ليست حي الصليبة وبوابة الخل فحسب؛ ليست باب الفرج وباب النصر فقط. إنها مدينة قديمة، عريقة، شاسعة و... غنية! مدينة لن ينال هو من أطايب مائدتها إلا الفتات، مع الأسف. ذلك أن أهلها ينظرون إليه بقدر من الازدراء، باعتباره مارديني الأصل أولاً، وخاوي الجيب ثانياً... وأن يكون من آل مسعود، فأمر لا يقدِّم ولا يؤخر: فمن الذي سمع بأسرته هنا؟ آه، لو حلّ مكان واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة! لو كان الآن متربعاً على تلك الشرفة، يتسامر مع الفاتنتين الراقيتين! هل كانت السماء ستهبط على الأرض لو نعِم سليم مسعود بهذه الصحبة الطيبة؟ هل حكم عليه بأن يكتفي بالمشاهدة، بالفرجة، وهو واقف كشحاذ على مسافة أمتار من الفندق؟ فندق لن يجتاز عتبته يوماً!...».

«ولمَ لا أجتازه؟»، تساءل بصوت كاد يكون مسموعاً؛ أفليس له شقيق داخل هذا الصرح؟ موظف ينعم بالتقدير والاحترام؟ فلماذا لا يذهب إليه بحجة مفاتحته بأمر ملحٍّ؟ لماذا لا يقصده في مكتبه فيلج إلى الفندق من

بابه العريض؟ يغدو من رواده ولو للحظات معدودة؟... وقطعاً لكل تردد أو تخاذل اجتاز ناصية الطريق التي تفصله عن الأوتيل وتسلق بسرعة درجات السلم الحجري. حين غدا على شرفته الفسيحة اختطف النظر إلى حيث انعقدت حلقة متجرّعي الخمر فتجلى له الجمال الصارخ لإحدى السيدتين؛ سمراء في ثوب أبيض، طويلة العنق، مسدلة الشعر. صادف أن تطلعت في اتجاهه فافترّ ثغرها عن ابتسامة غاوية. أو هكذا خيل إليه... اغتبط وارتبك وتبلبل، وبخطوات غير واثقة دلف إلى بهو الفندق. استقبلته شبه ظلمة فصعب عليه أن يميز للحال الوجوه والأشياء من حوله؛ فقد أسدلت ستائر قاتمة على النوافذ جميعها حؤولاً دون وصول أشعة شمس قائظة. استطاع أن يميّز، بعد لحظات، شاباً قابعاً خلف مكتب فتقدّم في اتجاهه. راح الشاب يتفحصه طولاً وعرضاً. وقد حكم عليه، ولا بد، بأنه من العامة، دون رواد الفندق مرتبة، إذ استفسره عن طلبه بتعالٍ مقصود. تلعثم سليم وهو يجيبه بأنه راغب في مقابلة شقيقه يوسف، الكاتب الجديد الذي لم تمض سوى أسابيع على توظيفه. وكان سيضيف أن السيد خليل نهبية، الذي سعى إلى توظيف شقيقه، هو صديق أسرته وصديق أصحاب الفندق، غير أنه لم يُعطَ الفرصة ليرفع من شأن ذاته. فقد دعاه فجأة خادم، لا يدري خرج من أين، لأن يتبعه؛ فانصاع. صعد وراءه سلماً ونزل آخر، اجتاز ممراً، خرج إلى باحة صغيرة تكدست فيها صناديق خشبية وأخرى معدنية، تسلّق درجات سلم آخر إلى أن حطّ، أخيراً في حجرة متوسطة الحجم، احتل يوسف أحد أركانها، يقابله رجل في سن والده انكبّ فوق سجل ضخم يكتب فيه. شُدِه يوسف لدى رؤيته؛ ولكن بدلاً من أن يرحب به، كما كان يتوقع، بدلاً من أن يعرّف به، جاءه مهرولاً والامتعاض واضح على ملامحه. قبض على ذراعه وهمس في أذنه وهو يوجهه نحو الباب: «ماذا جئت تفعل؟... هذا مقر عمل وليس بمقهى!». بيد أنه خفف قليلاً من حدة لهجته عندما أصبحا على السلم: «خير إن شاء الله!، تابع يقول؛ هل حصل مكروه؟ هل الجميع بخير؟». هز سليم رأسه غير

أنه لم ينبس بكلمة. فعاد يوسف يستفسره عن سبب زيارته المباغتة ويوضح له، من جديد، أن المكتب قد وُجِد للعمل لا لاستقبال الضيوف؛ وحين استأذنه بالانصراف بحجة أن مهام عاجلة تنتظره، أطلق سليم تنهدة وقال وهو يربت على كتف شقيقه: «اِذهب إلى عملك يا يوسف... إياك ثم إياك أن تهمله ولو لثانية واحدة!».

لا يدري كيف اهتدى إلى بهو الفندق ومن ثم إلى بابه الخارجي؛ خفض رأسه حين أصبح على الشرفة وتفادى النظر إلى حيث جلس شاربو الخمرة. فخير له أن يشطّب على تلك الفئة من البشر؛ فهو في وادٍ وهي في وادٍ آخر. خيرٌ له أن يتجاهل وجود مثل هذه الفنادق؛ فهي ليست لأمثاله. حتى شقيقه قد تنكر له وأساء استقباله لأنه تجرأ على اجتياز عتبة حُرّمت على من هم في مرتبته. لعنة الله على هذا الزمان الأسود! سليم مسعود، ابن زكريا مسعود، وحفيد يونان مسعود، يُعامَل وكأنه عنزة جرباء!

غير بعيد عن الفندق تقوم حانة أبو عبود التي كثيراً ما تردد عليها منذ قدومه إلى حلب. قصدها وانضم إلى فريق من المدمنين على شرب الكحول حتى في وضح النهار. تجرع كأساً بعد الأخرى، إلى أن نسي الإهانة التي لحقت به؛ ذهب، بعد ذلك، إلى الحي العمومي الكائن غير بعيد عن ساحة باب الفرج وأفرغ فيه ما تبقى في جيبه من نقود. بين الخمارة والماخور أنفق ما يكفي لتأمين مصروف أسرته على مدى أسبوع. بذّر هذا المال وهو خجل من نفسه، ناقم عليها، غير أنه بذّره في النهاية...

-32-

لم يأت سليم، على مدى أيام، بذكر زيارته للفندق؛ تجاهلها كلياً، سواء في حضور يوسف، أو في حضور بقية أفراد الأسرة. لم يعاتب شقيقه على سوء استقباله، لم يعلّق على عجرفة العاملين في الفندق، ولم يتحدث، كذلك، عن الحسناوين اللتين جلستا تشربان الخمرة على الشرفة بصحبة ثلاثة رجال؛ علماً بأن ابنة عمه روزين كانت ستصغي بشغف وفضول لما سيرويه عنهما وستناشده تقديم المزيد من التفاصيل: ماذا كانتا ترتديان؟ كيف صففتا شعرهما؟ هل غطّى رأسيهما وشاح أم قبعة؟ «برنيطة» كما يقول أهل حلب؟... وقد تعمّد يوسف، بدوره، التعتيم على تلك الزيارة. فقد لام نفسه لأنه لم يرحّب بسليم في مقرّ عمله؛ كما لام سليم، في الوقت عينه، لأنه وضعه في موقف حرج. فهو يتهيّب من رئيسه المباشر الخواجا شكري، المعروف بتشدده وصرامته. ويتفادى، بالتالي، في حضوره أن يرفع رأسه عن سجلاته أو أن يبادر إلى الكلام من دون أن يُدعى إليه. فكيف يستقبل شقيقه في مكتبهما الصغير ويهدر وقته معه على مرأى ومسمع من الخواجا شكري؟ لو فعل لما استحق من هذا الأخير سوى الندم؛ بل لجازف بوظيفته وبمرتبه الأسبوعي. فرئيسه ينعم بثقة الشقيقين مظلوميان، ويكفي أن يشتكي منه أمامهما حتى يأخذا قرارهما بتسريحه. حقيقة لا تغيب عن ذهنه لحظة واحدة. فالطلب على العمل أضعاف أضعاف العرض عليه؛ ولو أقيل من وظيفته لتقدم عشرة في اليوم التالي لشغلها... المشكلة مع سليم أنه لا يأخذ الظروف بعين الاعتبار. لم يدرك بعد أن حلب غير ماردين مع أن عهده فيها يُحسب بالأشهر لا بالأيام والأسابيع. ربما لأنه لا يريد أن يدرك، تمسكاً منه

بالامتيازات التي كان يتمتع بها في ماردين ودفاعاً عنها. فقد كان وجيهاً هنالك، في حين غدا نكرة هنا...

عندما كان يوسف يصل إلى هذا الحد في تفكيره كانت تصدر عنه ردة فعل صحيحة وسليمة. فبدلاً من أن ينتحب ويتحسر على المصير الذي آلت إليه أسرته كان يرفع رأسه إلى الأعلى، على نحو تلقائي، ويخاطب نفسه قائلاً: «لا ريب في أننا مغمورون اليوم، بل في عداد النكرات؛ ولكن لن تنقضي سنوات معدودة حتى نغدو من وجهاء هذه المدينة!». فعل إيمان كان ينفرد بتلاوته لأن ما من فرد من أفراد أسرته كان يراهن على مستقبل زاهر في حلب. فالعم رزق الله بقي متمسكاً بمشروع الاستقرار في الإسكندرية، والعم روفائيل غدا يميل أكثر فأكثر إلى فكرة الإقامة في بيروت؛ فالاتصالات التي أجراها مع معارفه من التجار لم تكن مشجّعة على الإطلاق، وقد جاءت تصادق على ما كان قد خلص إليه سليم: إن الاتجار شبه مستحيل في حلب على من لا ينعم بدعم السلطات المحلية ومؤازرتها، أو من لا يملك ثروة طائلة تسمح له برشوة أصحاب الشأن، من أصغرهم إلى أكبرهم.

ذات مساء، وفيما كانت الأسرة مجتمعة في باحة الدار، دخل عليهما الخالان حبيب وباسيل وبصحبتهما أفراد عائلتيهما. ضاقت الباحة، المتواضعة الحجم، بالقادمين وما عادت تتسع لكرسي، ولا حتى لطرّاحة ترمى على أرضها. تأفف سليم وتنّهد ورفع صوته يلعن الساعة التي غادر فيها ماردين ودار جدّه الفسيحة. «غدونا نعيش كالفئران، قال، ونعامل وكأننا فئران». ونظر إلى يوسف وهو يتفوه بعبارته الأخيرة. ولم يدرِ يوسف كيف خرجت الكلمات من فمه حادة، جارحة، غريبة عن مألوف كلامه مع الناس، فكم بالأحرى مع شقيقه الأكبر. فبنبرة متحدية قال: «كن رجلاً فتُعامل كالرجال!»... لزم سليم الصمت للوهلة الأولى؛ كان كمن تلقى ضربة مباغتة على رأسه أفقدته وعيه. غير أنه ما لبث أن استرد كامل رشده، وكامل عنفه أيضاً. صاح في وجه شقيقه وقد جحظت عيناه لشدة انفعاله: «ماذا تقصد

يا كاتب أفندي؟ يا شغيّل الفنادق؟... أتسقط عني صفة الرجولة؟ أتعتبر نفسك الرجل الوحيد في الأسرة؟ هيا، أجبني... لا تدري بماذا تجيب، أليس كذلك؟». «بل سأجيب بما أدري، ردّ يوسف ببرود؛ وما أدري واضح وبسيط: أنا أكدّ وأتعب وأكابد لقاء القليل من المال، وأنت تنفقه من دون حساب!». وإزاء هذا التجريح الذي أصابه في الصميم خرج سليم عن طوره. وثب من مكانه وارتمى على شقيقه وأمسك بعنقه بعنف وقوة وهو يتفوّه بكلمات غير مفهومة. أخذت بهية تولول، وأديبة تلطم على خدّيها، في حين سارع بهجت وحنا إلى تفريق المتعاركَيْن، إلى ردّ سليم عن يوسف بالأحرى، إذ أن هذا الأخير لم يقابِل بالضرب اعتداء شقيقه، بل لم يحاول حتى الدفاع عن نفسه. وتدّخل العمّان لتهدئة سليم الذي كان يستشيط غيظاً، في حين اهتمت كل من ملكة وروزين بترطيب خاطر يوسف.

بعد أن صفت الأجواء نسبياً ارتفع صوت الخال حبيب يستفسر ويعاتب: «ماذا دهاكما، قال، موجهاً كلامه إلى نسيبيه. لمَ هذا الجفاء بينكما؟ أنت يا يوسف، كيف تتطاول بالكلام على شقيقك الأكبر؟ وأنت يا سليم، كيف تطاوعك نفسك بالاعتداء على شقيقك الأصغر؟ لو لم يرغمك بهجت وحنا بالقوة على فك قبضتك عن عنقه لخنقته!... هل تريد أن تفقد يوسف بعد أن فقدتَ ممدوح؟».

«لعنة الله على هذا الزمن الأسود!»، قال سليم قبل أن يستأذن بالانصراف. غادر الدار ولم يعد إليها إلا في ساعة متأخرة من الليل. لم يذهب إلى فراشه، بل جلس على أريكة الباحة وأولع سيجارة. وما أن أخذ نفساً منها حتى فوجئ بقدوم لطيفة. «ألم تنامي بعد؟»، سألها بصوت خفيض. «كنت أنتظر عودتك»، أجابت وهي توسِع لنفسها مكاناً إلى جانبه. ربت سليم على رأس شقيقته التي تابعت تقول: «أمي أيضاً كانت تنتظر عودتك... وكذلك أديبة... بل ويوسف أيضاً... فقد مكث يتقلب في فراشه ويتنهد بين الحين والآخر... لقد أطال صلاته هذه الليلة... ظل راكعاً أكثر من ربع ساعة،

وضرب على صدره أكثر من مرة... أعني أدّى تلك الحركة التي نقوم بها عندما نتلو صلاة «إني أعترف...»». وتوقفت عن الكلام برهة ثم تابعت تقول: «نحن نحبك يا سليم... نحبك جميعاً... بمن فينا يوسف». «لا أشك في ذلك، أجاب سليم بصوت متهدج؛ لا أشك لحظة واحدة في حبكم... المشكلة أني ما عدت أحب نفسي!... أتدركين معنى ذلك يا لطيفة؟ ما عدت أطيق نفسي!». وما كان من الطفلة إلا أن أسندت رأسها إلى صدر شقيقها وأحاطت خصره بذراعها وهي تردد: «لا بأس... لا بأس يا سليم... سوف نحبك عنّا وعنك...».

-33-

لم يكن المرتب الذي يتقاضاه يوسف يكفي لتغطية نفقات أسرته. صحيح أن العم روفائيل كان تطوع لتسديد كامل أجرة الدار التي تقطنها العائلات الثلاث، غير أن بادرته الشهمة كانت مرهونة بإقامته في حلب: فيوم يغادرها يكفّ عن التعرف على الإيجار. وصحيح، كذلك، أن العم رزق الله يتموّن لأسرة زكريا عندما يتموّن لأسرته، بيد أن أيامه في مدينة الشهباء غدت هي الأخرى معدودة: فقد حجز على باخرة تغادر بيروت إلى الإسكندرية في منتصف تشرين الثاني، كما أخذ الترتيبات لتأمين إقامة مؤقتة في العاصمة اللبنانية التي سوف يقصدها في أوائل الشهر عينه. كان يفترض بسليم أن ينهض بأعباء أسرته المادية، لكنه لم يوفّق بعمل. لا يرضى بما يُعرض عليه ولا يحصل على ما يرغب فيه. لذلك عندما اقترحت زيزف، زوجة الخال حبيب، أن تعرّف أديبة على «السنيورة» آنّا روزيللي قوبل اقتراحها بالترحاب، سواء من قِبل أديبة أو مِن قِبل بهية. فالسنيورة آنّا روزيللي، كما أوضحت زيزف، سليلة أسرة إيطالية ثرية وعريقة استقرت في حلب منذ القرن السادس عشر. وهي ترعى وتشجّع الأعمال الحرفية على أنواعها وتستهويها، بوجه خاص، الدانتيلا اليدوية الصنع. وثمة فريق من السيدات الحلبيات يعمل لحسابها: يصنعن من الدانتيلا مفارش، وأغطية طاولات، وأوشحة، وصدريات، ويتقاضين تعويضاً جيداً عن عملهن.

السينورة روزيللي هي التي تؤمّن الخيوط والنماذج؛ توزّعها في مطلع كل شهر وتستلم القطع المنجزة في نهايته. دارها كائنة غير بعيدٍ عن خان القصبية في «المدينة»، أي في منطقة الأسواق التجارية القديمة.

عندما أتت زيزف بذكر مكان إقامة السيدة روزيللي بدت علائم الحيرة

والتردد على وجه بهية. ذلك أن «المدينة» القديمة تقع على مسافة بعيدة من حي الصليبة الذي غدت أسرتها تقطن فيه. فلو طُلب منها، وهي الحلبية الأصل والمنشأ، أن تذهب إلى خان القصبية، لاستحال عليها أن تهتدي إليه... لم تطأ قدماها منطقة الأسواق القديمة إلا مرة واحدة في حياتها؛ فقد قصدتها قبيل زواجها، وبصحبة شقيقيها حبيب وباسيل، لشراء حرائر وعطور ومفارش تستكمل بها جهازها. وكانت تلك الفرصة اليتيمة التي سنحت لها لتتأمل قلعة حلب عن كثب؛ فقد فوجئت بها تنتصب عند مدخل الأسواق مهيبةً، جليلةً، تنطق بالعز والكرامة.

ترددت بهية قبل أن تسأل زوجة شقيقها: «أمن الضروري التردد شهرياً على دار تلك السيدة الإيطالية؟ فمنطقتها نائية كما تعلمين؛ والطرقات ما عادت آمنة في هذه الأيام الحالكة. لن أطمئن على أديبة حتى ولو رافقها سليم في ذهابها وإيابها... ألا توجد طريقة أخرى للتعامل معها؟».

زمّت زيزف شفتيها تعبيراً عن حيرتها. وقبل أن تجيب عن سؤال بهية انبرت أديبة تقول: «سوف أذهب إلى دار السيدة الإيطالية أسوة بسواي؛ فلو كانت الدرب إليها محفوفة المخاطر لما قصدها أحد». سارعت زيزف تؤيد وتضيف، موضّحة: «إن جارتي عفيفة تعمل لحساب السنيورة منذ سنوات؛ وهي قادرة على الاهتداء إلى دارها مغمضة العينين. سوف أعرّفك عليها وأطلب منها أن تسمح لك بمرافقتها عندما تذهب إليها».

وهكذا كان. قصدت أديبة دار السيدة روزيللي بصحبة المدعوة عفيفة وعادت منها محمّلة بالخيوط والنماذج، وأيضاً بالصور والانطباعات. فقد شدهت بكل ما شاهدت، على الطريق إلى دار آل روزيللي، وداخل هذه الدار على وجه الخصوص. «لم أرَ طول حياتي أثاثاً بمثل هذه الفخامة، قالت بحميّة وانفعال؛ من كنبات، إلى سجاد، إلى نجفات، إلى لوحات، إلى تحف، إلى مطرّزات... يعني بيتنا في ماردين يبدو كوخاً بالمقارنة مع دار الإيطالية! إنه قصر، قصر بكل معنى الكلمة؛ وصاحبته متواضعة، مع ذلك. عاملتنا بلطف،

وعندما علمتْ بأني مهاجرة، قادمة من الولاية، بدت متعاطفة، مستعدة لأن تؤازر وتساعد قدر مستطاعها. «أنت لا تتكلمين الإيطالية فكيف فهمت ما تقول؟»، سألت لطيفة التي أذهلها فيض كلام أديبة، الصموتة عادة. «إنها تتكلم العربية مثلي ومثلك، أجابت شقيقتها بنبرة مظفّرة؛ فأسرتها تعيش في حلب منذ أجيال. وطنها، كما أكدت لنا، هو «المدينة»؛ إنها ترفض مغادرتها والانتقال إلى واحد من الأحياء الحديثة. أهل السوق يعرفونها تماماً؛ فلو سألتِ أي واحد من التجار عن «السنيورة» لسارع يرشدك إلى بيتها». وقطعت بهية عليها الكلام لتستفسرها عن الموضوع الذي يشغلها: «وهل السوق القديمة آمنة؟ ألا تخشى تلك السيدة الثرية أن يعتدي عليها أحد، ولاسيما أنها تبقى أجنبية رغم ماضيها الطويل مع المدينة؟». «ومَن الذي سيتطاول عليها أو يلحق بها الأذى، صاحت أديبة؛ إن أهل السوق أكارم بكل معنى الكلمة. ما من واحد من بينهم أسمعنا كلمة بذيئة، أو حاول التحرّش بنا، أو حاصرنا بنظرات شبقة. إنهم يحترمون الحريم، أمحجبات كنّ أم سافرات. خلافاً للجنود، من أتراك وألمان؛ فهؤلاء هم المشاكسون والساعون أبداً إلى إزعاج الإناث. والجنود متواجدون، على كل حال، في كل مكان، اللهم إلا في الأسواق القديمة في «المدينة». لم نصادف، طوال تجوالنا فيها، سوى اثنين وقد انشغلا عنا بتفحّص آنية فخّارية».

وضحّت أديبة، بعد ذلك، شروط العمل، وعلى وجه الخصوص، الأجر الذي ستتقاضاه عن كل طلبية تكلَّف بها: مجيديتان لتخريمة ياقة نسوية، ست مجيديات لغطاء طاولة سجائر صغيرة، وليرتان عثمليتان لمفرش طاولة مستديرة... «ليرتان عثمليتان»، كررّت بحمية، وقد أخذتها النشوة سلفاً لفكرة الربح الذي سوف تجني.

كانت روزين، المتواجدة في دار عمها لدى عودة أديبة، تصغي إلى ما ترويه هذه الأخيرة وقد ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيها. وعندما أفرغت القادمة كل ما في جعبتها من أخبار تنهدت روزين وقالت: «يا حسرتي عليك

يا أديبة! تضطرين إلى العمل وأنت سليلة آل مسعود؟!... يا لظلم الأيام!».

امتعضت أديبة من تعليق ابنة عمها، وإن كانت واثقة من صدروه عن نية طيبة. لذلك أجابت بانفعال وحدّة، وهي التي فطرت على الرصانة والاتزان: «تتحسرين عليّ لأني سأتعامل مع خيرة القوم؟ لأني سأعمل وأنا في عقر داري؟ لأني سأصنع تُحفاً ستباع في الخارج؟... فالسنيورة روزيللي تتاجر... إنها تعمل رغم ثرائها الفاحش، رغم مكانتها المعروفة... لا تحتفظ لنفسها بكامل نتاج المتعاونين معها، بل تصرِّف معظمه؛ تبيعه لسفراء، لقناصل، لمتاحف، وتحقق أرباحاً وفيرة». وتعمّدت أديبة نبرة ساخرة وهي تضيف: «هل ينبغي أن تتحسّري أيضاً على السنيورة روزيللي لأنها تعمل؟».

نهرتها أمها على الفور قائلة: «لمَ ردة الفعل العنيفة هذه؟ إن روزين لا تكنّ لك إلا العطف والمودّة، ولئن أسفت لاضطرارك إلى العمل فلأنها تحبك، تتعاضد معك». لزمت أديبة الصمت إزاء عتاب أمها، ولكن لبرهة وجيزة. فبنبرة ملؤها العزم والتصميم عادت تقول: «علينا أن ندرك جميعاً هذه الحقيقة المرّة: أمسنا قد ولّى! ولّى إلى غير رجعة!... علينا أن ندرك تماماً هذه الحقيقة وأن نتكيّف معها. اليوم تضطرني ظروفي إلى العمل، وغداً قد يأتي دور روزين للسعي وراء لقمة العيش، وبعد غد دور مريم ابنة خالتي... ويتعين علينا أن نواجه الصعوبات التي تنتظرنا برحابة صدر؛ فمهما قست وعظمت تبقَ رحيمة بالمقارنة مع عذابات سوانا. فإن كنا لا نزال على قيد الحياة، فبفعل معجزة!».

دنت بهية من ابنتها وأحاطت كتفيها بذراعها وهي تقول: «سوف نتقاسم العمل... سوف نجلس جنباً إلى جنب، ونحيك، ونطرّز، ونفصّل ونخيّط إلى أن يفرجها الله على سليم». وصادف دخول يوسف على النسوة فيما كانت بهية تتفوه بعبارتها الأخيرة، فردد ضمناً: «سوف ينقضي دهر قبل أن يفرجها الله على سليم... هذا إن فرجها!».

-34-

لئن أُخِذت أديبة في دوامة عملها الجديد، وغدت تنفق معظم ساعات نهارها في التعامل مع الإبر والخيوط، فإن روزين قد دخلت، هي، في متاهة من نوع آخر تعذّر عليها الاهتداء إلى مخرج منها. ففي أعقاب زيارة كانت الخالة وديعة قامت بها إلى دار حي الصليبة، فاتحت بهية سلفتها ملكة برغبة بكر شقيقتها، عبود، في العقد على روزين. وقد نقلت ملكة الخبر إلى زوجها، روفائيل، الذي رحبّ بهذا المشروع وسارع يباركه. «شرط أن توافق عليه ابنتنا»، أوضحت ملكة. «ولماذا لا توافق، تساءل روفائيل؛ فعبود شاب رزين، مستقيم، وسليل أسرة محترمة وثرية. سوف تشطّب روزين على همومها قاطبة يوم تتزوج منه. فليس هو من سيخلق لها المتاعب...». «بلا شك»، أجابت ملكة، ولكن بصوت غلب عليه التردد والحيرة. فلئن وافقت زوجها على ما عدَّد من صفات لدى الشاب، فقد كانت، بالمقابل، قمينة بأن تعدّد له قدراً مماثلاً من العيوب، بدءاً ببلادة عقله، وضعف شخصيته، وقلة حسنه، وانتهاء... بميل روزين إلى سواه! فمع أن هذه الأخيرة لم تفاتحها يوماً بمشاعرها تجاه ابن عمها، فقد كانت ملكة تدرك مدى تعلّق ابنتها بحنّا. وقد شاورت نفسها مراراً بإثارة هذا الموضوع الحسّاس أمام زوجها، غير أنها امتنعت خوفاً من خلق أجواء ملتبسة داخل الأسرة الكبيرة الواحدة، ومن توتير العلاقة بين روفائيل وشقيقه. ولكن مع تقدم خطيب لروزين توًّجب وضع النقاط على الحروف.

كان روفائيل مرتاحاً لمشروع الخطوبة، وكان يتوقع أن تعرب زوجته، بدروها، عن رضاها وترحابها لا أن تكتفي بعبارة «بلا شك» الغامضة. فهل كانت ابنته ستحلم بشاب أفضل من عبود؟ إن ثروة والده لا تحرقها النار؛ وفي هذه الأيام العصيبة غدا المال إكسير الحياة أكثر من أي وقت سبق. «إن

تزوجت روزين من عبود فسوف تنام على حرير»، قال سعياً وراء سبر ما في قرارة نفس زوجته من مشاعر وأفكار. ابتسمت ملكة وأجابت: «قد لا ترغب في الحرير، من يدري؟... ينبغي، على كل حال، أن نأخذ رأيها، وكذلك رأي شقيقك وشقيقيها، بل ورأي حنا أيضاً...». «وما دخل حنّا في الموضوع؟»، قاطعها قائلاً. «أليس ابن عمّها، أجابت؛ وهو يعرف عبود تمام المعرفة، علاوة على ذلك، إذ كثيراً ما كان يتردد على متجر آل رشو في ماردين لضرورات عمله»، هزّ روفائيل رأسه موافقاً واقترح عقد جلسة عائلية شاملة للبتّ في الموضوع. «نعقدها هذه الليلة، قال، إذ أن الشاب ينتظر منا جواباً سريعاً ولا بد». وهكذا كان...

كان العم رزق الله أول المرحّبين بمشروع الخطوبة. «نعرف الشاب على الأقل؛ إنه خلوق، رصين، هادئ الطباع، علاوة على كونه ثرياً؛ ابن أسرة ثرية بالأحرى». «لكنه ليس وسيماً»، اعترضت فريدة التي ما أن تفوهت بهذه الكلمات حتى أدركت فداحة هفوتها؛ وضعت يدها على فمها ورمقت بهية بنظرة حرجة، متذكرةً أن عبود هو ابن شقيقتها. نهرها زوجها على الفور: «ما هذا الكلام الفارغ؟ ومتى كان يطلب من الشاب أن يكون وسيماً؟». ملكة، التي ما فتئت تختطف النظر إلى حنّا، تدخلت لتسأل، بلهجة تعمدتها غير مبالية: «وما رأي شبابنا بالموضوع؟». وفي حين اكتفى سليم بعبارة «لست أدري»، وبهجت بحركة من كتفيه تشير، هي الأخرى، إلى حيرته وتردده، انبرى يوسف يدافع عن عبود، معدداً فضائله، مبرزاً الحجج التي تجعل منه «خير خطيب يمكن لروزين أن تطمح فيه في ديار الغربة». أما حنا فلزم الصمت؛ بدا منهمكاً بلفّ سيجارة، متفادياً الإجابة عن سؤال زوجة عمّه، متجاهلاً نظرات الاستغاثة التي كانت ترمقه بها روزين. بيد أنه اضطر إلى تحديد موقفه إذ أن عمّه هو الذي توجه إليه هذه المرة بالسؤال، وعلى نحو مباشر: «وأنت يا حنّا، قال، بماذا تنصحنا؟ أنتوكل على الله ونعلن الخطوبة؟». مضت لحظات ثقيلة قبل أن يجيب الشاب، بصوت مخنوق: «أنا من رأي يوسف...».

«حسناً! قال روفائيل؛ على بهية إذاً أن تنقل موافقتنا إلى شقيقتها». لكن زوجته قاطعته قائلة: «تمهل! هل نخطب البنت من دون موافقتها؟... كلمة الفصل تبقى لروزين، فهي التي ستتزوج عبود وليس حنّا أو يوسف!». هذه الكلمات الأخيرة خرجت من فمها مشحونة بالحدّة والغضب. ومع أن روفائيل استغرب ردة فعل زوجته فقد سأل روزين وهو يبتسم: «وما رأي عروستنا؟ هل لديها اعتراض؟». وبقي سؤاله معلقاً في الفراغ، إذ انسحبت روزين من الجلسة من دون استئذان أو اعتذار.

بقيت على مدى أسبوع ترجئ الإعلان عن قرارها. ساءها موقف حنّا المتخاذل، وآلمها تخلّيه عنها بتلك السهولة المذهلة. صحيح أنه لم يعدها يوماً بالزواج، بل لم يصارحها بعواطفه، أو بإعجابه، ولكن تصرّفه معها كان يشرع الأبواب أمام أحلى الآمال! لم يكن يعاملها كما يعامل أديبة رغم المودة الأكيدة التي يكنّها لهذه الأخيرة. فقد كان يسعى دوماً وراء صحبتها، فلا تحلو له جلسة إلا بتواجدها. عندما يلقاها يفرح؛ وحين يتبادل أطراف الحديث معها ينشرح ويضحك؛ وإذا ما واجهته مشكلة بادر إلى مساررتها والاستئناس برأيها. سلوك حملها على تشييد قصور أحلام، خالتها رخامية فاتضحت كرتونية!...

ما عساها تفعل؟ وعلى أي خيار تستقر؟ أهلها ينتظرون منها جواباً؛ ولئن قدّرت أمها ظروفها، إذ لم يفتها أن تلحظ ميل ابنتها الشديد إلى ابن عمّها، فإن والدها يستغرب مماطلتها ويحثّها على أخذ قرارها. قرار توقّعه إيجابياً «لأن خطيب مثل عبود رشو لا يُرفض» كما كان يردد. شاورت نفسها أكثر من مرة بمفاتحة حنّا؛ فلمَ لا تبوح له بعواطفها وتسأله، صراحة، إن كان في نيته أن يتقدم يوماً لخطبتها؟ بيد أنها لم تتجرأ على هذه الخطوة. فلماذا تحرج الشاب وتحشره في الزاوية؟ لمَ تحطّ من مكانها وتعرّض نفسها لرفض صريح؟ فلو كانت فكرة الزواج قد راودت حنّا لفاتحها بالموضوع؛ لو كان حقاً يرغب فيها زوجةً لبادر على الفور إلى طلب يدها، قطعاً للطريق على عبود

رشو. لكنه لم يحرّك ساكناً، مع الأسف؛ أكثر من ذلك، صادق على مديح يوسف لعبود فكأنه يشجع مشروع الخطوبة، بل يباركه... لا بأس. سوف توافق على هذا المشروع بدورها. فسيان عندها أن تتزوج من عبود رشو أو من سواه ما دامت لن تحظى بحنّا ولن تظفر بمن تحب.

إلى والدها الذي سألها إن كانت قد وافقت على الخطوبة بملء إرادتها أجابت: أليس المطلوب في الزوج أن يكون خلوقاً وثرياً؟

وإلى سليم الذي شكك في سلامة خيارها قالت، والدمع يكاد يطفر من عينيها: كيف لا يكون خياري سليماً وقد استبدلت غزالاً بقرد؟!...

-35-

ما أن اجتاز يوسف عتبة الدار حتى أخذ يصيح بأعلى صوته: «لديّ أخبار سارة... لديّ أخبار سارة». كان عمّاه جالسين في صحن البيت بصحبة حنّا وسليم؛ وحالما لعلع صوته غادرت النساء غرفهن تباعاً ودلفن إلى الباحة تتقدمهنّ ملكة التي كانت السباقة إلى استفساره قائلة: «وما هي هذه الأخبار السارّة؟ هل انتهت الحرب؟ هل سنعود إلى ماردين؟». «لا هذا ولا ذاك، أجاب يوسف؛ بل هي أخبار متعلقة بأسرتنا! لقد أفادني بها السيد جبران نجيم القادم من ديار بكر والذي تربطه علاقة قربى بخليل نعمة، زوج عمتي وردة». «إنه ابن خالته»، قاطعه العم روفائيل، مضيفاً على الفور: «جبران في حلب إذاً!... ولكن ما الأخبار التي نقلها إليك؟ هل طمأنك على وردة وأسرتها؟». «وعلى عمّي كريم أيضاً، أوضح يوسف؛ فقد علم من شخص من آل قره زيوان التقاه في رأس العين وسافر في القطار إلى حلب، أن العم كريم قد غدا، أخيراً، في ضيافة الشيخ مصطفى حمدان؛ لقد نقله هذا الأخير إلى داره بعد أن تفاقمت أعمال العنف في ماردين وانتشرت فيها الأوبئة وعمّت فيها المجاعة». «وهل حلّ خليل نعمة ضيفاً على الشيخ حمدان هو الآخر؟»، سألت فريدة: «لا، أجاب يوسف؛ لقد قصد خليل نعمة جبل السنجار مع أسرته...». «السنجار؟!»، صاح رزق الله وروفائيل في آن معاً.

- أجل، السنجار، أكد يوسف.

- ولماذا، سأل بهجت؛ ما الذي دفعه إلى اختيار هذه المنطقة؟ فهل السنجار أكثر أماناً من ماردين؟ ألم يكن يخطط للإقامة في زحلة، في لبنان؟

- ولماذا تستغرب خياره، قال سليم مخاطباً ابن عمّه. أفلم تعلم أن

السنجار قد غدا ملجأ للمسيحيين، من أرمن وغير أرمن؟ فالهاربون من الجندية يحتمون فيه، والنازحون عن أرضهم يزحفون نحوه، والناجون من المجازر يحلمون ببلوغه كأنه أرض خلاص. فسيد السنجار الشيخ حمّو شيرو، قد أعلن على الملأ، وفي أكثر من مناسبة، أن من يعتدي على النصارى، أو على أرزاقهم، تصادر ممتلكاته وينفى عن السنجار.

هز العم روفائيل رأسه موافقاً على كلام سليم ثم قال:

- لو أخذ الأسقف مالويان بنصيحة الشيخ حمّو لبقي على قيد الحياة! أجل... فقبيل اعتقال الأسقف وقتله، كان الشيخ قد أوفد إليه مبعوثاً ليدعوه إلى الإقامة في السنجار، ريثما تهدأ العاصفة التي هبّت على ولايات الأناضول الشرقية. لكن الأسقف رفض تلك الدعوة شاكراً، مفضّلاً البقاء إلى جوار رعيته في ساعة المحنة.

كان يوسف يتحيّن الفرصة المناسبة لاستئناف الكلام: فقد جاء بأخبار مثيرة واستحق، بالتالي، أن يكون مصدر الاهتمام ومحط الأنظار. لذلك استبق بهجت، الذي بدا وكأنه سيعلّق على ما أورده والده من معلومات، وقال بصوت جهوري:

- بحسب ما قاله السيد قره زيوان للسيد نجيم فإن الهرب باتجاه السنجار يتم عبر نقطتين: نصيبين ورأس العين. والراغبون في السفر يلجؤون إلى خدمات حرّاس يتعهدون بمواكبتهم وحمايتهم لقاء مبلغ محترم من المال؛ حرّاس جلّهم من الشركس أو من الأعراب. وقد قصد العم خليل نعمة رأس العين مع كامل أفراد أسرته، ومنها توجّه إلى السنجار.

- وأين يقع هذا البلد؟ سألت فريدة؛ فأنا لم أسمع به من قبل.

تنهد زوجها قبل أن يجيبها:

- وأين تريدينه أن يقع؟ في أميركا؟... إنه غير بعيد عن الموصل.

تدخلت هنا ملكة لتقول: «ولكن أليس سكان السنجار من اليزيديين في غالبيتهم، أي من عبّاد الشيطان؟». «إنهم لا يعبدون الشيطان، صحّح سليم، وإنما يجلّونه تفادياً لشره». وفاجأ رزق الله الحضور بالضحك الصاخب الذي غلب عليه؛ وعندما أُستوضِح عن أسباب هذا المرح المباغت قال: «الشتم واللعن وشرب الكحول أمور محرمة عند اليزيديين؛ وقد تخيّلت خليل نعمة وقد حرم من متعة السب واستنزال اللعنات وتجرُّع كؤوس العرق تباعاً، فغلب عليّ الضحك». «يقيني أن إقامته في السنجار لن تدوم طويلاً، زاد شقيقه روفائيل؛ فسوف يقفل عائداً إلى ديار بكر، مفضلاً الموت مع كأس من العرق على الحياة بلا شراب!». «ما هذا الكلام، اعترضت ملكة؛ أيضحّي خليل بأسرته، بزوجته وأولاده الثلاثة، لقاء أن يلعن الشيطان وهو يتجرّع العرق؟». «لكأن العرق متوفر أصلاً في هذه الأيام» عقبت فريدة، مثيرة بكلماتها موجة من الضحك شاركت فيها وإن لم تدرك سببها.

وتساءل روفائيل، بعد أن هدأت موجة الضحك: «لماذا لا يحذو إلياس كنعان حذو خليل؟ لماذا لا يغادر القصور مع سلمى والأولاد ويتجه إلى السنجار؟ فإذا ما اجتمعت الشقيقتان، والتأم شمل الأسرتين، تصبح الحياة أهون».

- دع كل أسرة في مكان، فذلك أفضل، عقّب سليم على الفور؛ فإن اجتمع خليل مع إلياس استأنفا للحال شجارهما الطائفي، الأول يناصر السريان اليعاقبة والثاني السريان الكاثوليك؛ شجار من عادته أن يوتّر العلاقة بين زوجيتهما أيضاً رغم كونهما شقيقتين.

وخرجت بهية عن صمتها لتقول:

- لماذا نستغرب المآسي التي حلّت بنا باسم الدين ما دام عديلان سريانيان يختلفان بحدّة بصدد تفاصيل مذهبية لا تقدم ولا تؤخر؟

وانبرى سليم يجيبها، بلهجة مداعبة: «لأني، شخصياً، ضد التعصب الديني، لذا ترينني لا أصوم ولا أصلي!». «بل خير لك أن تصوم وتصلّي كي

يفتحها الله في وجهك!»، عقّب يوسف بحدة. وامتعض سليم من ردة فعل شقيقه، ولاسيما أنه، خلافاً ليوسف، لم يوفّق بعد إلى عمل ينفق من ورائه على أسرته؛ لذلك تعمّد لهجة قاسية وساخرة وهو يجيبه:

- أتريدني أن أرشو؟... ما هذا الأسلوب التجاري في التعامل مع الله؟.. تعرف يا يوسف، قد أكون أكثر إيماناً منك في النهاية، فأنا أبحث عن السمو، عن الصفاء، وأسعى وراء الحب والتسامح، أما أنت...

قاطعه يوسف ليقول، منفعلاً:

- أما أنا فلا أسعى إلا وراء الحقد والكراهية. أليس كذلك؟

هز سليم كتفيه وأضاف ببرود:

- لا، أنت محاسب حتى العظام. محاسب في فندقك العظيم، ومحاسب في تعاملك مع الله.

- ما هذا الكلام؟! صاحت بهية باستياء؛ ما كان ينقصنا إلا هذا الجفاء بينكما... أنت يا يوسف، احترم أخاك الأكبر ولا تسمح لنفسك بانتقاده؛ وأنت يا سليم، كن أكثر عطفاً على شقيقك الأصغر ولا تعامله بجفاء وقسوة. لا تنسَ أنك قد غدوت مكان والده بعد وفاة ممدوح...

واغرورقت عينا الأم بالدمع فخجل الشابان من تلاسنهما الأحمق. دنا سليم من يوسف وربت على كتفه في حركة ودّية، فابتسم له هذا الأخير وتمتم بصوت مخنوق: «آسف على ما قلته... عيب علينا أن نتشاجر وظروفنا الصعبة تدعونا إلى التعاضد».

- عظيم! عظيم! ردد العم روفائيل؛ لنقلب الصفحة. لنعد إلى سلمى وأسرتها. إلى متى سيظل إلياس قابعاً في القصور؟ إلى متى سيظل متمترساً في مكانه، لا يحرّك ساكناً؟ هل يتوقع فرجاً وشيكاً...

- وإلى أين تريده أن يذهب بزوجته وأولاده؟ تساءل رزق الله؛ فمادياته ضعيفة، كما تعلم. إنه مستور في بيته في القصور...

- مستور؟ رد روفائيل متسائلاً؛ وهل من بيت عاد يضمن الستر في هذا الزمن الأسود؟ إنه تحت رحمة الجلاّد؛ عنقه وأعناق سائر أفراد أسرته هي تحت رحمة الجلاّد... لقد وعدنا بمغادرة القصور، وعليه أن يفي بوعده!

- أنرسل في طلبه إلى حلب، سأل سليم.

- بل من الأفضل أن يقصد الموصل، أجاب روفائيل؛ فلديه فيها أقارب، وأوضاعهم المالية جيدة.

- وهل الموصل آمنة، سأل يوسف.

- إنها أفضل وضعاً من سواها في مطلق الأحوال، أجاب رزق الله؛ وذلك منذ أن ولّي عليها علي حيدر بك، متصرف أورفة الأسبق.

- لقد حل علي حيدر مكان رشيد السفاح، والي ديار بكر الحالي، أوضح روفائيل؛ وقد تضاعف تعداد سكان الموصل في أقل من عام مع ذيوع خبر المعاملة الإنسانية التي يحظى بها المهاجر إليها. فعلي حيدر بك شهم ومنصف، ولا يتوانى عن إنزال أشد العقوبات بحق من يعتدي على اللاجئين، من أرمن وغير أرمن...

- يبدو أنه قد تمّرد أكثر من مرة على أوامر صادرة من اسطنبول، زاد رزق الله؛ أوامر تدعوه إلى تصفية الآلاف من الأرمن الذين التجؤوا إلى ولايته. وقد أكد لي شخص من آل جروة، كنت التقيته في السوق قبيل مغادرتنا ماردين، أن الوالي على علاقة طيبة مع بطريرك الكلدان، يوسف عمانوئيل الثاني، وأن الصداقة بين الرجلين قد ساعدت على حل العديد من الإشكالات وعلى تنقية الأجواء في الموصل.

حنّا، الذي لم يُسمع له صوت طول الجلسة، خرج عن صمته ليسأل:

- ولماذا لا نقصد بدورنا الموصل أو السنجار بدلاً من الذهاب إلى مصر؟ فالأمن مستتب في هاتين المنطقتين على ما فهمت؛ كما أنهما غير بعيدتين لا عن ماردين ولا عن حلب...

ونظر إلى روزين وهو يتفوه بالكلمات الأخيرة؛ لكن الفتاة تجاهلت الرسالة التي حملتها هذه النظرة وقالت بنبرة لا تخلو من سخرية:

- ولمَ الإصرار على عدم الابتعاد عن ماردين أو حلب؟... ثم هل نسيت أن أنيس قد سبقكم إلى الإسكندرية، وأنه في انتظاركم؟

- ابنة عمّك على حق، علّق رزق الله؛ ولست أدري لماذا تثير هذه التساؤلات، أصلاً، وترتيبات سفرنا قد أنجزت كلياً. سوف نغادر بعد ثلاثة أسابيع، هل نسيت؟

- لا، لم أنسَ، ردّ حنّا بتذمرٍ، متفادياً النظر هذه المرة في اتجاه ابنة عمه التي لم ترحم اضطرابه بل زادته حدة عندما قالت:

- لن تغادروا ما لم تحضروا خطوبتي! فمن غير المعقول أن نحتفل بها في غيابكم، أليس كذلك؟

واستدارت نحو والدها وهي تطرح سؤالها الأخير، فانبرى روفائيل يقول:

- بكل تأكيد... سوف أفاتح جرجس رشو بالموضوع. لن نقيم حفلاً كبيراً في مطلق الأحوال، نظراً إلى الظروف...

وكانت الظروف في نظره تتجاوز واقع هجرتهم الصعب لتشمل مصرع ممدوح، ووفاة زكريا، ومأساة كريم.

وكمن ينكأ جرحاً بالرغم منه سأل حنّا عمّه:

- أما زلت تخطط للاستقرار في بيروت؟ أعني، ألن تعيد النظر في هذا المشروع بسبب خطوبة روزين؟ فسوف تستقر هي في حلب؛ لن تفارق زوجها للالتحاق بكم...

أطلق بهجت ضحكة وقال:

- لقد زوّجتَ روزين وهي لم تخطب بعد!... من جهتي، لا مانع لدي على الإطلاق من بقاء شقيقتي العزيزة في حلب! نخلص منها ومن مشاكلها...

- لا تحلم، أجابت روزين؛ لن تغادروا ما لم أغادر معكم، هذا شرطي للموافقة على الزواج من عبود.

- وإذا لم يشأ هو أن يغادر؟ سألها بهجت.

- لا زواج عندها، أجابت روزين بنبرة متحدية.

لم يعلّق روفائيل على كلام ابنته مع أنه أحرجه في حضور شقيقه، وعلى الأخص في حضور بهية، خالة الخطيب. تصرّف وكأن الشقيقين يتمازحان ويتناقران على عادتهما. تذرع بصداع خفيف أصابه ليتمدد قليلاً في غرفته قبل موعد العشاء. وتذكرت النساء أن عليهن تحضير الطعام فقصدن المطبخ. وانفضّت الجلسة بالتدريج فلم يبق في صحن الدار سوى سليم وروزين. سليم الذين كان يولع سيجارة تلو الأخرى، وروزين التي كانت تفتّت وريقات نبتة ريحان وهي ساهمة النظرات. وفي لحظة من اللحظات سألها سليم:

- لماذا وافقت على الزواج من ابن خالتي وأنت لا تحبينه؟

وبدلاً من أن تجيب عن سؤاله بادرت تطرح سؤالاً عليه:

- ولماذا ستتزوج أنت من ابنة خالتك، مريم، مع أنك لا تحبّها؟ مع أنها سمراء وأنت مولع بالبشرة البيضاء؟

- ومن قال لك إني سأتزوجها؟ من أين جئت بهذه الفكرة؟

تنهدت روزين قبل أن تجيب:

- سوف تتزوجها يا سليم! ثق بأنك ستتزوجها، إن عاجلاً أو آجلاً. بل عاجلاً بالأحرى، بحسب اعتقادي.

- ولماذا؟... أجيبي عن سؤالي: لماذا؟

- لأنها ترغب فيك، لأن مريم تريدك زوجاً لها!

أطلق سليم ضحكة هازئة قبل أن يقول:

- أيكفي أن ترغب فيّ حتى أعقد عليها؟ أليست لي كلمة في الموضوع؟ فمتى كان أولاد رشّو يتحكّمون بأولاد مسعود؟

- منذ أن سلكت الأسرتان طريق الهجرة؛ فبعيداً عن ماردين يسقط

الحسب والنسب ويحتكر المال كلمة الفصل! والمال هو في حوزة جرجس رشّو لا في حوزتك أنت.

نظر سليم إلى روزين مطولاً؛ ابتسم بعد ذلك وقال لها بلهجة متواطئة:

- أعتذر سلفاً عن هذه الكلمة النابية: «طظ!»، «طظ» بسليم رشو وبذريّته، مع أن أولاده هم أولاد خالتي! لن أتزوج من مريم حتى ولو هبطت السماء على الأرض.

هزت روزين كتفيها وأجابت:

- سوف تتزوجها والسماء لا تزال ثابتة في مكانها!

- علامَ تعتمدين في إطلاق هذا الحكم القاطع؟

- على تأبّيك عن خوض المعارك!... فمن عادتك أن تتنصل من المواجهة، أن تختار الحل الأسهل...

- أهذا رأيك فيَّ؟!...

- ولمَ تستاء منه؟... لمَ تعتبره سلبياً؟... أنت تحب الطرب، والشراب، والسهر؛ تحب الجلسات الحلوة والحياة الهنيئة، وترفض الإكراهات على أنواعها... لم تُخلق يا سليم لتحدي المحن والتغلب على المصاعب... اِعترف بذلك؛ لا تكابر، لا تحمّل نفسك أكثر من طاقتها. تزّوج من مريم!

أولع سليم سيجارة جديدة، وبعد أن أخذ منها نفساً عميقاً ألقى نظرة أسيانة على ابنة عمه وقال بصوت حائر:

- ولكنها شديدة السمرة، تكاد تكون سوداء.

- سوف تتبرج!

-36-

كانت لطيفة وجوليا تنطّان بالحبل وسط الحارة الضيقة التي تحاذي دارهما عندما شاهدتا كاهناً يطلّ من عند منعطف. تقدم باتجاههما بخطوات بطيئة وهو ينظر بفضول فيما حوله. أخرج منديلاً من جيب جبّته السوداء ومسح العرق المتصبب على وجهه وعنقه، ورفع بعد ذلك قلنسوته ومرّر المنديل فوق شعره الأبيض. ولما صار بحذائهما فاحت منه رائحة عرق كريهة أعادت لطيفة بالذكرى إلى ميخائيل العواد الذي نادراً ما كان يغتسل أو يبدّل ملابسه. تابع الكاهن سيره وهو لا يكفّ عن النظر يميناً ويساراً؛ وعندما بلغ نهاية الحارة تمهّل، ثم استدار، وكأنه قد ضلّ طريقه. قفل عائداً أدراجه بعد ذلك في اتجاه الطفلتين، وكان على مسافة أمتار منهما عندما رفع صوته يسألهما عن دار أسرة مسعود. وقبل أن تنبري جوليا للإجابة عن سؤاله بادرت لطيفة إلى الاستفهام عن دوافع هذا السؤال.: «لماذا تبحث عن آل مسعود ودارهم؟». قالت ذلك بارتياب، وقد راودها الخوف من فاجعة غير مرتقبة. دنا الكاهن منها وأنعم النظر في وجهها مستغرباً موقفها الذي لا يخلو من وقاحة من منظوره. فمتى كانت الفتيات الصغيرات يضعن أنفسهن على قدم من المساواة مع القساوسة؟ متى كن يتوجهن إليهم بحرية الراشدين وطلاقتهم؟ في ظرف آخر، كان سيمتنع عن الرد على الطفلة؛ كان سيتجاهل استفسارها ويتفادى إعطاءها أي توضيح. لكن الطقس كان حاراً، والطريق التي قطعها حتى بلغ هذه الحارة طويلة وشاقة؛ والأهم من كل ذلك أن البشرى التي يحملها كانت تلّح عليه كي يذيعها. لذلك رأى أن يغضّ النظر عن صلافة الطفلة وأن يجيبها، ولكن بنبرة متأففة بعض الشيء، بأن لديه خبراً مهماً كُلِّف بنقله إلى أسرة مسعود. «فأين تقطن هذه الأسرة؟»، ختم

كلامه بنزق. «هنا»، أجابت جوليا وهي تشير بيدها إلى باب حديدي أسود، نصف منفرج، يفضي إلى دهليز طويل شبه مظلم. غير أن لطيفة عادت تسأل، وهي لا تزال متوجسة من كارثة مباغتة كالتي حلّت بأسرتها عند تبليغها نبأ مصرع ممدوح وأسرته: «وما طبيعة الخبر الذي كُلّفت بنقله؟... ومن الذي كلّفك بهذه المهمة؟ فنحن نكاد لا نعرف أحداً في هذه المدينة». «أنتِ من آل مسعود إذاً، أجاب الكاهن؛ حسناً؛ اسبقيني إلى أمك وبشرّيها بقدوم الأب بغدو؛ أعني بقدومي!».

ولم ينتظر الكاهن أن تسبقه الطفلة إلى أمها، بل ولج إلى الدهليز المعتم تتبعه جوليا ولطيفة.

كانت بهية جالسة في صحن الدار بصحبة ملكة وفريدة وأديبة. أما روزين فقد انزوت في المطبخ تعدّ القهوة. قهوة جاء بها بالأمس عبود رشّو وقد ابتاعها بمبلغ باهظ ولا بد. كانت قد أرادت امتحانه، امتحان قدرته على الإنفاق بالأحرى، على التغلب على بخل أسرته المتأصل، فأفصحت أمامه عن تشوقها إلى فنجان من القهوة الأصلية، غير الممزوجة بالذرة أو بالشعير. وقد سارع يلبي رغبتها محضِراً كيساً احتوى على كيلو غرام أو أكثر من البن البرازيلي النادر وجوده في السوق. هديته الثمينة أذهلت أهل البيت، وأغاظت حنّا الذي رفض بحدّة فنجان القهوة الذي قدّمته له روزين بالأمس... وابتسمت روزين وهي تتذكر ردة فعل حنّا التي لم يخفَ مغزاها عن أمها ولا عن ابن عمها سليم.

في اللحظة التي خرجت فيها روزين من المطبخ معلنة «أن القهوة قد جهزت» أطلّ الأب إفرام بغدو على جمع النساء. ألقى التحية وبادر على الفور يسأل: «أين بهية مسعود؟ أريد مقابلتها». «خير إن شاء الله!»، صاحت ملكة؛ «يا ساتر يا رب!»، زادت فريدة. «ولماذا تريد مقابلتي؟»، استفسرت بهية التي نهضت من جلستها وسعت إلى التقدم نحو الكاهن رغم الرجفة التي ضربت ساقيها. «لدي خبر سار»، أجاب الكاهن الذي سرعان ما أضاف،

وهو يختطف النظر إلى صينية القهوة التي حملتها روزين: «سوف أستريح بالأول، إذا سمحتن؛ فالحرارة قاتلة في الخارج، وطريقي كانت طويلة». دفعت ملكة بكرسي نحوه فجلس؛ ولما بدا وكأنه غير راغب في الإفصاح على الفور بما عنده رأت فريدة أن تستدرجه فقالت: «ما الخبر السار الذي جئتنا به يا أبونا؟ أهو مشروع خطوبة؟... هل ثمة ابن حلال يرغب في العقد على أديبة؟... ذلك أن روزين مخطوبة؛ شبه مخطوبة على الأقل... أما لطيفة وجوليا...». ولم يدعها الكاهن تتم عبارتها إذ قاطعها قائلاً بشيء من الحدّة: «من أين خرجت بنغمة الخطوبة هذه؟ وهل قيل لك إني شبّاكة؟... ثم كيف أتوسط لخطوبة ابنتك وأنا لا أعرفها، ولا أعرف أصلها وفصلها!». «أديبة ليست ابنتي، صحّحت فريدة، بل ابنة سلفتي!». «ابنتك أو ابنة أختك، أو ابنة جارتك، فالأمر سيان»، ردّ الكاهن بقدر من النزق.

نفذ صبر بهية التي كانت لا تزال منتصبة أمام الكاهن، تنتظر بلهفة أن يصارحها بما عنده. أمهلته، مع ذلك، ريثما يتناول فنجان القهوة الذي قدمته له روزين، ويتبع أول جرعة من سائله الحار باستنشاقة من شفتيه بليغة الدلالة عن تذوّقه وتمتّعه به. غير أنها لم تنتظر أن يفرغ من احتساء قهوته. فبنبرة صارمة، لا تحتمل المماطلة، طلبت منه أن يبلغها الخبر الذي وعدها به. فما كان من الكاهن إلا أن أسند فنجان القهوة على حافة الحوض الحجري الصغير الذي توسط صحن الدار وقال بلهجة محايدة، وكأنه يتحدث عن الطقس أو عن ارتفاع أسعار السكر: «إن حفيدك زكريا مسعود، ابن ممدوح مسعود، هو الآن في عهدة أسرة باطري في ماردين». «ماذا؟»، صرخت بهية بصوت مخنوق فيما ارتفعت أصوات بقية النساء تستفسر، وتستجوب، وتهلهل، وتزغرد، وتشكر الخالق. «ما هذا الضجيج؟ صاح الكاهن مغتاظاً؛ كيف أفصح عما عندي وسط هذه القرقعة؟ فالمسألة بالغة الخطورة، ولديَّ تعليمات دقيقة يتعيّن عليّ أن أنقلها، أن أبلغها للمدعوة

بهية مسعود!». «تكلم! تكلم! لماذا تماطل»، ناشدت هذه الأخيرة وهي تقبض على ذراع الكاهن وتشدّها بعنف؛ «تكلم، أضافت بحدّة وانفعال، وإلا . . .».

لم يدعها رجل الدين تتم عبارتها إذ سارع يفصّل الخبر الذي جاء به. وخلاصة ما قاله، بعبارات مقتضبة وأسلوب تقريري، أن الأسقف تبوني، إذ علم بوجود طفل مسيحي عند أسرة كردية في بلدة المنصورية، سعى على الفور إلى الاستفسار عن هويته وعن أسباب تواجده لدى تلك الأسرة. وقد اتضح له أنه ابن التحصلدار ممدوح مسعود الذي قتل، مع زوجته الحامل، في جوار كنيسة مار آسيا الحكيم في المنصورية. عرض الأسقف شراء الطفل لقاء مبلغ من المال. غير أن الآغا الذي كان يعيش عنده رفض العرض، زاعماً أنه قد تعلّق بزكريا الصغير وغدا يعتبره كواحد من أبنائه. أصرّ الأسقف على المطالبة بالطفل ورفع قيمة فديته، ولكن من دون جدوى؛ فقد تشبث الآغا بموقفه وأقسم بأنه لن يتخلى عن زكريا لقاء مال الدنيا كله.

«وما الذي حصل في النهاية؟ . . . كيف وافق على إعطائه؟»، سألت بهية بصوت متهدج.

«اهدئي يا امرأة، ردّ الكاهن بنبرة صارمة؛ دعيني أروِ ما حصل وأنقل إليك توصيات الأسقف».

والذي حصل هو أن الأسقف تبوني قد جنّد صداقاته كافة في سبيل استرداد ابن ممدوح. وقد آزره، في المقام الأول، رئيس بلدية ماردين، حيدر شلبي، الذي ذاع صيته في دفاعه عن موظفيه المسيحيين، بل عن المسيحيين قاطبة، أسوة بفارس شلبي، وعبد القادر شلبي، وعبد الرزاق شلبي، وسواهم من أبناء تلك الأسرة الشجاعة والشهمة. وقد عاضده، أيضاً، في تلك المهمة الصعبة الشيخ مصطفى حمدان، الصديق الوفي لآل مسعود، والذي كان ممدوح بمثابة واحد من أبنائه.

«لقد أقام الأسقف الدنيا وأقعدها كيما يستردّ حفيدك!»، ختم الكاهن كلامه؛ كان يتوجه إلى بهية مباشرة، وكانت نبرته شبه زاجرة فكأنه يحمّلها

مسؤولية ما عانى منه الأسقف في مسعاه الحميد. وكان يتوقع منها تعبيراً حاراً عن شكرها وامتنانها؛ لذلك ذهل عندما واجهته بأسئلة غير مرتقبة، طرحتها بقدر من الحدّة: «ولماذا لم يُسلّم زكريا للشيخ مصطفى حمدان؟ لماذا أودعه الأسقف لدى أسرة باطري؟ أتراه يجهل أن كريم، شقيق زوجي، يقيم في دار الشيخ؟ لماذا...».

«اهدئي يا امرأة، كرر الكاهن بنزق؛ لا تطرحي عليّ أسئلة يستحيل عليّ الجواب عنها. فلست من أهل ماردين كيما أميّز بين فلان وعلان. ولست داخل رأس الأسقف كي أعرف لماذا سلّم حفيدك لأسرة بعينها. احمدي ربك لأنه بخير».

وللحال ارتفعت أصوات النسوة تحمد الرب وتشكره على تلطفه. «إنها معجزة، معجزة!»، رددت فريدة. «ميِّت وعاد إلى الحياة»، زادت ملكة.

أما بهية فقد فاجأت الحضور عندما قالت، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة طفيفة: «إنها هدية! هدية أرسلها إلي ممدوح من السماء!». «بل أرسلها اليك ربّك»، صحح الكاهن مغتاظاً قبل أن يطلب كأساً من الماء ويدعو إلى الصمت كيما يتسنى له إتمام رسالته.

– الطفل زكريا مسعود هو الآن، إذاً، في دار عبد المسيح باطري في ماردين، قال؛ وقد تعهد نيافة الأسقف تبوني بإرساله إلى حلب وتسليمه إلى مطرانية السريان الكاثوليك التي سوف تبادر إلى الاتصال بكم فور وصول الطفل.

وإزاء سيل الأسئلة التي حاصرته من جديد حول رحلة الطفل الشاقة والمحفوفة بالمخاطر، وحول الاحتياطات التي اتخذها الأسقف لحماية زكريا وللحؤول دون أن يُخطف ويقع في الأَسر من جديد، قال الكاهن بصوت عال، وبلهجة صارمة قاطعة:

– وهل تعتبرن أنفسكن أكثر علماً وحكمة من الأسقف؟ لقد نجح نيافته في استرجاع ابنكن رغم تعنّت الآغا؛ جنّد صداقاته وأموال المحسنين

لتخليصه وإعادته إلى ذويه. فهل سيستعصي عليه أن يؤمّن مرافقاً يوصله إلى حلب بأمان؟...

وتابع رجل الدين وهو ينهض من جلسته، متأهباً للمغادرة:

- اتكلن على الله وعلى نيافة الأسقف... ما أن يصل الطفل إلى المطرانية حتى نبادر إلى تبليغكم بأسرع ما يمكن.

- سوف أمرّ يومياً على المطرانية لأقف على آخر الأخبار، أعلنت بهية.

«لا داعي»، أجاب الكاهن وهو يتجه صوب الباب. ولما صار بجانب لطيفة ربّت على رأسها بحركة ودّية فساررته الطفلة قائلة بثقة مطلقة، وكمن يسلّم بحقيقة بديهية:

- كنت متأكدة من أن زكريا لا يزال على قيد الحياة... دعوت الكبار أكثر من مرة إلى البحث عنه غير أنهم لم يسمعوا كلامي...

هزّ الكاهن رأسه وأجاب وهو يبتسم، على غير عادته: «عجيب أمر الكبار...».

-37-

أسبوعان بكاملهما انقضيا على زيارة الكاهن أفرام بغدو من دون أن يجدّ شيء بخصوص عودة زكريا؛ ما من خبر أفاد بمغادرته ماردين، وكم بالأحرى بقرب وصوله إلى حلب... أسبوعان طويلان عاشتهما بهية وهي على أحرّ من جمر. ما عادت تكتفي بإرسال سليم عصر كل يوم إلى المطرانية للسؤال والاستفسار عما استجدّ بشأن سفر الطفل، بل غدت تقصد مقر هذه المطرانية مع إطلالة كل صباح للوقوف على آخر الأخبار؛ لسماع الكاهن أفرام بغدو يجيبها، متأففاً، بأن لا جديد عنده، بل يؤنبها، في بعض الأحيان، على تعنتها ورفضها الإصغاء إلى صوت العقل. أفلم يؤكد لها، منذ أن زارها في عقر دارها، أن المطرانية لن تتأخر عن تسليم الطفل إلى أسرته فور وصوله إلى حلب؟ فلمَ تأتي إليه مع طلوع الفجر، وترسل إليه ابنها عند المغيب؟ لمَ تحاصره بأسئلة لا يملك إجابة عنها؟ ولمَ، لمَ لا تسلّم أمرها للعناية الإلهية التي ميزّتها، دون سواها من المعذبين والمظلومين، عندما أعادت إليها حفيداً خالته انتقل إلى ملكوت الأموات؟ «لكنه لم يعد بعد!»، كانت تعارضه بحدّة، قبل أن تسارع إلى الاعتذار منه بعبارات لبقة، مهذّبة. فقد أرهق الانتظار أعصابها، ونالت المحن المتعاقبة من قوة إيمانها...

كانت بهية قد تدارست مع ذويها إمكانية سفرها إلى ماردين بصحبة سليم، لتتسلم زكريا من أسرة باطري وتعود به إلى حلب. غير أنها تخلّت مضطرة عن هذا المشروع، لجملة من الأسباب الوجيهة. منها كلفة الرحلة الباهظة، في زمن شحّت فيه إيرادات الأسرة؛ ومنها أيضاً احتمال فشلها: فربما يكون زكريا غادر ماردين ساعة وصول جدته وعمه إليها!...

لا روفائيل ولا رزق الله شجّعا بهية على هذه الرحلة، في مطلق الأحوال. لا

لأنها شاقة ومحفوفة بالمخاطر فحسب، بل لأن الظرف، أيضاً، غير مناسب. فرزق الله مشغول بترتيبات هجرة أسرته الوشيكة إلى مصر، وروفائيل مأخوذ في دوامة الإعداد لخطوبة ابنته.

«لقد تحدد موعد الخطوبة، ولم يعد من مفرٍ منها»، عبارة رددتها روزين أكثر من مرّة في حضور ابن عمها سليم الذي تربطها وإياه صداقة وطيدة منذ نعومة أظافرهما. ولم يلمس سليم أي خيبة أو مرارة في هذا الإعلان المكرر، ولا بالأَولى أي ألم أو قنوط! فقد كانت لهجة روزين غير مبالية، كما لو أنها تتحدث عن خطوبة سواها. «كأنها غير معنية بالأمر»، صارحت أديبة أمها وهي تحدثها عن موقف ابنة عمها من ترتيبات الخطوبة الوشيكة. كانت أديبة قد قصدت «المدينة» بصحبة روزين وزوجة عمها، ملكة، لشراء قطعة قماش يفصَّل منها ثوب الحفلة. ولم تعرب روزين عن أي رأي، ولم تحدد أي خيار طوال تجوالهن بين المخازن. فسيّان، بالنسبة إليها، أن يكون لون الثوب أبيض أو أزرق، وردياً أو أخضر، أن يكون نسيجه من الحرير أو من الموسلين، من التفتا أو الاورغنزا... وإزاء تردّد ملكة، التي احتارت هي ماذا تنتقي، رست مهمة الحسم على أديبة التي اختارت قطعة من الحرير الصيني المزهر «لأن لونه فَرِح، وملمسه ناعم، ونسيجه هدل»، كما أوضحت لأمها. «أما ثمنه فباهظ ولا بد!»، علّقت بهية. «أجل، أجابت أديبة موافقة؛ فنحن نعيش زمن حرب، ومثل هذا النسيج أصبح نادراً... قبل أن نقصد السوق كان عمي روفائيل قد أوصانا، على كل حال، بألا نشتري إلا ما يليق بالمناسبة، لأنه يعزّ عليه أن يبدو أقل قدرة على الإنفاق من جرجس رشو...». ابتسمت بهية وقالت: «لن يستطيع عمّك، مع الأسف، أن يجاري زوج أختي في القدرة على الإنفاق... فبالرغم من نزعته المعروفة إلى الاقتصاد والتقتير أوصى جرجس على مصاغ ثمين لخطيبة ابنه، أي لروزين. لم تشأ شقيقتي وديعة أن تفصّل لي تماماً ما الذي سيأتي به عبود يوم الخطوبة، لكن من المؤكد أن بين المصاغ إسواراً من الذهب على شكل جنزير، وخاتماً من الماس، وقلادة ذهبية

أوزن من قلادة خالتك...». «روزين محظوظة»، عقّبت أديبة؛ تفوّهتْ بهذه الكلمات وهي غير مقتنعة بصحّتها في صميمها؛ ولئن سارعت أمها تجيبها: «إنها، فعلاً، محظوظة، كما تقولين»، إلا أنها كانت ضمنياً تشارك ابنتها انطباعها... ذلك أن بهية قد لمست، بدورها، عدم اكتراث روزين بالحدث المرتقب. بل لمست أكثر من ذلك: استفزاز روزين الدائب لابن عمها حنّا، وتخاذل هذا الأخير وانكساره بعد كل سهم تصوّبه إليه... ومع أن خبرتها العاطفية كانت تقتصر على علاقتها الزوجية، لم يفتها إدراك حقيقة المشاعر التي تكنّها الفتاة لابن عمّها المغلوب على أمره. فماذا عساه يفعل وهو لا يزال بلا عمل وبلا دخل، ومضطراً، بالتالي، إلى الاعتماد كلياً على والده؟ ماذا عساه يفعل غير أن يرضخ لواقع زواج روزين من سواه، وأن يتحمل، بصبر وصمت، طعناتها المتلاحقة؟ تارة تسأله ماذا سيرتدي يوم خطوبتها، وطوراً تسأله رأيه بعبود رشو! فهي لا يحلو لها أن تتحدث عن عبود إلا في حضور حنّا، علماً بأنها تبدو وكأنها نسيت وجود الخطيب المرتقب في غياب ابن عمها! وقد شاورت بهية نفسها أكثر من مرة بمفاتحة وديعة بهذا الموضوع الشائك والمحرج. فلمَ يعقد عبود على فتاة تميل إلى سواه؟ صحيح أن ابن شقيقتها ليس من النوع الذي يخلب لب الفتيات، غير أنه يتمتع بقدر من الصفات تجعل منه خطيباً مرغوباً فيه، وثروة والده ليست أقل تلك الصفات أهمية في أيام الضائقة هذه! وندّت عن بهية تنهدة عفوية. فلمَ لم يتقدم عبود بطلب يد أديبة؟ كانت ستطمئن إلى مستقبل ابنتها لو فعل... ابنتها التي فقدت مع مصرع عبد الجليل سيوفي عريساً لا أنبل ولا أكرم... لا، لن تفاتح شقيقتها بحقيقة مشاعر روزين، خشية أن تفسّر خطوتها على أنها محاولة للطعن بسمعة الفتاة ولدفع أديبة إلى مقدمة الساحة. فسوف يغادر حنّا حلب في مطلق الأحوال، وسوف تتآلف روزين مع عبود وتنعم معه بحياة زوجية هادئة وهانئة. لا، لن تشغل بهية نفسها بقضايا لا ناقة لها فيها ولا جمل: فمشاكلها الشخصية كافية ووافية! همّها الأول الآن استرجاع زكريا؛ الاطمئنان على

مصير الطفل الذي عاش مأساة لا أفظع ولا أهول. غداً، في الصباح الباكر، ستقصد المطرانية. ستذهب للاستفسار عما استجدّ من أخبار بخصوص حفيدها. ستطلب مقابلة القس أفرام بغدو من جديد للوقوف عما عنده، غير مبالية ببرودة فعله المنتظرة. فحتى لو تأفف ووبّخ، حتى لو نعتها بالجهل والتعنت، حتى لو أدان قلة صبرها وضعف إيمانها، حتى لو هدد بغسل يديه من مصير حفيدها وبتكليف كاهن آخر بملاحقة قضيته، فإنها سوف تذهب إليه كل صباح، وترسل إليه سليم كل مساء، إلى أن يقيّض لها، أخيراً، أن تضم زكريا بين ذراعيها.

-38-

لا ريب في أن الحزن أشد وقعاً على النفس من الفرح، وأعنف منه وطأة بما لا يقارن؛ حقيقة سلّمت بها لطيفة وهي تراقب زكريا يعدو ويصرخ في باحة الدار. فكيف توازي بين السعادة التي غمرت صدرها لحظة دخول الطفل على الأسرة، مرفوعاً بين ذراعي سليم، وبين الألم الذي مزّق صدرها مع تبلغها نبأ مصرع أخيها ممدوح وأسرته؟... «لقد عاد زكريا من بين الأموات»: عبارة ما فتئت تسمعها على لسان أمها وأديبة تارة، وعمّيها وزوجتيهما طوراً. أجل... لقد عاد من بين الأموات، ولكن حاملاً معه صوراً من الجحيم الذي عاشه، مكبلاً بذكرى العذابات التي كابد منها. فإن أهدي لعبة توجس من الإمساك بها، وإن حاول أحدهم ضمّه أو تقبيله أطلق صيحة هلع. لا يبلع ملعقة من الحساء إلا بعد طول رجاء؛ ولا يوافق على أخذ حمام إلا بعد تدخل يوسف الذي عُهدت إليه مهمة توبيخه وزجره لحمله على الطاعة... أين زكريا، العائد من ملكوت الموت، من ذلك الطفل الوديع، الدائم الابتسام الذي كانت تحب؟ ألأن زكريا ما عاد زكريا فترت مشاعرها تجاهه؟ إنها تعطف عليه، بكل تأكيد؛ بل إن الحزن يعتصر قلبها عندما تسمعه يشتكي من ألم شديد في رأسه، والغضب يجتاح كيانها عندما يكشف عن بطنه فيظهر أثر الحرق الفظيع على بشرته الناعمة. خطّ أحمر خلّفه سيخ شواء كوت به امرأة شريرة جلد الطفل البريء. امرأة كان زكريا يسميّها «مولو»، وهي زوجة الآغا الذي أسره على مدى شهور. وقد تمكّن سليم من استدراج الطفل إلى رواية ما حصل ففهم منه، بعد طول جهد، أن مولو التي كان قد طلب منها سيخاً من الشواء، أسوة بسائر أولاد الآغا الملتفّين حول المنقل، بدت وكأنها ستلبّي طلبه. ولكن بدلاً من أن تناوله السيخ بيده ألصقته ببطنه العارية وضغطت

عليه! وكانت تلك الشريرة قد حاولت، قبل ذلك، أن تغرقه في حوض ماء، مما جعل زكريا يطلق صيحات فزعة كلما وقع نظره على بركة ماء، مهما تكن صغيرة. «كانت تغار منه حتماً، زعمت ملكة؛ تغار منه لأن زوجها الآغا قد تعلق به، بل ربما غدا يحبّه فعلاً وكأنه ولد من أولاده». «كيف لا يفضّله على أولاده، زادت فريدة؛ فوجهه مثل قرص العسل، في حين أن أولاد الآغا هم على شاكلة القرود!». وهل شاهدتهم فريدة كي تطلق عليهم هذا الحكم؟ بالطبع لا، لكن ما من أحد طرح عليها هذا السؤال. كما أن ما من أحد ضحك من الحكم التعسفي الذي أطلقت. فهو يتعلّق بالمأساة التي عاشها زكريا والتي تنقبض لها الصدور كل مرة تثار فيها.

تبقى فريدة على حق بخصوص بهاء طلعة زكريا. فهو، بالفعل، طفل جميل. أشقر الشعر كأمه وأخضر العينين كوالده. غير أنه دائم الصراخ والعويل... كان هادئاً، ضحوكاً، مطيعاً في الماضي. لكن الفاجعة جعلت منه كائناً آخر. أرادت جوليا أن تقبّله ذات مرة فعضّها بعنف. وعرضت عليه فريدة ذات يوم كوزاً من الذرة المشوية فحاول أن يهرب من البيت؛ أطلق ساقيه للريح وهو يصيح ويولول، فلحق به بهجت وسليم، مثيرين فضول الجيران وتساؤلات المارة! أما أديبة فتتلقى منه مئة ركلة ولطمة قبل أن تفلح في تحميمه وتبديل ملابسه. لا تشتكي المسكينة ولا تتذمر، بل تواظب على الاهتمام به وعلى إحاطته بحبها ورعايتها. فهو «كل ما تبقى من ممدوح»، كما تقول... رأي لا تشاطرها لطيفة إياه؛ بل لا تتبناه البتة بالأحرى. فما تبقّى من ممدوح أكثر وأوسع وأغنى. صور لا تحصى عنه، خزّنتها في ذاكرتها، وذكريات ولا أجمل معه، صانتها في قلبها. كل ليلة، قبل أن تستسلم للنوم، تتفقد هذا الكنز. تستحضر ماضيها مع شقيقها المغدور، تعيش، بصحبته، لحظات انسجام وسعادة... فممدوح باقٍ ما دامت هي باقية، ما دامت تمنحه دفء الحياة في قلبها النابض وذاكرتها الوفية، المتيقظة أبداً. أما زكريا فهو مجرد امتداد جسدي له. لم يعش الطفل طويلاً مع والده كيما يكوّن

عنه صورة حيّة قادرة على تحدي الموت. ذلك الموت اللعين الذي اختطف منها شقيقها بعد أن حرمها من والدها.

يوم زارهم الأب أفرام بغدو ليبشرهم بأن زكريا لا يزال على قيد الحياة، لم تتمكن من تجاهل سؤال طرح نفسه عليها بإلحاح: لماذا حصلت المعجزة مع زكريا، لا مع ممدوح؟ وظل هذا السؤال يلحّ عليها حتى بعد عودة الطفل. وقد كاشفت به أمها في يوم اشتد فيه صراخ هذا الأخير وعويله، فكان الجواب عن سؤالها: «تلك هي مشيئة الله»؛ عبارة يلجأ إليها الكبار كلما استحال عليهم فهم أمر أو تبريره! فلئن قُتل ممدوح وزوجته، فتلك مشيئة الله؛ ولئن ذُبح الأطفال على مرأى من أهلهم، فتلك مشيئة الله؛ ولئن سيق البشر كالبهائم وأُذلّوا وعُذبّوا قبل أن يموتوا تعباً وجوعاً، أو يُذبحوا، أو يُرموا بالرصاص الواحد تلو الآخر، فتلك أيضاً مشيئة الله... أمر لا يصدّق! فهي إن ارتكبت أبسط هفوة، استحقت عليها توبيخاً، وكم بالأحرى إن أخطأت أو اقترفت ذنباً. فلماذا يحاسَب الصغار ولا يحاسَب... عندما تجرأت على إتمام عبارتها في حضور أديبة استحقت منها صفعة على وجهها كاد يطيش لها صوابها. لذلك ما عادت تغامر بأن «تنطق كفراً» كما تقول شقيقتها، حتى عندما تكون بمفردها، حتى عندما لا يسمعها أحد.

ها هو زكريا يدنو منها وفي يده عود من الريحان. دار حولها عدة مرات وهو يشير، بين الحين والآخر، إلى المصطبة الخشبية التي احتلت أحد أركان الباحة والتي اصطفت عليها أصص قرنفل وفلّ وريحان، أي «أثمن ما في الدار» على حد زعم سليم. مرّر الصبي العود تحت أنفه ثم دسّه في يدها بحركة مباغتة. وللمرة الأولى منذ وصوله إلى حلب أطلق ضحكة فرحة قبل أن يستأنف عدْوَه المحموم حول حوض الماء. ابتسمت لطيفة سعادةً ورضى، وألفت نفسها تردّد، على نحو لاشعوري: «إنها حقاً معجزة... إن عودة زكريا هي حقاً معجزة!».

-39-

«لا تقلق على روزين؛ فما من محنة إلا وخرجت منها منتصرة... إن ابنة عمنا لا تحزن أكثر من يوم واحد، ولا تحتاج إلى زمن أطول لتذليل المصاعب التي تعترض طريقها أو تهدد مصلحتها».

لئن أطلقت أديبة هذا الحكم بحق نسيبتها فتبديداً لمخاوف سليم الذي صارحها بقلقه على روزين: أفلم تغلب على أمرها، يا ترى، بموافقتها على خطوبة قد تكون، اليوم، نادمة عليها؟ فهي لم تبتسم، ولو لمرة واحدة، طوال مراسم الخطوبة. بدت كأنها غائبة عما يدور من حولها مع أنها محور الحفل الذي كانت دار حي الصليبة قد احتضنته ليلة الأمس. حفل ما ساده في الواقع جو من الحبور، بل تميز على العكس بقدر من الكآبة لجملة من الأسباب، بعضها جماعي الطابع، وبعضها الآخر فردي، ذاتي... فلا ريب في أن الظروف الصعبة التي يعيشها المهاجرون قاطبة قد ألقت بظلها الثقيل على الحفل. ولا ريب في أن الفواجع التي ألمّت بالأسرة لم تكن مؤاتية لسيادة المرح، وكم بالأحرى الغبطة والنشوة. فقد مكثت بهية قابعة في غرفتها تصلّي كي يبارك الله هذه الخطوبة؛ ولم تطلّ أديبة برأسها على الحفل، الدائر في صحن الدار، إلا للحظات محدودة، ريثما تقدم التهاني للخطيبين ولذويهما. أما سليم ويوسف، اللذان تواجدا في السهرة من البداية وحتى النهاية، نزولاً عند رغبة عمهما روفائيل، فلم يفرغا كأساً واحداً من العرق. لم يشربا إلا جرعة واحدة لحظة تقديم التهاني. بخلاف حنّا الذي راح يتجرع كأساً بعد الأخرى، وكأنه يسعى إلى إغراق حزنه في ذلك السائل الحارق. أما روزين فقد مكثت شبه صامتة طول السهرة، وهي التي لا تكفّ عن الثرثرة في الحالات الطبيعية. ولئن عزا الخطيب وأهله هذا الصمت إلى الحياء

المتأصل لدى عذراء لم تدخل الدنيا بعد، فإن أنسباء الخطيبة بالمقابل، بمن فيهم أمها، فسّروه على نحو مغاير. فبقدر ما سعى حنا إلى إغراق حزنه في العرق، سعت روزين بدورها إلى خنقه بالصمت. كانت كمن يؤدي دوراً في مطلق الأحوال. حتى المصاغ الثمين الذي قدمه لها الخطيب لم يفلح في رسم ابتسامة عفوية، مشعة، مشرقة على شفتيها. لقد شكرت عبود وأهله طبعاً، وعرضت المحبس والخاتم والإسوار والقلادة والقرط على كل من حولها، مثنية على مهارة الصنع، وسلامة الذوق، وجمال الشكل. غير أنها لو كانت تصف مصاغاً تلقته صديقة أو جارة لتكلمت عنه بحماسة أكبر. لم يرتعش صوتها ولم يختف الجمود عن ملامحها إلا لحظة تحرّشها بحنّا، لحظة استفزازه بالأحرى وتحديه على نحو سافر. فقد دنت منه وفي يدها الصينية الصغيرة التي اصطف عليها المصاغ؛ دعته إلى إبداء رأيه فتمتم، بصعوبة، بعبارة ثناء؛ فأتبعتها على الفور، وبرسمه، بتمنّيات تلقّاها المسكين كصفعات. فقد عبّرت عن أملها في أن يظفر، في القريب العاجل، بعروس حسناء يغدق عليها بهداياه الثمينة ويحيطها بعطفه ومحبته. «عروس تليق بك»، قالت وهي ترمقه بنظرة هازئة، جارحة، قاسية، تقصّدت أن تعطي لعبارتها عكس مدلولها. فكأن الفتاة تقول لابن عمّها المتخاذل، العاجز عن الخروج عن طاعة والده، والمطأطئ الرأس أمام صعوبات الحياة: «أنت لا تستأهل واحدة مثلي؛ فلو كان لديك ذرة من الرجولة لما هان عليك أن تكون شاهداً على زفّ من تحب إلى رجل آخر... المرأة التي تليق بك لن تكون من جبلّتي على الإطلاق؛ سوف تكون على شاكلتك أنت، وأنت أدرى بما هي!».

ندّت عن سليم ابتسامة وهو يتذكر ردة فعل زوجة عمه فريدة لدى سماعها عبارة روزين. فقد فسّرتها على أنها مديح صادق وصريح لابنها؛ اعتراف بخصائله الحميدة وصفاته المتعددة. لذلك سارعت تقول، وهي تضحك ببلاهة: «لست أدري إن كانت هنالك عروس تليق بحنّا... ربما وجدناها في إسكندرية مصر حيث الناس أكثر تحضراً...».

- ليست روزين بالفتاة المثالية، قال سليم موجهاً كلامه إلى أديبة؛ فهي حادة الطباع، سريعة الغضب، أنانية بما فيه الكفاية لتسبيق مصلحتها على مصلحة سواها. غير أني أكنّ لها كل الود رغم عيوبها! أحبها وأقّدرها لأنها صلبة ونابضة بالحيوية. صلبة لأنها تحب الحياة... إن روزين لا تحزن أكثر من يوم واحد، هذا صحيح. فهي تسعى أبداً وراء مخارج نجاة للإفلات من قبضة الغم والقنوط. ولكن ما ذلك إلا لأنها ترفض أن تُهزم، والاستسلام لليأس إقرار بالهزيمة... لا ريب في أن يوم خطوبتها لم يكن أجمل يوم في حياتها. فكلانا يعلم حقيقة مشاعرها... مع ذلك أبت أن ينتهي الحفل وهي مكسورة الخاطر. انتقمت لنفسها بهجومها المبّطن على حنّا، بتعاليها عليه وهو الذي فرّط بها...

- وماذا كان عساه يفعل، أجابت أديبة؛ فهو ليس بسيد أمره... والده هو الذي ينفق عليه. وقد صمّم العم رزق الله على الرحيل إلى مصر. لو خيّر حنّا بين البقاء في حلب وبين السفر إلى الإسكندرية، لما تردد لحظة واحدة...

وتابعت أديبة تقول:

- يخيل إلي أحياناً أن الناس على شاكلتين. فهنالك من يخرج، على الدوام، منتصراً من المآزق والمحن، وهنالك من يكون خاسراً على طول الخط... روزين تنتمي إلى الفئة الأولى، لا خوف عليها. بعكس حنا...

- وأنتِ؟ سألها سليم مرتبكاً، أين تصنفين نفسك؟

ومع أنها أمسكت عن إجابته فقد تابع يقول:

- أخشى أن نكون كلانا من الفئة الثانية... أعني من فئة المهزومين...

- لا أحب كلمة «مهزومين»، ردّت بحدة؛ فأن تخسر الغالي والثمين لا يعني أنك جبان ومتخاذل... المهزوم هو من يشعر أن لا حول له ولا قوة؛ في

حين أن الخاسر يدرك أنه لم يحصل على ما كان يصبو إليه، يتألم لأنه حُرم من مصدر سعادته، غير أنه يظل واثقاً من نفسه.

تردد سليم طويلاً قبل أن يسألها، وهو يتفادى النظر إليها:

- أهذا كان شعورك بعد مصرع عبد الجليل؟... لست أدري، في الحقيقة، ما يدور في خلدك يا أديبة. فأنت صموتة، بل منطوية على نفسك... ولأني أحترم رغبتك في عدم الكشف عن مشاعرك تفاديتُ الحديث الحميمي معك بعد المأساة التي حلّت بك... لم يكن موقفي صادراً عن لامبالاة أو عدم اكتراث، صدقيني. وإذ تصارحينني اليوم بقدرتك على تحدي الصعاب فإنك تبلسمين جرحك في صدري. ابقي هكذا، قوية، صلبة؛ ارفضي الانضواء تحت لواء المهزومين الذي اخترته أنا، مرغَماً، مستسلماً.

- ما هذا الكلام يا سليم؟! كيف تعتبر نفسك قد هُزمت وأنت لم تباشر بعد معركتك مع الحياة؟... أن تكون ظروفنا مأساوية، فهذه حقيقة يستحيل إنكارها. غير أن الطريق أمامنا ليست مسدودة. اُنظر إلى يوسف، إلى سرعة تأقلمه مع حياته الجديدة. لقد غدا موظفاً محترماً...

- لست على غرار يوسف، أجاب سليم محتداً؛ هو من طينة وأنا من طينة أخرى.

- ماذا تقصد بهذا الكلام؟ ألستما شقيقين؟

- أقصد أن يوسف يعتبر الحياة سلسلة من الواجبات يتعين عليه النهوض بها؛ في حين أريدها أنا عرساً دائماً، عيداً سرمدياً، فيضاً من الأفراح الصغيرة والكبيرة... أريدها...

- لقد تجاوزت العشرين يا سليم! فما هذه السذاجات؟... وحدهم الأطفال يحملون هذه الصورة عن الحياة. أطفال أيام زمان، أقصد،

لأن أطفال هذا الدهر الأسود قد بلغوا سن الرشد قبل تبديلهم أسنانهم...

ضحك سليم بمرارة وأومأ برأسه موافقاً. أولع سيجارة بعد ذلك وأخذ منها نفساً عميقاً اتبعه بكحّة قوية. وقبل أن تفتح أديبة فاها قطع عليها الكلام قائلاً:

- السيجارة مضرة، والعرق مضر، والاستسلام لليأس مضر أكثر وأكثر! حقائق بديهية لم يفتني إدراكها! غير أني مصرّ على التدخين، وعلى شرب العرق، وعلى مناجاة حزني؛ مصرّ على لعن حياة خيّبتني ودهر قهرني. لن أرفع شعار المواجهة والتحدي، فأنا لست بمصارع، بل شاعر؛ وشاعر على غرار عمي كريم. عمي المسكين! الذي ما أن آتي بذكره حتى يطفر الدمع من عيني!

ربتت أديبة على كتف شقيقها على غرار ما تفعل مع زكريا الصغير. فهي تعتبره في قرارة نفسها طفلاً. رجل البيت هو يوسف؛ يوسف الذي تتعامل معه بكثير من الاحترام مع أنه أصغر منها سناً. فيه تجتمع خصائل الشاب الأمثل؛ فهو صبور، جلود، رصين، ورع، وواسع الاطلاع علاوة على ذلك. لو كان سليم على غراره لكانت الأسرة أفضل حالاً؛ لما اضطرت، هي، ولا أمها، إلى أن تصل الليل بالنهار في الخياطة والحياكة والتطريز. سليم يريد الحياة عرساً؟... مشروع عظيم! ولكن من سيتحمّل نفقات هذا العرس الدائم؟ من سيتكفل بها؟ ذلك هو السؤال...

-40-

غصّت باحة الدار مع غروب الشمس بأهلها وبزوارها. فإلى جانب عائلات مسعود الثلاث، التي شاءت الصدفة أن يتواجد كامل أفرادها، كان هناك جرجس رشّو مع زوجته وبكره، عبود، وحنّا إسحق، القادم حديثاً من ديار بكر، وداوود هدايا وابنه شفيق الذي تربطه بسليم صداقة قديمة تعود إلى عهد طفولتهما في ماردين، وإبراهيم بدليسي وزوجته زهيدة اللذان باتا، منذ أيام، من قاطني حي الصليبة. كان حنا إسحق، الجالس في جوار العم روفائيل وفي قبالة سليم رشو، استقطب اهتمام الحضور؛ بحكم مكانته أولاً، وبسبب حديثه ثانياً. فعلاوة على كونه من أبرز وجهاء ديار بكر وأكثرهم ثراء قبل أن يعاني، بدوره، من نكبة الحرب وما لازمها من سلب ونهب وتهجير، فقد جاء بأخبار جديدة عن الديار والمعارف تلقّفها المتواجدون باهتمام، بل بشغف. كان يتكلم بصوت هادئ، رزين، وبوتيرة واحدة؛ لا ينفعل بما يرويه، حتى ولو فصّل في الكلام عن جريمة اغتصاب بشعة أو أورد دقائق مجزرة رهيبة؛ ولا يدلل عن ارتياح أو حبور حتى ولو جاء بذكر خلاص ضحية من مصير وخيم أو نجاة مساق من المساقين من موت أكيد. إن تنهد واحد من الحضور أو ندّت عنه عبارة استنكار أو استهجان، وافقه بحركة من رأسه؛ وإن صفق آخر وأعرب عن حماسته وغبطته، وافقه بالحركة عينها... وحدها فريدة لم تعر حديثه بالاً؛ لم تخصّه، بالأحرى، باهتمام دائب. فقد شغلها عنه أريج القهوة الطازجة التي تكلفت بطحنها؛ أريج أعادها إلى عهد السعادة واللامبالاة الذي نعمت به إلى أن اندلعت تلك الحرب المروّعة. إن «الخطيب»، أي عبود رشو، هو الذي جاء بالبنّ؛ حمله بالأحرى لحظة ولوجه إلى باحة الدار بصحبة والديه. كانت وديعة، أمه، قد صرّته في كيس ورقي،

بنّي اللون، وأوضحت، وهي تدعو ابنها لتقديم هذه «الهدية المتواضعة» إلى ملكة، أنها تولّت بنفسها تحميص البن. لتوّها. «لقد امتنعت عن طحنه مع ذلك، أضافت تقول، حتى لا أفقده شيئاً من نكهته؛ فأطيب بنّ هو الذي يصار إلى غليه فور طحنه». رأي وافقها عليه الجميع، وفي مقدمتهم فريدة التي تطوعت للنهوض بالمهمة. أحضرت، على الفور، طاحونة البن النحاسية وباشرت عملها، متنعمة بالأريج قبل أن تتمتع بالمذاق...

كان تحضير القهوة قد رسا على روزين لأن عبود، كما أوضحت أمه وهي تبتسم برضى، «يفضل أن يشربها من يد خطيبته». أمنية قابلتها هذه الأخيرة بينها وبين نفسها بالسخرية. مالت على سليم، الجالس إلى جوارها، لتهمس في أذنه: «كان حريّاً بابن خالتك أن يخصّني بهدية شخصية تفرحني، لا أن يحكم عليّ بالانزواء في المطبخ كي أخدم الحضور! فما عدد فناجين القهوة التي يتعين عليّ أن أحضّر؟ عشرون؟ ثلاثون؟ أربعون؟...». ضحك سليم وأجابها بصوت خفيض: «والأنكى من ذلك أنك سوف تسمعين، مع كل فنجان قهوة تقدمين، العبارة عينها: عقبال الفرحة الكبرى! سوف تسمعينها من الجميع، فيما عداي...». «وماذا ستقول أنت؟»، سألته بفضول. «سوف أترحّم على أحلامك»، أجاب سليم بين الجد والمزاح. فلكزته روزين في خاصرته ونهضت قاصدة المطبخ. «سوف أهتم بإشعال النار ريثما تنتهين من طحن البن»، قالت برسم زوجة عمها فريدة. عبارة ضاعت وسط موجة من التعليقات الساخطة والصاخبة قابل بها الحضور آخر ما رواه حنا إسحق من فواجع ومآسي. فقد حدّث المجتمعين عن فتاة أرمنية من ماردين، تدعى فارتوهي أروسيان، اشتراها شاب كردي من قبيلة المشكاوية وجاء بها إلى ديار بكر وفي نيته العقد عليها. كانت الفتاة تجمع بين عراقة النسب، وبهاء الشكل، وسعة الاطلاع: فقد أدخلها أهلها المدرسة الأميركية في ماردين وتخرّجت منها حاملة شهادة «الهاي سكول!...» أجل «الهاي سكول» كما ردّد حنا إسحق... وقد عزّ على تلك الصبية المرهفة أن تغدو زوجة لرجل فظ،

عديم الثقافة، بل شبه متوحش، فاستنجدت بضابط ألماني، برتبة «كومندان» تواجد في ديار بكر. كتبت إليه تناشده أن ينقذها من مصيرها البائس، فكان رد ذلك «الكومندان» العديم الناموس: أوافق على تلبية طلبك شرط أن تصبحي خليلتي!... ثارت ثائرة فارتوهي لدى قراءتها هذه العبارة، فردّت عليه قائلة: «خير لي أن أكون زوجة كردي أمّي ومعدم من أن أكون عشيقة ألماني بلا شرف ولا ضمير».

إبراهيم بدليسي، الذي بُلي بقامة قصيرة وبأنف ضخم تزيده بروزاً صلعته الرحبة، تجرأ أخيراً على مقاطعة حنا إسحق الذي ما فتئ يحتكر الكلام منذ لحظة دخوله إلى الدار. فبعد أن استوى في جلسته، واسترق النظر أكثر من مرّة إلى زوجته التي فاضت تكوراتها السخية عن كرسيها الخشبي واندلقت على بهية من صوب وعلى وديعة من صوب آخر، انبرى يقول: «ما رواه لي ناصيف آحو، الذي وصل إلى حلب مؤخراً، بعد إقامة طويلة في مخيم رأس العين، يقشعر له البدن... ما رواه لي لا يصدّق... فقد حدثني عن امرأة عاشت على مدى أيام في بئر تكدست فيها الجثث... أجل! كانت قد رميت في تلك البئر مع العشرات من البائسات من أمثالها من نساء السوقية الرابعة. بقيت وحدها على قيد الحياة رغم جروحها البليغة. وظلت المسكينة تقتات من الجيف المحيطة بها إلى أن تفسّخت وضربت فيها النتونة. كانت تبكي وتصرخ وتئن في عراء موحش وتتضرع إلى الرب كي ينقذها من الكابوس الرهيب الذي تعيش. وقد شاءت الصدفة أن يمرّ بدويّ بجوار البئر؛ سمع نحيباً صادراً عنها فأدرك للفور حقيقة الأمر. ذلك أن جميع الآبار، والمغائر، والصهاريج، والأحواض المنتشرة من أقصى الولايات الشرقية إلى أقصاها، بل لغاية دير الزور، قد تحولت إلى مدافن جماعية. وكثيراً ما يحصل أن يرمى فيها بائسون لا يزالون على قيد الحياة، لأن الجلاّدين، المطالبين بتصفية المساقين بالجملة، لا يتحققون من مصرعهم قبل أن يكدّسوهم في بئر أو وادٍ. ولحسن الحظ كان ذلك البدوي رجلاً شهماً،

طيب القلب. بادر على الفور إلى خلع عباءته وإلى رميها للمرأة كي تستر بها عريها، إذ من عادة مرافقي السوقيات أن يجرّدوا ضحاياهم من كل ما يملكون، بما فيه الثياب؛ مدّ لها، بعد ذلك، حبلاً ونجح، بعد طول جهد، في سحبها خارج البئر. وقد واظب ذلك البدوي الخلوق على معالجتها والاعتناء بها إلى أن استردت عافيتها. وما أن سمع الأسقف تبوني بقصتها حتى أرسل من يكافئ البدوي ويحضرها إلى ماردين حيث غدت تعيش تحت حمايته».

تدخّل هنا جرجس رشو ليقول:

- إن الأسقف تبوني يدفع مجيدية واحدة لقاء عتق طفل مسيحي وقع في الأسر؛ وقد دفعنا، نحن، ليرة عثملية لقاء بطاقة قطار واحدة من رأس العين إلى حلب! يعني أن قيمة بطاقة قطار تفوق أضعاف أضعاف قيمة إنسان!

فقاطعه حنا اسحق قائلاً:

- أنت دفعت ثمن البطاقة الواحدة ليرة عثملية، أما أنا فأربع...

- ولماذا؟ سأل جرجس رشو بفضول.

- لأن سعر البطاقة تضاعف مرتين بين عشية وضحاها، أجاب حنا إسحق؛ فسعة القطار محدودة والراغبون في مغادرة رأس العين في ازدياد مطرد.

- لكن هذه البلدة آمنة، لاحظ روفائيل؛ لقد استقبلت عشرات الآلاف من الأرمن المهجّرين ووفرت لهم شروط حياة مقبولة... لقد مررنا بها قبل بضعة أشهر وشاهدنا بأم أعيننا مخيمات الأرمن وأسواقهم ومتاجرهم.

ابتسم حنّا إسحق بمرارة وأجاب:

- لقد تبدلت الأحوال مع الأسف... فقد راجت شائعات قوية في الآونة الأخيرة تفيد بأن قائمقام رأس العين الحالي، يوسف ضياء بك، سوف يُنقَل إلى مركز آخر وأن القائمقام الجديد، الذي سوف يحلّ مكانه،

لا يتبنى على الإطلاق نهجه المتسامح وسياسته الإنسانية. والواقع أن والي ڤان الأسبق، جودت بك، الذي عُيّن مؤخراً والياً على أضنة، كان قد مرّ برأس العين وهو في طريقه إلى مركز عمله الجديد. وقد استغرب وجود ما يقارب من خمسين ألف مهجّر أرمني فيها، واستاء واغتاط من شروط معيشتهم المعقولة... لذلك لم يوفر جهداً، وهو المعروف بنزعته الدموية وبدعوته إلى تصفية الأقليات على مختلف طوائفها، كي يحمل السلطات المسؤولة على تصحيح ما اعتبره «وضعاً شاذاً». وقد وفّق في مسعاه على ما يبدو، بحسب الشائعات الرائجة على الأقل.

وأضاف حنا إسحق بعد أن أولع السيجارة التي قدّمها له روفائيل:

- لقد لمست، شخصياً، بداية تحوّل على الأرض خلال فترة إقامتي في رأس العين. فسلطة القائمقام الشهم، يوسف ضياء بك، أخذت تتقلص وتتراجع فيما راح نجم المختار حسين بك يعلو ويتألق. وحسين بك، الذي غُمس في جرائم التعذيب والقتل حتى أذنيه، لم ولن يرتوي من دماء الأرمن، ولا من أرزاقهم وأموالهم.

«لا حول ولا قوة إلا بالله!»، صاح جرجس رشو وهو يضرب كفاً بكف.

تدخّل هنا يوسف ليقول:

- ما تفضل به السيد حنّا صحيح بلا أدنى شك؛ غير أن ثمة سبباً آخر في رأيي قد حث المقيمين والمتواجدين في رأس العين على الإسراع بمغادرتها. فقد علمتُ من ضابط نمساوي، حلّ نزيلاً في فندق بارون، أن التيفوس قد تفشّى في ماردين وأن هذا الداء الرهيب غدا يحصد يومياً العشرات من الضحايا. وماردين غير بعيدة عن رأس العين، ويمكن قطع المسافة الفاصلة بينهما سيراً على الأقدام خلال مدة أقصاها ثلاثة أيام. لذلك فإن الداء الذي استفحل في الأولى قد ينتشر في الثانية.

- ولكننا احتجنا إلى وقت أطول لبلوغ رأس العين، اعترضت لطيفة التي كانت تتابع حديث الكبار ببالغ الاهتمام.

ابتسم يوسف وأجابها موضّحاً:

- الشباب لا يحتاجون إلى أكثر من ثلاثة أيام؛ أما النساء والأطفال فوضعهم مختلف.

- ما هذا التيفوس الذي تتحدثون عنه، سألت فريدة؛ فأنا لم أسمع به على الإطلاق حتى الآن! هل هو نوع من الجرب؟ أو من الحصبة؟...

- ومتى كان الجرب أو الحصبة يحصدان الناس بالمئات، أجابها رزق الله زاجراً؛ إن التيفوس شيء آخر؛ إنه مرض لعين!

- بالفعل، أكدّ يوسف؛ إن الصورة التي أعطاني إياها عنه ذلك الضابط، الذي يتكلم العربية بالمناسبة، مخيفة بكل معنى الكلمة؛ فهو داء لا يرحم، يقضي على مَن يُصاب به خلال ثماني وأربعين ساعة. جسم المريض يصفّر، وأسنانه تتساقط؛ أما الأوجاع التي تنتابه فلا تحتمل؛ لذلك تراه يطلب الموت لأن فيه الخلاص من عذاباته.

- أدخلتَ الرعب إلى قلوبنا يا يوسف، صاحت ملكة؛ هل تريدنا أن نرتهب الآن من التيفوس وقد أزحنا لتوّنا عن صدرونا الخوف من السلب والنهب والقتل؟

- ولماذا نرتهب من التيفوس، سألت فريدة بسذاجتها المعهودة.

- لأن هذا الداء قد يصيبنا بدورنا، ردّت ملكة؛ لأنه قد ينتشر في حلب أيضاً...

- لقد حصلت بعض الإصابات هنا في الواقع، أوضح يوسف؛ غير أنها لا تحتمل المقارنة مع ما يحصل في ماردين ونصيبين وديار بكر وسواها من بلداتنا وقرانا... لقد استفحل هذا الداء في صفوف الجيش التركي على وجه الخصوص. ففي نصيبين، حيث أُنشئ مشفى برسم العسكر المتوّجهين إلى بغداد، ما عاد ينقضي يوم دون أن يودي التيفوس

بحياة أربعين أو خمسين جندياً.. وقد نفدت الأكفان في أسواق المدينة فباتت تُطلب من ماردين وقلعة المرأة...

- الشماتة ليست من عادتي، قال روفائيل؛ ولكن ليذق الجلاّدون ما أذاقوه لسواهم!

- إنه غضب الله، زادت وديعة؛ فالباري، عز وجل، يثأر للضحايا البريئة.

وافقها حنا إسحق بحركة من رأسه قبل أن يقول:

- لقد نُقل إليّ على لسان أحد وجهاء ماردين من المسلمين هذا القول البليغ والمؤثر: «إن لم تعاقب السماء المسلمين على جرائمهم فإني قد أشك في وجود الله!...».

تدخل هنا إبراهيم بدليسي ليقول:

- هنالك خطر آخر يتربص بالعسكر، والشتوات، وبعناصر الميليشيات، وبالجلادين على مختلف أنواعهم؛ هنالك الروس الذين باتوا يهددون باجتياح الولايات الشرقية والذين سيثأرون للأرمن حتماً.

- ولماذا؟ استفسر عبود رشو الذي كان قد لزم الصمت منذ دخوله الدار.

رمقه والده بنظرة عاتبة وأجابه بنبرة من يسلّم بحقيقة بديهية:

- تسأل لماذا؟... لأن المصائب التي حلّت بالأرمن هي بسبب الروس! فهم لم يُضطهدوا، ويُهجَّروا، ويُقتلوا إلا بحجة تآمرهم مع الروس الذين وعدوهم بدولة مستقلة على حد ادعاء الدوائر العليا في اسطنبول.

- وهل لهذا الادعاء أساس من الصحة؟ استفسر يوسف.

هز جرجس رشو كتفيه قبل أن يجيب:

- من يدري؟... ربما... فالأرمن يتوقون إلى التحرر من النير العثماني أسوة بسواهم... ومن يسعَ إلى التحرر من دولة عظمى يضطر إلى الاعتماد على دولة عظمى أخرى!

وخفض جرجس رشو صوته قبل أن يضيف:

- إن العرب، بدورهم، أخذوا يتحركون... في سوريا، في لبنان، بل في الحجاز أيضاً. بعضهم فتح خطاً على الفرنسيين، وبعضهم الآخر على الإنكليز... هذا ما أفادني به تاجر معروف من حلب.

- يا ساتر يا رب! صاحت بهية؛ إلى أين نهرب إذا ما تقرر تهجير العرب أيضاً؟ هل سأفقد زكريا من جديد؟...

- مهلك! أجابها جرجس رشو؛ فالعرب ليسوا في وضعية الأرمن! أراضيهم شاسعة وأعدادهم ضخمة... ليسوا بالأقلية المتواضعة الحجم كيما يصار إلى اقتلاعهم من أوطانهم وإلى تشريدهم في البراري!

- لكنه قد يحصل! عقّب سليم.

- ولماذا لا تحذون حذوي؟ سأل رزق الله؛ لماذا لا تختارون الاستقرار في مصر فتنعموا بالأمان بعيداً عن الأتراك وشرّهم؟

- ومتى سوف ترحل مع العائلة؟ سأل إبراهيم بدليسي.

- بعد غد، أجابت روزين، التي وقفت وسط الباحة حاملة صينية كبيرة فوقها فناجين القهوة؛ بعد غد، أضافت، سيغادرنا العم رزق الله مع أسرته. والله وحده يعلم متى سيقدّر لنا رؤيتهم من جديد.

ونظرت ناحية حنّا وهي تتفوه بالعبارة الأخيرة. وتنطع شقيقها بهجت للتعقيب على كلامها فقال:

- ربما بعد أن تكوني أصبحت أماً لطابور من الأولاد.

ضحك جرجس رشو لدى سماعه هذا الكلام، واحمرّ وجه ابنه عبود؛ أما حنّا فشحب لونه وبدت البلبلة واضحة على ملامحه. رأف ابن عمه سليم لحاله فبادر إلى تغيير الحديث. قال، مخاطباً روزين:

- دخّنا من رائحة قهوتك، فمتى تمنّين علينا برشفة؟

وشرعت روزين للحال بتوزيع الفناجين، مبتدئة بالزوار طبعاً. وعندما أرادت تقديم فنجان إلى سليم اهتزت يدها قليلاً فاندلق السائل الحارق على

قميص ابن عمها وبنطاله. ندّت عنه صرخة احتجاج فيما كانت ملكة تردد: «بسيطة!... بسيطة... إن اندلاق القهوة فأل خير!...».

- بل إنه فأل خطوبة وشيكة، زادت روزين وهي ترمق ابن عمها بنظرة ماكرة.

- خطوبة من؟ سأل بهجت.

- خطوبة سليم طبعاً، أوضحت روزين.

- ومن سأخطب، سألها الشاب بصوت خفيض.

- أنت أعلم الناس بالموضوع، همست له وهي تبتسم؛ سوف تخطب الفتاة التي بإمكانها أن تسقيك قهوة فاخرة صباحاً وظهراً ومساء، أعني...

فصاح سليم بنزق:

- عدلت عن شرب القهوة!

- ولماذا؟ سألت فريدة؛ لماذا يعدل سليم عن شرب القهوة؟

- خوفاً من الزواج، أجابتها روزين وهي تكبت ضحكتها.

نهرها والدها قائلاً:

- ما هذا الكلام الفارغ! نحن نبحث في مواضيع خطيرة، جادة، مصيرية، وأنت تهذرين وتتندرين على ابن عمك!...

وقبل أن تفتح ملكة فمها لتدافع عن ابنتها انبرى عبّود رشو يقول:

- ألا يحق للشباب أن يروّحوا عن أنفسهم قليلاً؟... لقد سئموا من حديث الكوارث والفواجع.

وتردد عبود، الرزين والخجول والصموت، قبل أن يضيف وهو يتفادى النظر إلى خطيبته:

- لقد فُطرت روزين على المرح، وهذه صفة من جملة صفاتها العديدة.

ابتسم روفائيل راضياً لدى سماعه هذا الثناء، وانفرجت أسارير ملكة التي خشيت أن يكون لتأنيب زوجها وقع سلبي عند أسرة الخطيب، وغمر

صدر وديعة شعور بالسعادة والاعتزاز إزاء الرجولة التي دلّل عليها بكرها.

أما روزين فخاطبت نفسها قائلة: قد لا يكون الزواج من عبود رشو مصيبة عند التحليل الأخير!...

-41-

- لكأنهم قد رحلوا منذ أشهر!...

تنهّدت ملكة وهي تتفوّه بهذه الكلمات، فأجابتها بهية موافقة:

- أجل... إن الدار تبدو فارغة مع أننا لا نزال فيها كثُراً.

وأضافت بعد هنيهة، وهي تبتسم بحياء:

- ما كنت أظن أن فراق فريدة سيصعب عليّ إلى هذا الحد!... لا تمضي لحظة من دون أن تخطر على بالي... أرى صورتها حيثما نظرت وأسمع صوتها حيثما توجهت.

ضحكت ملكة وقالت:

- كيف لا وهي لا تكفّ عن الحركة ولا عن الكلام!... علاوة على قدرتها على إثارة الضحك من حيث لا تدري... فملاحظاتها وتعليقاتها وأسئلتها الساذجة كانت تخفف من سوداويتنا؛ تدخِل نفحة من الفرح إلى جلساتنا، فلكم أضحكتنا وضحكت معنا!

- ولكم تندّرنا على طهوها، زادت بهية؛ على عجزها عن إعداد طبق ينال رضى ذويها. فحتى لو أنفقت ساعات طوالاً في المطبخ تجبل الكبة، أو تحشو الكوسا، أو ترقّ عجين الشام برك، لما استحقت من رزق الله سوى عبارته المألوفة: طعامك يا فريدة لا نكهة له ولا مذاق!

- عبارة كانت تستقبلها على الدوام بضحكة رنّانة، وكأن بعلها يغازلها بها!... والواقع أن فريدة قد فطرت على الضحك. ولئن ذرفت دموعاً سخية قبيل رحيلها، فقد ودّعتنا بضحكة لحظة الفراق!

- ضحكة لن نسمعها قبل سنوات وسنوات، هذا إذا ما قيّض لنا أن نسمعها من جديد...

- اتقي الله يا بهية، صاحت ملكة؛ فمصر ليست آخر الدنيا. ثم مَن يدري، فقد ترحلين إليها بدورك. فقد سمعت سليم يكلّم روفائيل عن رغبته في الذهاب إلى الإسكندرية، فلعل فرص العمل فيها أفضل.

- آه من سليم! أجابت بهية؛ ففرص العمل لا تتوفر، في نظره، إلا حيث لا يقيم! أفلم يقصد حلب، عندما كنا لا نزال في ماردين، بحجة أن شروط العمل فيها أفضل؟ والآن، وقد اجتمعنا في حلب، بدأ يفكر بالرحيل إلى الإسكندرية! وإلى أين يذهب بعد ذلك؟ إلى أميركا؟ إلى الصين؟

- ومن الذي سيذهب إلى الصين؟ سألت روزين الوالجة للتو إلى المطبخ الذي ضم أمها وزوجة عمها.

- ما من أحد، ردت بهية وهي تبتسم؛ كنا نتكلم عن فريدة وانقدنا إلى الحديث عن سليم، عن عجزه عن إيجاد عمل يناسب...

- إن وضعه صعب، قالت روزين؛ يعزّ عليه أن يكون مأموراً، ويتعذر عليه أن يكون ربّ عمل!

- وماذا يفعل؟ سألت بهية؛ يفتح فمه للريح وينتظر أن تسقط اللقمة فيه؟ عليه أن يعمل أسوة بسواه... أسوة بشقيقه الأصغر... أسوة بأديبة التي أرهقت نظرها في الحياكة والخياطة... فمنذ أن قدمنا إلى حلب ووالدك يتكفل بدفع إيجار البيت عنه وعنّا... فإلى متى سيظل الرجل يتحمّل هذا العبء؟

- ما هذا الكلام؟ اعترضت ملكة؛ نحن عائلة واحدة، وأولاد زكريا هم أولاد روفائيل.

- ولماذا لا يتزوج سليم؟ سألت روزين.

- يتزوج! أجابت بهية مذهولة؛ كيف يقدم على بناء أسرة وهو عاجز عن تأمين معيشته؟... إني لأستغرب اقتراحك يا روزين؛ فقد عرفتك،

على الدوام، حكيمة في آرائك... إن سليم لفي أمسّ الحاجة اليوم إلى عمل يرتزق منه لا إلى زوجة ينفق عليها!

- وهل حتّم على الزوج أن ينفق على زوجته، ردّت روزين. إن سليم شاب خلوق، وسيم، لطيف المعشر، سليل أسرة عريقة، وإني لعلى يقين من أن أكثر من فتاة ميسورة واحدة ترغب في العقد عليه!

ضحكت بهية وقالت:

- لم تتقدم فتاة حتى الآن بطلب يده... إن كنتِ واثقة مما تقولين فاهديني إلى واحدة من أولئك الميسورات الراغبات في سليم.

- مريم ابنة شقيقتك وديعة، أجابت روزين وهي تحدّق في وجه زوجة عمها؛ لست أدري إن كانت مغرمة به، غير أنها راغبة فيه بكل تأكيد. وأمها أيضاً...

-42-

- لست أدري كيف وافقتُ، مبدئياً، على هذه الخطوبة؟ كيف رضختُ، بالأحرى، لتوسلات أمي ولحججكِ أنت؟ أمي التي بكت وانتحبت عندما فاتحتها برغبتي في السفر إلى الإسكندرية، وأنتِ التي سددت منافذ النجاة كافة في وجهي، فيما عدا منفذ آل رشّو!... إني أكنّ الودّ لمريم؛ فهي ابنة خالتي، ولكني لا أحبها ولن أحبها. فأية حماقة اقترفتُ عندما تقدمتُ بطلب يدها!...

أطلق سليم تنهدة طويلة قبل أن يعمد إلى لفّ سيجارة وزجّها بين شفتيه. كانت روزين، الجالسة قبالته في باحة الدار، تصغي إليه بإمعان. وقد أخذت كامل وقتها قبل أن تجيبه قائلة:

- لم تقترف حماقة يا سليم، بل تصرفت بحكمة، خلافاً لعادتك. فعمَ تخليت بخطوبتك ابنة خالتك؟ عن أحلام وأوهام... ولقاء ماذا؟ لقاء حياة آمنة ورغيدة!... مأخذك الأول على مريم أنها ليست جميلة. ولكن هل جمال الزوجة شرط لا غنى عنه؟
- طبعاً؛ وإلا فما طعم الزواج؟... لقد بليت، شخصياً، بعشق الجمال، بتعبّده، وقد عقدت آمالي على الزواج كي أمتلكه. إن الاقتران بمريم يعني التشطيب على حلم حياتي!
- وهل هذا زمن الأحلام يا سليم، أجابته روزين ناهرة؛ أنت تتكلم وكأننا لا نزال نعيش في ماردين ما قبل الحرب، ننعم بازدهار بلدنا وثراء أسرتنا. لقد ولّت تلك الأيام يا سليم؛ ذهبت ولن تعود.
- يا حسرتي عليها! ويا حسرتي علينا! إننا قليلو الحظ يا روزين... لقد حُرمنا من نصيبنا من السعادة...

- لا تندب حظك؛ فلئن حرمت أنت من نصيبك من السعادة، فقد حرم سواك من حقه في الحياة!

خفض سليم رأسه ولزم الصمت للحظات؛ قال بعد ذلك، وهو يتفادى النظر إلى ابنة عمه:

- إني لأستحق التأنيب في الحقيقة؛ أتصرف كطفل يصر على تجاهل الواقع؛ فكأن ممدوح لم يُقتل مع زوجته؛ وكأن صديقي عبد الجليل سيوفي لم يذق أمرّ العذاب قبل أن يلقى وجه ربه؛ وكأن أرواح المئات من الضحايا البريئة لا تُزهق يوميا بلا رحمة ولا خجل؛ وكأن مئات الآلاف من البشر لم يشرَّدوا على دروب الهجرة... أتراني أنانياً؟ لست أدري. ربما... ولكن الشيء المؤكد هو كوني ضعيفاً، عاجزاً عن مواجهة تحديات تفوق قدرتي على التحمّل...

ابتسمت روزين وعقبت قائلة:

- لهذا السبب أقنعتُك بالعقد على مريم! فهي ليست ثرية فحسب، بل قوية أيضاً؛ إنها العكاز الذي تحتاج إلى الاتكاء عليه كيما تتابع مسيرتك في الحياة. فقد أُعطبنا يا سليم! أنت وأنا وسائر أبناء جيلنا...

- وما الفائدة من متابعة مسيرة الحياة إن جُرّدت هذه الأخيرة من إغراءاتها كافة؟

- نتابعها في سبيل من سيأتي من بعدنا؛ في سبيل زكريا الذي قام من بين الأموات ليعيد إلينا الأمل... ونتابعها أيضاً إكراماً لكفاح ومعاناة من جاء من قبلنا؛ إكراماً لعمنا الكسيح الذي شجعنا على رحيل يحكم عليه بوحدة قاتلة؛ إكراماً لأهلنا الذين تخلوا عن أرزاقهم وغامروا بأرواحهم بأمل منحنا فرص حياة أفضل.

صمتت روزين لحظة قبل أن تضيف:

- ونتابع تلك المسيرة أيضاً إكراماً لأنفسنا... أجل... فإن مضينا قُدماً نكن قد رفضنا الهزيمة... تغلبنا عليها... أبَينا الركوع...

هزّ سليم رأسه مراراً قبل أن يقول:

- لقد شبّهتِ مريم بعكاز أعتمد عليه حتى أتحاشى السقوط؛ أما أنت يا روزين فخليقة بأن تُشبَّهي بعكازين لا بعكاز واحد!

ضحكت الفتاة وربتت بيدها على كتف ابن عمها في حركة ودية. فتابع هذا الأخير يقول بلهجة تأرجحت بين المزاح والجد:

- أليس من الأفضل الاعتماد على عكازين لا على واحد؟...

أدركت روزين قصده فأجابته ناهرة:

- كفاك هذراً! أنت ابن عمي...

- وحنّا؟ أليس ابن عمك هو الآخر؟... فهل حالت علاقة القربى هذه دون أن تعقدي الآمال عليه؟

- وضعك يختلف يا سليم؛ فأنت بمثابة شقيق لي. حتى إني لأشعر أحياناً بأنك أقرب إليّ من بهجت... إني أصارحك بما لا أصارح به سواك.

ابتسم سليم وأجاب:

- أجل، كنت كاتم أسرارك وأنت لا تزالين طفلة. ما زلت أذكر كيف كنت تأتين إليّ لدى عودتك من المدرسة وتبوحين لي، بعد أن أكون أقسمت بالحفاظ على سرك، بأنك قد شددت على شعر فهيمة مالو لأنها كانت ترتدي جلباباً جديداً، أو نقلت وظيفة حساب عن زكية لحدو، الأولى في الصف، لأن الراهبة هددتك بعقاب شديد إن لم تأتِ أجوبتك صحيحة...

- لا، لم أكن أنقل عن زكية وظيفة الحساب... بل الإملاء باللغة الفرنسية! كانت المسكينة تحاول أن تخفي دفترها عني، ولاسيما بعد أن لاحظتْ الراهبة أننا ارتكبنا الأخطاء عينها فعاقبتنا كلتينا! ولكن طول قامتي كان يحول دون نجاح مسعاها. بقيت أنقل عنها وبقيت هي تتحمل عواقب سلوكي...

ضحكت روزين وهي تتفوه بالعبارة الأخيرة، فعاتبها سليم قائلاً:

- وما ذنب زميلتك إن انعدمت معرفتك أنت بالإملاء الفرنسية؟ لماذا حكمت عليها بأن تدفع ثمن جهلك، أو بالأحرى كسلك؟

- لماذا؟ تسأل لماذا؟ حسنا، سأجيبك بصراحة يا ابن عميّ: لأني كنت، ولا أزال، أسبّق مصلحتي على مصلحة الجميع.

وأضافت وهي تحدّق النظر في وجه سليم:

- وأنت الآخر على شاكلتي؛ كل ما في الأمر أنك تخشى مواجهة حقيقة مشاعرك فتسعى إلى تمويهها بشتى الوسائل والحيل؛ تحاول أن تخدع نفسك قبل أن تخدع الآخرين... فلأنه يصعب عليك الاعتراف بأنانيتك، بتنصلك من مسؤولياتك، تراك ترمي اللوم على الدهر تارة، وعلى سوء حظك طوراً؛ وفي كلتا الحالتين تلجأ إلى الكحول لإغراق حزنك. أو، بتعبير أصح، للترفيه عن نفسك!... أجل، لطالما راقبتك وأنت تتجرع كؤوس العرق تباعاً. تتنهد وتتحسر مع الكأس الأولى، وتغنّي وتنشد الأشعار مع الرابعة أو الخامسة.

- وهل ينبغي أن أنقطع عن شرب العرق أيضاً، قاطعها سليم بحدّة؛ هل حُرّم علي الانشراح حتى ولو لجأت إلى الكحول لبلوغه؟

- أبداً، ولكن كؤوس الكحول لا تُملأ من السبيل العام؛ يتعين دفع ثمنها عداً ونقداً. وأنت تعرف ذلك تماماً. ولأنك تعرف ذلك تماماً وافقت على خطوبة مريم. فلا تؤرقنا بعد اليوم بتساؤلاتك وبشكوكك بصدد تلك الخطوبة التي ما فتئتَ تصوّرها وكأنها فُرضت عليك قسراً. فهل سمعتني يوما أتبرم بعد خطوبتي من عبود؟ علماً بأن وضعي أصعب من وضعك بكثير. فقد تخليت أنت عن صورة للمرأة حملتها في مخيلتك، أما أنا فقد تخليت عن وجه هو من لحم ودم...

وارتجف صوت الفتاة وهي تتفوه بالكلمات الأخيرة؛ وقبل أن يبادر سليم إلى تطييب خاطرها بعبارة لطيفة، بالتفاتة ودّية، سارعت تغادر بحجة موعد مع الخياطة. فتنهّد الشاب حسرة عليها وعلى نفسه، وهمّ بلفّ سيجارة جديدة.

-43-

- ما بك؟ سألت بهية بصوت مضطرب وهي تحدّق في وجه يوسف الذي تلبّسه شحوب شديد.
- لا شيء! أجاب الشاب وهو يخلع سترته ويطلب من شقيقته الصغرى أن تحضر له كأساً من الماء.

سحب كرسياً بعد ذلك وجلس إلى جانب عمه روفائيل. كانت الأسرة مجتمعة في قاعة الدار الكبرى، متحلقة حول طاولة مستديرة انشغلت روزين وأديبة بصفّ أطباق العشاء فوقها. أحضرت لطيفة كأس الماء على عجل فشربها الشاب ثم قال، وهو يتظاهر بالحماس والاغتباط:

- لديّ أخبار طيبة عن عمتي وردة: لقد أصبحت في زحلة مع عائلتها!... فقد نجح خليل نعمة في مغادرة جحيم ديار بكر مع كامل أفراد أسرته، وفي تأمين وصولهم آمنين إلى تلك البلدة الجبلية التي تشبه ماردين من حيث المناخ على ما سمعت.
- ومن أنبأك بذلك؟ سأل العم روفائيل باهتمام بالغ.
- مُزارع يدعى عبد الله سفر؛ إنه من ديار بكر هو الآخر، وقد غادرها بصحبة خليل نعمة الذي واصل سفره إلى لبنان في حين توقف هو في حلب... لقد التقيته في ساحة باب الفرج حيث...

ولم تدعه ملكة يتم عبارته إذ قاطعته قائلة:

- ولماذا لم تمر علينا وردة حين وصلت إلى حلب؟ لماذا لم تحاول حتى السؤال عنا؟...
- لظروف قاهرة ولا بد، أجابها روفائيل؛ فربما لم تتوقف مع أسرتها في حلب إلا لساعات معدودات؛ ربما لم تغادر المحطة بل بدلت فيها قطاراً بآخر!...

وتابع روفائيل بعد برهة:

- وما دخل يوسف بالموضوع أصلاً؟... هل التقى بوردة أو بخليل كي يقف على أسباب مغادرتهم السريعة لحلب؟... المهم أن وردة وعائلتها قد أصبحتا الآن في أمان.

سليم الذي كان يدمدم وهو ينقر بأصابعه على سطح الطاولة تدخّل ليقول، موجهاً كلامه ليوسف:

- تبشّرنا بخبر مفرح وعلى وجهك قناع من الحزن! فلماذا أنت مضطرب إلى هذا الحد؟ هل هنالك مواضيع أخرى تخفيها عنّا؟ هل أنبأك ذلك المزارع بأحداث وتطورات مثيرة للقلق؟ فلو صادفت إبليس وأنت في طريق عودتك إلى البيت لما كانت بلبلتك أشدّ.

أومأ يوسف برأسه ولم يجب.

فتدخّلت هذه المرة أديبة لتقول:

- شغلت بالنا... هل أصابك مكروه؟ هل واجهت مشاكل في عملك؟ هل اعتدى أحدهم عليك؟

- لا، لا، لست أنا المعني. ولكن ما سمعته من عبد الله سفر جعل الدمع يطفر من عينيّ، والحزن يعصر قلبي. فقد حدثني عن التعذيب الذي أُخضع له وجهاء الأرمن في ديار بكر، من قادة أحزاب الطاشناق والهنشاق والرامغافار، إلى نخبة المتعلمين، بل حتى كبار الموظفين؛ كدت لا أصدّق أذنيّ، علماً بأن ما سمعناه حتى الآن عن المجازر والجرائم الوحشية التي تُقترف يومياً، وما عانينا منه داخل أسرتنا بالذات، خليق بأن يجعلنا نتآلف مع همجية السلطات، فلا نستغرب فظاعاتها وممارساتها الرهيبة.

وصمت يوسف للحظات قبل أن يتابع قائلاً:

- إن المتحكمين برقاب أهل ديار بكر تجاوزوا كل الحدود في تعدياتهم على الأبرياء. تصوروا أنهم قد ركّبوا نعالاً من حديد على أقدام

مجموعة من الشبّان الأرمن! أجل، دقّوا المسامير في لحمهم وعظامهم وعاملوهم وكأنهم بهائم! وهناك شاب من أسرة بصمجيان أُخضع لألوان لا توصف من التعذيب وقضى بعد أن غُرست مسامير محمّاة بالنار في صدره. شاب آخر من أسرة نعلبنديان سُحقت رأسه بين فكّي كمأشة معدنية كبيرة. شباب صُلبوا وآخرون ذُبحوا ثم قطعت أوصالهم وعلّقت كالذبائح في دكاكين القصابين وعرضت للبيع من باب السخرية والتنكيت!

- كفى! صاح سليم وهو يضرب بيده على الطاولة: كفى، ما عدت أقوى على سماع المزيد!

تفوه بهذه الكلمات وراح يجهش بالبكاء، فتبعته روزين وبعدها أديبة. أما بهجت فصاح بلهجة غاضبة:

- نحن مغفّلون، أغبياء، بل مجانين!... توهمنا بأننا سنصحو من الكابوس الذي عشنا بمجرد وصولنا إلى حلب! وقد تخلينا عن أملاكنا وأرزاقنا وغامرنا برحلة شاقة، محفوفة بالأخطار، كيما نبلغ هذا الهدف. ولكن بحق الله وبحق جميع القديسين: هل عرفنا راحة البال خلال إقامتنا في حلب؟ هل انقضى يوم واحد منذ وصولنا إليها من غير أن نسمع خبراً يقف له شعر الرأس؟ وهل غدونا حقاً في أمان لأننا أتينا من مدينة خاضعة للحكم العثماني إلى أخرى خاضعة للحكم عينه؟ مَن يملك ذرة من العقل يرحل نحو شواطئ نائية، نحو أقطار لم تسمع يوماً ببني عثمان! من يملك ذرة من العقل يبحر باتجاه العالم الجديد، يسافر إلى كندا، إلى التشيلي، إلى البرازيل، إلى أي بقعة من العالم تفصلها المحيطات الشاسعة عن اسطنبول وحكامها. فلماذا نبقى هنا؟ ما الذي يربطنا بهذه المنطقة؟ أهو عداء أهلها المتأصل لنا؟ لقد فقدنا ممدوح ولم نستخلص الدرس بعد!

نظر بهجت بارتباك إلى زوجة عمّه بهية بعد أن تفوه بعبارته الأخيرة،

مدركاً فداحة الهفوة التي ارتكب. ذلك أن الأسرة كانت قد اعتادت على تفادي ذكر الراحل في سياق الحديث عن جرائم الحكم وفظاعاته، حتى لا ينكأ جرح أمّه من جديد. بيد أن بهية استقبلت صرخة غضب الشاب بابتسامة حزينة وفاجأته برفضها القاطع لموقفه الانهزامي.

- تسأل يا بهجت ما يربطنا بالمنطقة، قالت؛ وهل هذا سؤال يُطرح؟ فبأي لغة تتكلم؟ وبأي لغة تغني؟ وبأي لغة تصلّي؟ بل ما اسمك، وما اسم أبيك، وما اسمي أنا؟ هل نحن أغراب في هذه البلاد؟... نحن أبناؤها، شأن سوانا، بل نحن أبناؤها الأبكار وحقوقنا عليها، بالتالي، أعظم، وواجباتنا تجاهها أجسم...

وتنهدت بهية قبل أن تضيف:

- نحن نعيش مرحلة عصيبة، هذا صحيح. لكننا لا ننفرد بتحمّل ويلاتها وإن كان نصيبنا منها أكبر. فالأوبئة التي غدت تزهق الأرواح بالآلاف لا تميّز بين الأديان والملل؛ والمعارك الطاحنة الدائرة فوق عشرات الساحات لا تفرّق بين جنسيات ومعتقدات الضحايا التي تحصد... المهم أن نتحلّى بالصبر، ونتعلق بحبل الأمل، ونظل صامدين في بلادنا؛ والأهم، يا بهجت، ألّا نعتبر أنفسنا أغراباً في هذه البلاد فنستسهل الرحيل عنها! فما الذي يربطنا بكندا أو بالتشيلي أو بأي واحد من تلك الأقطار النائية؟ كيف نعيش فيها وليست لنا جذور في أرضها؟

- نصنع تلك الجذور، ردّ بهجت بانفعال؛ نصنعها على غرار سوانا، وعلى قدم من المساواة معهم!

تدخّل هنا يوسف ليقول، مخاطباً ابن عمه:

- إن أمي على حق! فنحن من هذه الأرض. إن جذورنا فيها تعود إلى ما قبل الميلاد، فكيف يهون علينا اقتلاعها؟ فلو تخلى عنها أجدادنا عندما واجهتهم المصاعب، لو اختاروا أن يرحلوا عنها هرباً من الاضطهاد أو الفاقة أو الأوضاع المتأزمة، لامّحى وجودنا فيها.

- ويا لها من مصيبة! رد بهجت بنبرة ساخرة؛ أي مأساة كانت ستحلّ بنا لو لم نترعرع تحت السوط العثماني! بصراحة، يا ابن عمي، لو اختار أجدادنا حلّ الهجرة لكنا الآن، أنت وأنا، ننعم بحياة رخاء وأمان، لكنا الآن نعامل بلا تمييز، بلا تعسّف، بلا تفرقة، فلا نصبح ونمسّي والخوف ساكن في صدرونا!

وتابع الشاب، بجدية وتصميم:

- لقد حسمت أمري، في مطلق الأحوال سوف أهاجر إلى التشيلي...

وبالرغم من صيحات الدهشة والاستنكار التي قابلت إعلانه مضى يقول:

- أجل، سوف أرحل مع شقيق مرشو ومنصور علاّف؛ لقد فاتحاني بهذا المشروع قبل أيام فطلبت منهما مهلة ريثما أقف على قرار. وقد زال ترددي بعد ما سمعته من يوسف.

ورداً على أمه التي سألته كيف سيهون عليه فراقهم، وكيف ستتحمل هي العيش من دونه، وهل فكّر بوالده وبأشقائه قبل أن يتخذ قراره الخطير، المجحف بحق ذويه، أجاب:

- ما أن تستقر بي الحال في التشيلي حتى أرسل في طلبكم؛ فأنا الآخر لا أستطيع العيش بدونكم.

وأضاف وهو يبتسم بخجل:

- لقد أكد لي منصور علاّف أن الحياة في سانتياغو ممتعة حقاً؛ لقد سبقه شقيقه إسكندر إليها وهو يشجعه على احتذاء خطاه.

- وما دخل سانتياغو هذه، سأل عزيز بفضول واستغراب؛ لقد تحدثت عن الهجرة إلى التشيلي، عن تصميمك على السفر، وإذا بك تمتدح لنا الحياة في سانتياغو، بصراحة، لست أفهم!

وتطوع يوسف للإجابة على عزيز قائلاً:

- سانتياغو هي عاصمة التشيلي.

وتابع بعد ذلك، موجهاً كلامه إلى بهجت:

- إني لأستغرب كلام منصور علاّف، لأن من رحل إلى أميركا من بين إخواننا لم يستقر في العواصم بل طاف على الأرياف. فالمهاجرون إلى العالم الجديد هم، في غالبيتهم الساحقة، من الباعة المتجولين...

تدخّل هنا سليم ليقول بقدر من السخرية:

- سوف تصبح يا ابن عمي تاجر كشة!... تحمل بضاعتك على ظهرك وتطوف بها الجبال والوديان، صيفاً وشتاء، صبحاً ومساءً. وكلما طرقت باباً واجهت تبرماً وتذمراً؛ وكلما عبرت حقلاً أو بستاناً لاحقك النواطير بعصيِّهم والكلاب بعوائها... كيف ستنعم بهناء العيش، بحق ربك، وأنت تبيت كل ليلة في مكان ولا تستسلم للنوم إلا وأنت متوجس مما يخبئه لك الغد؟... لا، ألف لا! إني أفضل البقاء في حلب على التبهدل على الطرقات!

- ابقَ فيها ما شئت، رد بهجت بانفعال، ولست أنا من سيشجعك على الهجرة في مطلق الأحوال! فهي في البداية تعب ومشقة، وأنت تنفر من ذاك ومن تلك!

- ما هذا الكلام، صاحت روزين في وجه شقيقها؛ بأي حق تصدر الأحكام على سليم؟... أنت لم تعمل حتى الآن إلا مع أبيك وتحت جناحه. وسوف نرى ماذا ستبدع عندما ستغدو ولي أمرك!

فرد بهجت بحدّة:

- سوف أريك ما أنا قادر على صنعه؛ وسوف أجمع ثروة من وراء تجارة الحقيبة. فلا الشجاعة تنقصني ولا الجرأة والإقدام.

- ابن مسعود ويصبح تاجر كشّة! علقت أديبة بصوت حزين.

- ما من عمل معيب يا ابنة عمي، أجاب بهجت وهو يحاول الابتسام. أفلست أنت أيضاً سليلة هذه الأسرة، ومع ذلك تنفقين ساعات نهارك في الخياطة والحياكة والتطريز، ثم تقطعين المسافات الطويلة، سيراً

على الأقدام، لتسلّمي نتاج عملك إلى تلك السيدة الأجنبية التي تعاملك وتعامل سواك بعنجهية وكبرياء... ولكن ماذا عساك أن تفعلي وماذا عساي أن أفعل أنا الآخر... لقد صممت على الرحيل ولسوف أرحل.

- ونحن؟ عادت ملكة تسأل؛ أبهذه السهولة تفترق عنّا؟ أمن المعقول أن تعيش أنت في قارة ونحن في أخرى؟... لقد عرفتك حنوناً يا بهجت؛ حنوناً وعطوفاً على أهلك. فلمَ تفرّط بنا لقاء مشروع غامض النتائج ومحفوف بالمخاطر؟

- ألم أقل إني سأرسل في طلبكم حالما تستقر أوضاعي؟ أجاب بهجت.

- وماذا سنفعل في ذلك البلد النائي؟ فنحن لا نعرف لغته ولا نعرف أحداً من أهله.

- اطمئني بخصوص المعارف؛ فالهجرة إلى الأقطار الأميركية بدأت تتنظم وتتوسع. إن المئات من الأسر الماردينية، والدياربكرّية، والمنصوراتية، والبدليسية، وسواها، قد أبحرت من بيروت في اتجاه العالم الجديد. وسوف يتضاعف هذا العدد على نحو مطرد خلال الأشهر القادمة. فالحرب لن تنتهي هذا العام ولا بعد خمسة أعوام، وقد بدأت المجاعات تعمّ بالإضافة إلى الأوبئة؛ وفرص العمل شبه معدومة هنا، ناهيك عن الخوف المسلّط كالسيف فوق رقابنا. فلماذا نتشبث بفكرة البقاء؟

- لأن المجهول مخيف، أجابت ملكة... ولأننا إن رحلنا نكن قد حكمنا على أسرتنا بتشتت مطلق. وردة وعائلتها في زحلة، رزق الله وعائلته في مصر، سلمى وعائلتها في السنجار، بهية والأولاد في حلب، ونحن... أين سنكون نحن؟ آه، في التشيلي!

- وأنا، سألت روزين مستنكرة. هل فكّرتم بي؟ هل أفسخ خطوبتي لأرحل معكم؟ أم أتزوج من عبود وأفترق عنكم؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله! قالت ملكة وهي تلطم خدّها؛ ما كان ينقصنا

إلا مشروع الهجرة هذا!... إنه مشروع محفوف بالمخاطر يا بهجت، ومجهول العواقب. أرجئ البت فيه إكراماً للسيدة العذراء. لم ينقضِ سوى أشهر معدودة على إقامتنا في حلب. لم نتبيّن بعدُ خيرها من شرها. من يدري؟ فقد يفتحها الله في وجهك وفي وجهنا جميعاً. ولدى والدك من المال، على كل حال، ما يكفي لتأمين معيشتنا لفترة من الزمن. فلم التعجّل؟...

- لن أسافر غداً أو بعد غد، أجاب بهجت؛ بيد أني سأباشر على الفور باتخاذ الترتيبات اللازمة لتأمين رحلتي. رحلة طويلة وشاقة، في الحقيقة، إذ أن الباخرة تحتاج إلى أكثر من شهر لبلوغ الشواطئ الأميركية!
- يعني ستقضي أكثر من شهر في البحر؟ سأل يوسف مدهوشاً.
- هذا الجنون بعينه! عقبت ملكة؛ أي أحمق يقدم على مثل هذه المغامرة؟
- أحمق على غراري، رد بهجت وهو يبتسم بحزن.
- ما رأيكَ أنت بالموضوع؟ سألت ملكة موجهة كلامها إلى روفائيل؛ فأنت رب الأسرة، وإليك تعود الكلمة الفصل. أتؤيد فكرة بهجت؟ أجب بصراحة.
- لا يسعني إلا أن أؤيدها، من حيث المبدأ على الأقل، قال روفائيل؛ فالآفاق مسدودة تماماً هنا، والأخطار التي تحدق بنا لا تزال جسيمة، بل جسيمة للغاية. سيصعب عليّ طبعاً فراق بهجت، وإن لسنوات معدودة، ولن أعرف راحة البال طول غيابه عنّا؛ فأولاد الحرام كثيرون في هذه الدنيا، وقد يقع على واحد من بينهم سواء أثناء سفره، أو خلال إقامته في بلاد الغربة. ولن يكون عمله هنالك سهلاً، ولن تكون حياته رغيدة، في مرحلة أولى على الأقل...
- فلماذا يسافر إذاً؟ قاطعته زوجته بصوت منفعل؛ لماذا تؤيد مشروعه وأنت تدرك مدى صعوبته؟

- لأنه لا فائدة ترجى من بقائه هنا!... فقد ينجح في تحقيق شيء ما في بلاد الغربة، أما هنا فسيظل مصير تجارته في مهب الريح. فحتى لو قُدِّر له أن يربح ويجني فإنه سيظل تحت رحمة الفرمانات التعسفية. أفلم نضطر إلى التخلي عن أرزاقنا وممتلكاتنا في ماردين؟ ما الذي يضمن لنا مستقبلاً أفضل من حلب؟

- ولكن لماذا لا يقصد بهجت مصر؟ عاد سليم يسأل؛ لماذا لا يذهب إلى عميّ رزق الله فتهون غربته عليه وعليكم؟

- لن أشعر بالطمأنينة ما لم تفصلني مسافات شاسعة عن هذا الحكم الظالم، أوضح بهجت. ناهيك عن أن الحرب قد أزّمت الأوضاع في مصر أيضاً.

وأضاف الشاب بعدئذ وهو يحدّق في وجه سليم:

- أريد جديداً يا ابن عميّ؛ أريد آفاقاً رحبة، عالماً بلا قيود؛ أريد تحقيق إنجازات كبيرة، وإنجاح مشاريع ضخمة...

- أرجو لك التوفيق، قال سليم بنبرة صادقة.

- لماذا لا ترافقني؟ سأله بهجت. لقد سئمت الحياة هنا أنت الآخر. تعال معي إلى التشيلي.

رفع سليم ذراعيه في حركة استسلام وأجابه وهو يضحك:

- معاذ الله!... إلامَ تدعوني يا ابن العم؟ إلى مغامرة لا تعِد إلا بالعذاب والشقاء والضنك؟... أنسيت أني أنفر من التعب ومن بذل الجهود ومن التشرد على الدروب في الجبال والوديان؟ أنت الذي اتهمتني بذلك قبل لحظات. وقد صدقت القول. فما بالك تتراجع عن موقفك؟ ولماذا ترغب في مرافقتي لك؟ أتراك خائفاً من الإقدام بمفردك على هذه الرحلة الطويلة والصعبة؟ إن كانت تلك حالك فاعدل عن مشروعك.

- لن أعدل ولن أتراجع، أجاب بهجت وهو يخبط بيده على مائدة الطعام؛ لن أتراجع، في سبيل مستقبلي ومستقبل أسرتي!

-44-

لم تعرف لطيفة طعم النوم الهنيء في تلك الليلة. فقد لازمتها الكوابيس وأبت أن تفارقها حتى بعد أن التجأت إلى فراش أمها. صور مروِّعة طاردتها بلا هوادة: عسكري يدّق المسامير في قدمي يوسف؛ آخر يرفع زكريا الصغير على حربة بندقيته؛ مجموعة من الأشرار تطارد أديبة وتنهال عليها ضرباً بعد رميها على الأرض؛ أمها تصرخ وتنتحب وتلطم خدّيها؛ عمها روفائيل يناشد جمعاً من الناس الإسراع إلى بئر بانت حافته واضحة رغم الظلمة المحيطة؛ أصداء بكاء تتصاعد من قاع البئر؛ العم روفائيل يتضرع لرجل ضخم البنية كي ينقذ المرميين داخل تلك البئر؛ الرجل يقول بصوت مدوٍ: ماذا عساي أفعل من دون حبل وبكرة؟ على الحافة ظهر دلو. أخذه الرجل ورماه في جوف البئر وهو يطلق ضحكة غليظة. علت صرخة ألم تلتها كلمة «رأسي!» مكررة. هرعت روزين نحو أبيها وهي تصيح مذعورة: إنه سليم، إنه سليم...

في تلك الليلة لازمتها الكوابيس وأبت أن تفارقها حتى بعد أن التجأت إلى فراش أمها. عزمت في النهاية على ألا تنام، وأن تقاوم النعاس، تفادياً للمشاهد المخيفة التي يتوعدها النوم بها. لكن الصحو لم يكن أرأف بحالها. فقد انغرست عبارات يوسف في ذاكرتها؛ انطبعت الصورة التي رسمتها كلماته في مخيلتها، وهي ما فتئت تطاردها، في غفوها وفي صحوها.

ترى، لأي ضرب من التعذيب أُخضع ممدوح قبل أن يقتل؟... هذا السؤال، الذي طالما سعت إلى تجاهله منذ أن بلغهم نبأ مصرع شقيقها، ألحّ عليها على نحو مضنٍ بعد ما رواه يوسف عن ضحايا ديار بكر... لم يثر أحد من ذويها هذا الموضوع؛ في حضورها على الأقل. قيل لهم إنه قد قتل

رمياً بالرصاص. ولكن، هل اقترفت تلك الجريمة دون سابق تمهيد؟ أي دون سابق تعذيب؟... زكريا كان شاهداً على ما حصل. وهو يكرر يومياً حركات بعينها يروي فيها، على طريقته، فصول الفاجعة. يتوقف عن اللعب فجأة، سواء أكان في صحن الدار، أم في القاعة الكبرى، أم في الزقاق الضيق، ويبدأ بإطلاق صرخات همجية. يضمّ بعد ذلك يديه وكأنه يسترحم، يهز جسمه الصغير في حركة ارتعاد، يئن، يتظاهر وكأنه يسعى إلى الهرب، إلى الإفلات من قبضات غير منظورة. يُصدِر في النهاية سلسلة من صيحات متلاحقة أشبه ما تكون بأصداء طلقات نارية، ويهوي على الأرض، فاتحاً ذارعيه، شاخص العينين...

زكريا يمثّل الفصول الأخيرة من مصرع والديه. فهل شاهد غير ذلك؟ قبل أيام، وفيما كانا متوجهين إلى السبيل العام القائم عند مدخل بوابة الخلّ، غير بعيد عن دار الخال حبيب، شاهدا جندياً يضرب بحزام جلدي غليظ رجلاً في ثياب رثة، أصلع الرأس، حافي القدمين. كان الرجل يصرخ ويستنجد ويحاول أن يحمي وجهه بذراعيه؛ أما الجندي فكان يرفق ضرباته اللاسعة بفيض من التهديدات والشتائم.

دب الذعر في أوصال زكريا لدى رؤيته هذا المشهد. راح يولول ويلطم على خدّيه وهو يصيح: «بابا! بابا!»، أسرعت لطيفة تحتضنه لتهدّئ من روعه، وجرّته بعد ذلك في اتجاه البيت. لم ترو هذه الحادثة لأحد؛ فما الفائدة، في النهاية، من نكء الجروح، من استرجاع الفواجع، من الإبحار في عالم الحزن الذي لا قاع له؟ يكفي ما في الحاضر من مشكلات وتحديات ونزاعات لا مفر من مواجهتها؛ فما من يوم بات يمضي دون حصيلته من المتاعب، من الهموم، بل من المآسي. أفلم يكن رحيل عمها رزق الله مع أسرته مأساة؟ وإفصاح بهجت عن تصميمه على الهجرة، أفليس بدوره مشروع مأساة؟ لقد ارتعدت فرائصها عندما سمعت ابن عمها يدعو سليم إلى مرافقته. فكأن عائلتها بحاجة إلى محنة جديدة، إلى انشطار عضو آخر عنها. لحسن

الحظ رفض سليم الدعوة. كانت، قبل أيام، قد سمعته يفاتح عمه روفائيل برغبته في السفر إلى مصر بحجة أنه لا يجد عملاً مقبولاً في حلب. غير أن المخاوف التي أثارتها في نفسها تصريحاته الأخيرة تلاشت وتبددت بفضل روزين... ليس من عادتها أن تتنصت إلى أحاديث الكبار، لكن الصدفة شاءت أن تلتقط أذناها حواراً دار بين ابنة عمها وسليم. حوار تركّز حول ابنة خالتها مريم. كانت روزين تعدّد، وهي تبالغ، فضائل زواجه منها، وكان سليم يحصي، مبالِغاً هو الآخر، دوافع النفور منها. ولئن تمحورت «فضائل الزواج» حول ثروة العم جرجس رشو، فقد تركزت «دوافع النفور» حول مظهر مريم، حول وجهها بشكل خاص الذي «خلا من كل أثر للجمال» على حد تعبير سليم. سليم الذي قال أيضاً: «إن مريم صورة طبق الأصل عن والدها؛ وقد أظفرُ ببعض ثروة هذا الأخير إن تزوجت منها، غير أني سأبتلي، بكل تأكيد، بشكله الذي ورثَته عنه». سليم مجحف بحق مريم: فهي ليست قبيحة إلى هذا الحد وإن لم تكن جميلة. المهم أن روزين نجحت في إقناع سليم. بقيت تتكلم وتتكلم إلى أن قال لها: حسناً، سوف أدرس الموضوع. عبارة استقبلتها بتعليق يكشف عن فتور عواطفها تجاه خطيبها، عبود. فقد قالت بالحرف الواحد: سوف نتعاضد يا سليم على تحمّل أولاد رشوّ!...

إنها تتمنى من كل قلبها أن يبقى سليم في حلب؛ ألّا يفارق الأسرة. لكن فكرة زواجه من مريم تحزّ في نفسها. فهي لا تليق به. فأين جمال محياه من تقاطيعها الغليظة؟ أين رقة بشرته من جلافة جلدها؟ أين بهاء طلعته من قامتها القميئة؟... لقد فُطرتْ على حب الجمال، وإن صدرها لينقبض لمشهد القباحة. الحزن يتلبسها إن وجدت نفسها في صحبة أناس خلوا من كل ألق، أو في مكان انعدمت فيه آثار النعمة. أمن أجل ذلك ما عاد الحزن يفارقها في هذه الدار الوضيعة؟ ربما. فهي لم تفلح في التآلف معها رغم ما تبذله من جهود. فأثاثها رثّ، وغرفها صغيرة، وباحتها ضيقة، ومطبخها مقرف بسبب الشحوار الأسود الذي يغطي جدرانه والروائح الكريهة التي

تسكنه. أين هذا البيت الحقير من سراي جدّها في ماردين؟ وأين حياة التقنين والتقتير التي تعيش من الجاه والرخاء اللذين نعمت بهما على مدى سنين؟ وأين، أين الأحباء الذين رحلوا...

لاحت طلائع الفجر. غبش خفيف بان من خلف ستارة النافذة. بعد ساعة على الأكثر سوف تصحو الدار. أمها هي أول من سينهض فتتبعها أديبة. يوسف بدوره سيغادر فراشه فيقصد من فوره الباحة لأداء بعض الحركات الرياضية. ولن يرفع سليم رأسه من فوق وسادته ما لم تُحضِر له أديبة القهوة. أما هي فمن عادتها أن تظل متمددة في فراشها إلى أن يأتيها صوت جوليا منادياً عليها؛ لا للذهاب إلى المدرسة، كما كانت الحال في ماردين، وإنما لمباشرة اللعب في باحة الدار. فقد أُعفيت من التردد على المدرسة في حلب. من باب التوفير، من جهة، وتفادياً لمخاطر الطرقات من جهة أخرى. ذلك هو الجانب الإيجابي الوحيد في الهجرة إلى هذه المدينة! ابتسمت الطفلة واستسلمت للنوم.

-45-

نفّذ بهجت ما كان أعلن عنه: سافر إلى أميركا. أمضى أعياد الميلاد ورأس السنة مع أسرته، حضر زفاف شقيقته روزين في أواخر شهر شباط، ثم غادر إلى بيروت برفقة شابين من آل مرشو وآل علاّف، ومن بيروت استقل باخرة متوجهة إلى القارة الجديدة. ومع رحليه بدا العم روفائيل وكأنه شاخ عشر سنوات دفعة واحدة. انتشر البياض في شعره، تباطأت حركته؛ بل خفّ أيضاً سمعه. هكذا بدا على الأقل. فإذا ما كلّمه أحدهم استوضحه عما قال، وكأنه لم يفقه فحوى الحديث للوهلة الأولى. ربما لتشتت أفكاره لا لعلة في سمعه. أما ملكة، الدائمة الحركة والحيوية والتفاؤل، فقد غدت امرأة أخرى تماماً. غابت الابتسامة عن وجهها، شحّ كلامها، وما عادت تبارح الدار رغم إلحاح روزين عليها لزيارتها في بيتها الجديد؛ بيت الزوجية الكائن في حي البرغل، غير بعيد عن كنيسة القديس جاورجيوس، تلك الكنيسة التي تغصّ بالمسلمين يوم عيد شفيعها، جاورجيوس كما يسميه المسيحيون، والخضر كما يدعوه المسلمون. «إن حافظت ملكة على صفة بعينها فهي طيبتها التي لم تتبدل»، قالت بهية وهي تساهر سليم في ليلة عاصفة، كادت خلالها الأمطار، الهاطلة بعنف وغزارة، أن تحوّل صحن الدار إلى بحيرة صغيرة. كان سليم قد ارتدى معطفه فوق منامته خشية أن يتفاقم رشحه بسبب الرطوبة المحيطة. فالجمر المتبقي في المنقل الصغير ما عاد ينشر حرارة تذكر. وقد امتنعت بهية عن مدّه بكمية جديدة من الفحم لأن ساعة النوم قد أزفت.

كان يوسف وأديبة قد أويا إلى فراشهما قبل نحو ربع أو نصف ساعة؛ تمددت أديبة إلى جوار شقيقتها لطيفة، ويوسف إلى جانب زكريا. سحبت بهية مصباح الكاز من فوق الطاولة التي تتوسط الغرفة ووضعته على الأرض،

عند آخر الأريكة التي جلست عليها مع سليم؛ فنوره يبقى مزعجاً للنيام رغم كونه خافتاً.

كانت بهية قد أحاطت كتفيها بشال صوفي سميك حاكته لها أديبة. وحين أحست بسليم يرتعد من البرد عرضت عليه الشال فأجابها وهو يضحك: «وماذا أضع فوق المعطف والشال؟ سترة يوسف أو قنباز خالي حبيب...».

كان الخال حبيب قد مرّ عليهم بعد ظهر ذلك اليوم حاملاً في صرّة من الخام قنبازاً قديماً له، تآكل نسيجه عند العنق والمرفق. جاء به إلى بهية كي تفصّل منه قنبازاً لأصغر أبنائه، وحيد. «إنه أقصر وأضعف مني، قال؛ لن يصعب عليك، بالتالي، أن تفصّلي له جلباباً حتى ولو اضطررت إلى أن تقصي من القماش طولاً وعرضاً!». والواقع أن ظروف الحرب القاسية كانت علّمت النساء كيف يتحايلن على الملابس لجعلها تخدم أفراد الأسرة تباعاً. فبنطال الأب ينتقل، بعد طول استعمال، إلى الابن البكر، فالشقيق الذي يليه، فالابن الأصغر... وكانت صيرورة الانتقال هذه تستلزم تعديلات، أو «رتوشات» برعت النساء في تنفيذها. اللهم باستثناء زيزف زوجة الخال حبيب. فحتى لو أنفقت ساعات طوالاً في التفصيل والخياطة فما كان جهدها ليأتي بنتيجة مُرضية. كانت امرأة خرقاء في الحقيقة، لا تجيد الطهو ولا الحياكة، ولا الخياطة، ولا حتى إدارة شؤون بيتها. شغلها الشاغل القيام بزيارات للأقارب والمعارف، وهوايتها الأولى «جمع رأسين بالحلال فوق وسادة واحدة»، والعبارة لها؛ أي النهوض بدور رئيسي وفعّال في عقد الخطوبات، ومن ثم الزيجات. فما أن تسمع بشاب تجاوز العشرين وهو لا يزال عازباً حتى تجنّد طاقاتها في البحث عن خطيبة له. وقد عرضت على سليم أكثر من «بنت حلال» واحدة «تصلح لأن تصبح أماً لأولاده» من دون أن يكلل مسعاها بالنجاح. ولمّا يئست من تزويج سليم استدارت نحو أديبة...

والواقع أن الخال حبيب لم يقصد دار شقيقته بعد ظهر ذلك اليوم بسبب القنباز فحسب؛ كان «يحمل كلاماً في فمه». وقد فاتح بهية باستعداد شاب

من عائلة قصّار للتقدم بطلب يد أديبة. وقد انتظرت بهية ساعة انفرادها بسليم، بعد استسلام بقية أولادها للنوم، لتفاتحه بدورها بهذا الموضوع. «الشاب يدعى نديم قصار، أوضحتْ، وهو يعمل في الصباغة».

- في الصباغة؟ سأل سليم بشيء من الحدّة؛ أتقصدين أنه صاحب ورشة، أم تراه مجرد صانع؟

أشارت له بهية بيدها أن يخفض صوته وأجابت:

- إنه صانع، ولكنه شاب خلوق، ورع، يخشى ربّه.

- ورع، يخشى ربه، هذا شأنه! أمّا ما يهمنا نحن فهو أن يكون ابن أسرة محترمة ومتمتعاً بوضع مادي جيد. ولا أعتقد أن صانعاً في الصباغة ينعم بدخل وفير وبمكانة اجتماعية لائقة. فلماذا نبحث في أمره؟

- لأن شقيقتك تتقدم في السن وما مِن شاب يتقدم لخطوبتها!... ما المصير الذي تريده لها؟ أن تظل بلا زواج؟ بلا أولاد؟...

- ولكنها كانت ستخطب عبد الجليل سيوفي، أنسيت؟

- لا، وكيف أنسى؟ غير أن المسكين قد قضى، كما قضى عهد ماردين بالنسبة إلى آل مسعود.

وأضافت الأم بعد برهة وجيزة:

- لا بد من تقديم التنازلات يا سليم؛ لا بد من قبول ما لا ينشرح الصدر له.

تنهد الشاب قبل أن يجيب:

- كيف لا أدرك ذلك وقد وافقتُ، مضطراً، على طلب يد ابنة خالتي!... لكن مريم تبقى متمتعة بعدد من الصفات ليس أقلها رفعة النسب ويسر الحال. أما ابن قصار ذاك فليس عنده ما يغري. فلماذا تقبل به شقيقتي؟

- وهل بلغت هذه السن وأنت لا تزال غافلاً عن التباين الكبير بين وضع الشاب ووضع الفتاة؟ فلو بقيت أنت عازباً حتى الثلاثين لوجدت عروساً

ترحب بك؛ في حين لو تجاوزت شقيقتك عتبة العشرين، وهي لا تزال عازبة، لشطّبت مرغمة على كل مشروع زواج!

- لم تبلغ العشرين بعد، ردّ سليم بنزق وبصوت عالٍ، ولن تتزوج ما لم يطاوعها قلبها على ذلك!

استرقت بهية النظر إلى حيث يرقد أولادها ثم همست وهي تشدّ الشال الصوفي من حول كتفها:

- اخفض صوتك وإلا أيقظت النيام...

- الليل طويل، فلا داعي لقلقك.

- الليل طويل لمن لا يضطر إلى الاستيقاظ مع بزوغ الفجر...

وليست تلك حال يوسف. فمنذ أيام وهو ينهض على صوت مؤذن جامع «الجديدة» كي يستأنف عمله في سجلات المحاسبة. ينام ويستيقظ على تلك السجلات! ليكن الله في عونه ويمده بالقوة والصبر.

لزم سليم الصمت ولم يعلّق. وماذا عساه يقول؟ ففيما ينفق هو ساعات نهاره، وهزيعاً من ليله، في التململ والتأفف والتذمّر والتحسر على أيام زمان، ينكبّ شقيقه الأصغر على عمله بهمّة وحميّة، بل بشغف. لم يكتف بوظيفته في فندق بارون، بل غدا يشرف على محاسبة تاجر معروف في المدينة. متى تعلّم المحاسبة؟ كيف تعرّف على ذلك التاجر؟ كيف نجح في اكتساب ثقته؟ إن عالم يوسف يبقى موصداً في وجه سليم الذي ما عاد، على كل حال، يسعى إلى الولوج إليه بعد محاولته المخزية في فندق بارون.

ودوّى صوت انفجار قوي اهتز له زجاج النوافذ. رسمت بهية إشارة الصليب على صدرها وقالت، وهي تنظر على نحو تلقائي إلى حيث ينام أولادها: «ما هذه الليلة! ليعطنا الله خيرها!... لقد اشتد المطر وعنف الرعد».

فأجابها سليم مداعباً:

- ولماذا لا تطلبين من السماء أن تخفض صوتها هي الأخرى؟

- ومتى كانت أمك تطلب المستحيل؟...

أطلق سليم ضحكة مخنوقة وقال:

- بلى، إنك تطلبين المستحيل وتحصلين عليه، وإلا كيف تفسرين خطوبتي من مريم؟

- أفسرها بحبك للحياة السهلة، أجابت، وهي تربت على كتفه بحركة ودّية.

نهضت بعد ذلك عن الأريكة التي اعتاد سليم أن ينام عليها؛ أوصته بألا ينسى إطفاء مصباح الكاز وسارت بتؤدة نحو فراشها، متفادية إحداث صوت وهي تتمدد إلى جانب أديبة. فأكثر ما كانت تخشاه أن يستيقظ يوسف فلا ينعم بليلة نوم هانئة بعد يوم عمل مضنٍ.

كان يوسف، والحال، قد استيقظ منذ زمن، على دوي صوت الرعد. طغى عليه إحساس بالضيق حال دون أن يغفو من جديد. ففي ليلة ظلماء كهذه، سكنتها عاصفة هوجاء، كان لقاؤه الأخير مع ممدوح. كان شقيقه، القادم إلى ماردين للاطمئنان على أوضاع أسرته، قد قصد ليلاً دار الشيخ حمدان ليقف على آخر تطورات الوضع في البلاد. وقبل أن يغادر البلدة عرّج من جديد على دار أهله. طرق الباب في ساعة متأخرة من الليل، فنهضت أمه من فراشها لتفتح له؛ فقد ظلت مستيقظة في انتظار عودته. صحا يوسف من نومه على الضجة التي أحدثاها؛ فقد كانت أمه تلّح على ممدوح كي يخلع عنه كامل ثيابه المبللة، وكان ممدوح يؤكد أن معطفه وحده قد تبلل وأن لا فائدة من استبداله بآخر لأن المطر لا يزال يهطل بالغزارة عينها. ويذكر يوسف أن أديبة، التي استيقظت بدورها مع وصول ممدوح، حملت إليه منشفة كي يجفف بها شعره ووجهه. وقد شكرها على بادرتها؛ ولكن عندما عرضت عليه قدحاً من الشاي أو الزهورات، رفض رفضاً قاطعاً: «لن أدعك تجتازين الباحة لبلوغ المطبخ، قال؛ فالمجنون وحده يضع رأسه في الخارج في مثل هذه الليلة». ويذكر يوسف أن ممدوح قد أطلق ضحكة وهو يتفوه بكلماته الأخيرة:

ويذكر، كذلك، أن أديبة أكدت أنها لن تحتاج إلى أكثر من خطوتين لبلوغ المطبخ وأنها ليست مجبولة من السكر كي تذوب في لمح بصر...

إن دقائق اللقاء الأخير ذاك قد انطبعت في ذاكرته. ممدوح يقبّل أمه ويطلب بركتها قبل أن يبارح. أمه تناشده أن ينتظر سكون العاصفة وبزوغ الفجر قبل أن يقفل عائداً إلى المنصورية. أديبة ترغم شقيقها على استبدال معطفه المبلل بمعطف والدهم الأسود. ممدوح يعترض، خوفاً على المعطف من هيجان الطبيعة، ثم يوافق... آخر عبارة له كانت: سأعود إليكم بعد أسبوع ومعي زكريا!

لقد عاد زكريا مع الأيام، أما ممدوح فقد غيّبته عن أحبائه الهمجية الحمقاء التي ما فتئت تحصد الضحايا البريئة بالآلاف.

في ليلة عاصفة كهذه الليلة كان لقاؤه الأخير مع شقيقه البكر. ليلة ينقبض لها صدره كلما جاء بذكرها. فبأي مصيبة جديدة تنذرهم الطبيعة؟ أي خبر سيسمعون؟ أي عزيز سيفقدون؟

أدرك يوسف أن النوم سيظل يجافيه ما دامت نفسه قلقة، مضطربة. لذلك استوى في فراشه ثم ركع على ركبتيه وراح يصلّي بلهف غريق يتشبث بطوق نجاة.

-46-

حضر نديم قصّار مع رتل من الأقارب لطلب يد أديبة. فقد رافقه شقيقاه وزوجتاهما، وكذلك عمّته وخالته وبعض من ذريتهما. ضاقت الغرفة بالوافدين وعجزت أريكتاها عن احتوائهم، فتوزَّع بعضهم على الكراسي الخيزرانية، التي اصطفت في صدر الغرفة، في حين اضطر أهل الدار، فيما عدا بهية والعم روفائيل، إلى الجلوس على مقاعد خشبية واطئة احتلت عتبة القاعة. كانت لطيفة قد حاولت أن تقترب من والدتها تسللاً لتتابع عن كثب ما يدور في الجلسة، لكن يوسف أفهمها بإشارة من يده بأن مكانها ليس مع الكبار. انصاعت لرغبته ولكن بعد مماطلة، ريثما تتفحص وجوه أفراد عشيرة الخطيب وهندامهم. وكانت قد كوّنت صورة واضحة عن كل واحد منهم حين قصدت المطبخ حيث كانت أديبة وروزين منهمكتين بإعداد القهوة، وزوجة العم ملكة منشغلة بتوزيع قطع من الحلوى على صحون صغيرة فاضت بها صينية تحتاج إلى شخصين لحملها. بادرتها ملكة قائلة:

- ما رأيك بالخطيب يا لطفو؟ هل أعجبك؟

نظرت الطفلة إلى شقيقتها مرتبكة؛ فبماذا تجيب زوجة عمها؟ أتكذب إرضاء لأديبة؟ أم تفصح، بلا مواربة، عن انطباعاتها ومشاعرها؟... كانت ستختار قول الحقيقة لولا النظرة التي رمتها بها شقيقتها. نظرة غريبة عن عيني أديبة. فقد كانت فيها حيرة، وكان فيها توسّل. نظرة تستجدي تأييداً واستحساناً، لا حكماً قاطعاً، صارماً. استجابت الطفلة لما اعتبرته نداء استغاثة وأجابت، بنبرة واثقة:

- إن الخطيب شاب طيب على ما يبدو لي... ولا بأس بشكله على العموم؛ فهو طويل القامة، قوي البنية... ويقيني أن مظهره سوف يتحسن

عندما ستشرف أديبة على اختيار هندامه. أعني عندما سيستبدل قنبازه ببزة عصرية، ومداسه بحذاء كالذي ينتعله سليم أو يوسف.

ولزمت لطيفة الصمت للحظات قبل أن تضيف:

- لكن أسرة الخطيب أمر آخر... لم أستسغ فرداً من أفرادها... لقد طبّوا علينا كسرب من العقبان... نظراتهم قاسية، متفحصة، تدقق فينا وكأنها تسعى إلى اختراقنا...

كانت الطفلة ستفيض في الكلام لولا علائم الضيق والبلبلة التي ظهرت على ملامح أديبة. لذلك سعت إلى التخفيف من حدّة حكمها بأن أضافت:

- ربما تلك هي حال أهل حلب؛ من يدري. ربما من عادتهم أن يراقبوا، ويعاينوا، وينظروا مطوّلاً إلى ما حولهم وهم يلزمون الصمت! ربما من تقاليدهم ألا يتكلموا عندما يجتازون عتبة دار للمرة الأولى! فمن يدري؟

أطلقت روزين ضحكة لدى سماعها هذا التعليق. ثم قالت، بنبرة مداعبة، وهي تنظر إلى أديبة:

- إن آل قصار لا يشرحون الصدر في الحقيقة. إن وجوههم صارمة ومنغلقة، ونظراتهم حادة ومتعالية، فكأنهم قصدونا ليجبوا ضريبة لا ليطلبوا عروساً!

- وما ذنبي أنا؟ أجابت أديبة بحدّة؛ هل أنا مسؤولة عن سوء تصرفهم؟ عن جهلهم بأصول اللياقة واللباقة؟ هل أنا من أرسل وراءهم؟

فتدخلت ملكة لتقول، مهدئة:

- لقد أرادت روزين ممازحتك؛ أنت أعلم الناس بطباعها، فلماذا تنفعلين وتستائين من كلامها؟

وأضافت زوجة العم بعد برهة:

- نحن معنيون بالخطيب، في المقام الأول؛ وقد بدا لي، بالفعل، شاباً طيباً كما وصفته لطيفة... سوف نعاشره في مطلق الأحوال لنتأكد

من حسن طباعه وسلامة نياته؛ وسوف تعاشرينه أنت، على وجه الخصوص، للوقوف على حقيقة مشاعرك تجاهه. لن تعقدين عليه ما لم تكوني راغبة فيه: هذا ما اتفقتْ عليه أمك مع عمّك روفائيل.

- سيان عندي أن أتزوج منه أو من سواه، أجابت الفتاة بنبرة تأرجحت بين الحزن والغضب؛ فأنا لا أرغب لا فيه ولا في غيره. لا أرغب في أحد على الإطلاق! فمن الذي يستأهل أن يحلّ مكان عبد الجليل؟...

- ولماذا تخطبين إذن؟ سألتها لطيفة بفضول وانفعال.

- لماذا؟ لأنه يتعين عليّ أن أتزوج كي لا أبقى عالة على أسرتي!

تفوهت بهذه الكلمات وغادرت المطبخ حاملة صينية القهوة. تنهدت ملكة ثم لعنت الزمن المشؤوم الذي حطّم القلوب، وشرّد الأسر، وحكم على عائلتها بأن تصاهر من لا يليق بمكانتها وبمرتبتها.

- عن أية مكانة وأية مرتبة تتكلمين؟ سألتها روزين بلهجة ساخرة. فنحن نكرة في هذه المدينة. لا نمثّل شيئاً على الإطلاق في نظر أهلها. بل إنهم يحتقروننا لأننا لسنا منهم. ويقيني أن عمة الخطيب تتساءل الآن إن كان من المستحسن أن تطلب لنديم يد فتاة ماردينية! حتى وإن كان نديم مجرد صانع في الصباغة والفتاة الماردينية سليلة أسرة عريقة!

- لتنقلع، إذاً، من بيتنا هي، والخطيب، وجميع أفراد أسرته، صاحت لطيفة منفعلة.

ضحكت روزين وهمست للطيفة، وهي تهمّ بمغادرة المطبخ بدورها، محمّلة بصينية أطباق الحلوى:

- حبذا لو غصّ ضيوفنا بهذه الأطايب؛ فنحن أولى منهم بأكلها!

- سوف أصلّي كي يغصّوا، أجابت الطفلة بكثير من الجدّية، كي تغص العمّة على وجه الخصوص فتعارض مشروع الخطوبة وتعرقله.

لكن العمة لم تغصّ، ومشروع الخطوبة لم يعرقل. ففي بحر أسابيع معدودة استكملت الاستعدادات للزواج وأنجزت إجراءاته. عقدت أديبة على نديم

قصار بعد صيام عيد الفصح. كان من المفترض أن تجري مراسم الزواج يوم الأحد الجديد، أي الأحد الذي يلي الفصح مباشرة؛ لكن تعدد المخطوبين الراغبين في هذا الموعد حال دون ذلك: فقد أُعطيت الأولوية للقادرين على دفع مبلغ لائق لقاء أتعاب الكاهن ونفقات فتح الكنيسة وإضاءتها. ولم تكن تلك حال عريس أديبة: لذلك عُقد زفافها عصر يوم الأربعاء. وقد شاء سوء حظها أن يكون الطقس ممطراً في ذلك اليوم، مما اضطرها إلى وضع شال صوفي فوق ثوب الزفاف. ثوب زفاف ابنة عمها روزين الذي استعارته، تأبّياً منها عن تحميل أسرتها نفقات ثوب جديد لن ترتديه أكثر من مرة واحدة...

لم يُقَمْ للعروسين حفل، ولم تُنصب على شرفهما مائدة عامرة بالأطايب. فهذه الواجبات تقع على عاتق أهل العريس، وقد تقاعسوا عن النهوض بها. «دخلت بيت زوجها بلا زغرودة واحدة»، رددت بهية بحزن وبحرقة. والواقع أن «بيت» الزوج كان عبارة عن غرفة وضيعة، لا تتجاوز مساحتها عشرة أمتار، تقع في دار شعبية تتقاسمها أسرتان بالإضافة إلى العروسين. ومع ذلك بدت أديبة راضية بمصيرها. فلكأنها وقعت في حب نديم قصار فغضّت النظر عن ضيق ذات يده وجلافة أسرته. أو لكأنها زهدت في الدنيا، بعد مصرع عبد الجليل، فتساوى عندها الفقر والجاه، بؤس العيش ورغده، كياسة رفيق الدرب وصلافته، علماً بأن نديم قصار لم يكن صلفاً، ولا فظاً، ولا بخيلاً؛ كان متّضع الحال ومبتلىً بأسرة صعبة المعشر، جاهلة بأبسط أصول الآداب واللياقة.

- يتعالون علينا مع أنهم لا يصلون إلى أخمص قدمينا، كان سليم يردد مغتاظاً؛ يتعالون علينا لأنهم من حلب ونحن من ماردين! فكأن ماردين قرية مغمورة في جرد ناءٍ. نحن أكثر تحضراً منهم بما لا يقارن. ولولا ظلم الأيام لما اضطررنا إلى فتح باب بيتنا لأناس على شاكلتهم، فكم

بالأحرى إلى القبول بمصاهرة أحدهم. آل مسعود يقبلون بصانع في الصباغة، وأهل الصانع يستكثرون ابنهم عليهم! عشنا وشفنا!...

وذات يوم، وفيما كان سليم يصب جام غضبه من جديد على أهل العريس، مضيفاً، هذه المرّة، أن من حسن حظ والده أنه رحل قبل أن تفتك عاصفة الدمار والتشريد والقتل بأسرته وببلده، انفجرت لطيفة بالبكاء. ولأمّها، التي سعت إلى تهدئتها والاستفسار عن أسباب نحيبها، قالت بحدّة وانفعال:

- ماذا نفعل؟ وإلى أين نذهب؟... اضطررنا إلى الهرب من ماردين لأننا نصارى؛ فهل سنرغم على مغادرة حلب لأننا من ماردين؟... أليس لنا مكان نعيش فيه بأمان؟... يوسف يقول إننا سكان البلاد الأصليون، فلماذا نُقتل في مكان ونُهان في آخر؟

-47-

هل عرفت أديبة السعادة مع عريسها الشاب؟ احتار ذووها في الإجابة عن هذا السؤال، إذ ليس من عادتها أن تصارحهم لا بمتاعبها ولا بأسباب اغتباطها. فهي بطبيعتها كتومة، وقد ازدادت انكفاء على ذاتها مع انتقالها إلى دار نديم قصار. أمها مالت إلى اعتبار سكوتها عما يدور في تلك الدار دليلاً على حسن سير الأمور فيها. وهذا بالعكس من سليم؛ فقد كان على يقين بأن شقيقته تعاني الأمرّين في حياتها الجديدة، وبأنها تمارس تعتيماً متعمداً على صعوباتها ومشاكلها من باب عزّة النفس، من جهة، وتفادياً للإثقال بهمومها على ذويها، من جهة أخرى.

- كيف تكون سعيدة؟ كان يتساءل بحدة وانفعال، ولاسيما بعد أن يكون تجرّع كأسين أو ثلاثاً من العرق؛ كيف تكون سعيدة وحياتها خالية من كل بهجة؟ من كل فرحة؟ من كل إثارة؟ فهي لا تنفك تعمل من الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل. تغسل، تطهو، تجلي، وتكنّس؛ تحيك، تخيّط، وتطرّز! فغداة يوم زفافها استأنفت عملها لصالح تلك السيدة الإيطالية. «دخلُ نديم لا يكفي لتأمين معيشتنا»، قالت. فلماذا تزوّج الأخ؟ أمن أجل تأمين خادمة تنفق عليه بدلاً من أن تتقاضى منه أجراً؟

كان العم روفائيل يوافق سليم ضمناً وإن كان يتجنب تأييده علناً. فلماذا يضيف جرحاً جديداً إلى جراح بهية العديدة؟ ولماذا يصادق على حكم فيه طعن بمنزلة أسرته؟ فظروف الحرب والهجرة، على صعوبتها، لا تبرر هذا الزواج؛ ذلك أن أديبة لم تلقَ، لا من نديم ولا من عائلته، معاملة تليق بحسبها ونسبها! إنه يعي ذلك تماماً، ولكن ما عساه يفعل؟ صارح زوجته يوماً بدوافع

قلقه على ابنة شقيقه، فكان جوابها: «لا تتدخل في شؤونها الخاصة، في علاقتها مع زوجها؛ فسوف تفسد بدلاً من أن تصلح! دع أديبة تسيّر أمورها بنفسها، فلديها من الحكمة ومن بُعد النظر ما يؤهلها لتجاوز العقبات والتغلب على الصعوبات». كانت ملكة، في مطلق الأحوال، مأخوذة في دوامة من الهموم والمتاعب وفي غنى، بالتالي، عن شغل بالها بزواج أديبة الفاشل. فحَمَل مريم اتضح صعباً للغاية. ما عادت المسكينة قادرة على رفع رأسها من فوق وسادتها، وهي لا تكفّ عن التقيؤ وعن الشكوى من ألم في ظهرها اضطرها إلى لزوم الفراش نزولاً عند نصيحة الداية زكية رحمو. أما عزيز، الذي كان أصرّ على العمل عند تاجر يتعامل معه جرجس رشو، فهو لا يدع يوماً واحداً يمضي على خير. يجد، دوماً، سبباً للشجار مع زملائه في العمل، مع المارّة، مع أي كائن يصادفه... وسبب انفعاله، واحتداده، وخروجه عن طوره، واحد لا يتغير: سخرية الحلبيين من لهجته الماردينية. ولكن يبقى بهجت الهمّ الأكبر، إذ لم يصل منه خبر منذ أن غادر حلب. وكانت ملكة كلما صارحت روفائيل بقلقها على بكرها ينهرها قائلاً: «كيف تريدينه أن يطمئنك عن أحواله وهو لا يزال في عرض البحر...!»؛ عبارة استبدلها بأخرى مع انقضاء شهرين بتمامهما على سفر بهجت؛ فقد غدا يقول: «أمهلي الصبي قليلاً... فالرسائل لا تصل في لمح بصر من أميركا إلى حلب...». متى ستتسلم الرسالة التي تتلهف إلى الإمساك بها؟ إنها تصلي صبحاً وظهراً ومساءً على أمل استعجال وصولها؛ ولكن ما أن تستقبل نهاراً جديداً حتى تودّعه ويداها لا تزالان خاويتين.

بهية تدرك حالتها، تقدر صعوبة وضعها، تتجنب تحميلها المزيد بمفاتحتها بموضوع أديبة، بأسباب قلقها على ابنتها. إنها تتفادى إثارة هذا الموضوع مع أي كان في الواقع، وبخاصة مع ابنيها. فإن تعرّضت له بحضور سليم، زادت في نقمته على آل قصار «جملة وتفصيلاً». وإن استأنست برأي يوسف، ما حظيت إلا بواحد من أحكامه الصارمة. فقد يقول: «الزواج سرّ من أسرار الكنيسة، والمرأة المسيحية لا تقدم عليه سعياً وراء متع دنيوية وإنما رغبة في

إتمام واجب ديني»؛ أو قد يؤكد بأن «لا مأخذ على نديم قصّار ما دام يصوم ويصلّي»... يخيّل إليها، في بعض الأحيان، أن يوسف لا ينطق بما يشعر به فعلاً؛ فكأنه يسمّع درساً حفظه عن ظهر قلب بغية الظفر بعلامة جيدة... فهل من المعقول أن يتكلم شاب، لا يزال طري العود، على هذا المنوال؟ فلا ممدوح، ولا زكريا، زوجها الراحل، وكم بالأحرى سليم، دلل يوماً عن مثل هذا القدر من التزمّت في نظرته إلى الحياة!... ولكن كلمة حق تقال: إن يوسف يتفانى في سبيل عائلته. يعمل بلا انقطاع ولا ينفق بارة واحدة على نفسه. لا يكره شيئاً كما يكره هدر الوقت والمال، ولا يبخل بجهد إن كان وراءه ربح، فائدة، مكسب لأسرته. إنه على شاكلة أديبة في نهاية الأمر؛ لذلك قد يكون حكمه على زواجها هو الأقرب إلى الصواب.

كانت بهية تشعر بقدر من الطمأنينة عندما تنتهي إلى هذه النتيجة. ذلك أنها كانت قلقة، بل قلقة للغاية على ابنتها. علماً بأن هذه الأخيرة لم تشتك لها يوماً من زوجها؛ «لأنها بنت أصل» كانت تقول، «قديسة تكابد ولا تشتكي»....

ثمة اعتبارات أخرى، في الحقيقة، لا تمتّ إلى القداسة بصلة، كانت تقف وراء صمت أديبة. فقد استطابت علاقتها الزوجية مع نديم قصار. اعتبرتها في البداية واجباً، إلى أن تكشّفت لها مصدر متعة لا ينضب... فبعلها كان فحلاً، قوي البنية، جامح الرغبة. وقد بدأت تتعلّق به، بالرغم من سلوكه الفظّ أحياناً، وبالرغم من ضيق ذات يده ووضاعة شأنه. لم يكن نديم يحتمل المقارنة مع عبد الجليل. لكن عبد الجليل غدا ملك ماضٍ ولّى إلى غير ما رجعة. فما الفائدة من العدْو وراء سراب؟... نديم قصار يمثل حاضرها، ومع هذا الحاضر يتعين عليها أن تتكيف. حاضر لا مكان فيه للمشاعر المرهفة، والمعاملة اللبقة، والعيش الرغيد، والتفاخر بالحسب والنسب؛ فجلّ ما يعد بتقديمه هو سقف للسترة، ولقمة عيش كريمة، وفراش تلّطف الله فجاء ممتعاً.

كانت أديبة ستكون أكثر امتناناً لحياتها الزوجية لو تبنّت أسرتها موقفاً مغايراً من نديم قصار. فمع أنه لم يُنتقد في حضورها، فقد كان يُعامَل بقدر من الاستخفاف من قبل بعض أفراد عائلتها... لم يكن، في مطلق الأحوال، يُعامَل على غرار عبود رشو الذي ترتفع الأصوات مرحبة به ما أن تطأ قدمه عتبة الدار. لا ريب في أن عبود ما كان يدخل على أهل زوجته إلا محمَّلاً بالهدايا، في حين أن نديم كان يأتي، على الدوام، فارغ اليدين. ناهيك عن أن الأول ما كان يتحدث إلّا عمّا اقتناه من جديد لدار الزوجية، في حين كان الثاني لا يتكلم إلا عن الضائقة المالية التي يعاني منها أسوة بسائر أفراد مهنته: فكيف تزدهر الصباغة في زمن كادت فيه صناعة النسيج أن تنعدم؟

وحدها لطيفة بدأت تتعاطف مع زوج شقيقتها. أُعجبت بقوته يوم كسر لها جوزة على نحو لم تعهده، إذ وضعها في راحته وضغط عليها بأصابعه فانكسرت. وقدّرت مروءته عندما رأته يهرع لنجدة رجل مسنّ حاول شابان سافلان الاعتداء عليه وانتزاع صرّة الخبز التي كان يحمل. ومع أن المعتديين كانا ضخمي الجثة، ومع أن أحدهما كان يحمل مدية، فقد تجرأ نديم على مواجهتهما بمفرده. انهال عليهما ضرباً مستعيناً بعصا غليظة التقطها من ناصية الطريق، إلى أن أرغمهما على الفرار. وقد تجمّع أهل الحارة من حوله ومن حول العجوز، وأثنى الجميع على شجاعة وبسالة «الشاب الحرّ الذي تطوع للدفاع عن شيخ أعزل».

لم تكن أديبة حاضرة ساعة حصول الحادث. كانت قد قصدت دار السيدة روزيللي، بصحبة زوجة الخال حبيب، لتحمل إليها آخر ما أنجزته يداها الماهرتان. وعندما عادت إلى دار أهلها، حيث كانت قد تواعدت مع زوجها، هرعت إليها لطيفة لتروي لها تفاصيل الواقعة. أثنت على نديم، امتدحته، وصفته بالبطل، بإنسان لا يُقهر، بالجبل الذي لا تهزه ريح، لتنتهي إلى القول: ما دام نديم إلى جانبنا فلن أعرف الخوف بعد اليوم!

وللمرة الأولى في تاريخ علاقتهما ضمت أديبة بقوة شقيقتها الصغرى إلى صدرها وطبعت قبلة خجولة على جبهتها.

-48-

- أمر لا يصدّق! شيء غير معقول!... أواثق أنت من الخبر؟

كان العم روفائيل يحدّق في يوسف، ينتظر منه توكيداً عما أسلف من كلام؛ فسارع الشاب يجيبه:

- واثق مئة بالمئة يا عم؛ فقد نقل إلي الخبر ضابط نمساوي برتبة كومندان... كان في دمشق يوم اقتُرفت تلك الجريمة البشعة، وشاء تواجده غير بعيد عن ساحة المرجة أن يكون شاهداً عياناً عليها.

- يعني رأى بأم عينه أولئك الشبان يُعلَّقون على المشانق؟ سألت بهية بصوت متهدج.

هزّ يوسف رأسه مؤكداً وتابع يقول، مستقطباً اهتمام سائر أفراد أسرته، بمن فيهم عبود رشو ونديم قصار اللذان شاركا في الجلسة:

- إن الشبان الذين ذهبوا ضحية البطش العثماني هم من خيرة القوم. إنهم يتحدرون من أعرق الأسر، إن في دمشق وإن في بيروت. ذلك أن ما حصل في دمشق قد حصل أيضاً في بيروت... وقد عدَّد لي الضابط النمساوي أسماء الذين رُفعوا على أعواد المشانق فحفِظتُ بعضاً منها: شكري العسلي، رفيق رزق الله سلوم، الأمير عارف الشهابي، سعيد عقل، عبد الوهاب الإنكليزي، باترو باولي، رشدي الشمعة، جرجي حداد، الشيخ أحمد طبارة...

قاطعه عزيز هنا ليسأل:

- تقول «الشيخ» أحمد طبارة؟...إذاً فهم يقتلون هذه المرة المسلمين أيضاً وليس فقط المسيحيين...

رمق يوسف ابن عمه بنظرة مستغربة وقال، موضحاً:

- بكل تأكيد؛ بل إن ضحايا جمال باشا هم، في غالبيتهم، من المسلمين...

- كيف؟ عاد عزيز يسأل بسذاجة.

- المسألة هنا ليست طائفية بل سياسية، أجاب يوسف. فقد اتُّهم هؤلاء الرجال بالتآمر؛ لقد أجروا اتصالات، على ما يبدو، مع الفرنسيين والإنكليز بهدف التحرر من النير العثماني.

هز روفائيل رأسه وقال موجهاً كلامه إلى عبود رشو:

- سبق أن جاء والدك بذكر هذه التحركات؛ لقد حدثنا عنها قبل أشهر، في جلسة كهذه الجلسة.

تدخّل هنا سليم ليستفسر:

- ومتى حصلت هذه الجريمة على وجه التحديد؟

- في مطلع أيار على ما فهمت، أجاب يوسف.

فانبرى نديم قصار يقول:

- كيف لم نسمع بها حتى الآن وقد غدونا في منتصف شهر حزيران؟

جاءت نبرة يوسف ساخرة وهو يجيب صهره:

- وهل من عادتكم أن تتناقلوا أحدث الأخبار في أوساط الصباغة؟... فلولا طبيعة عملي أنا لما استقيت مثل هذا الخبر... ففي فندق بارون ألتقي بأبرز الشخصيات...

- وهل تأتي هذه الشخصيات إليك في مكتبك الوضيع؟

سأل سليم بسخرية مقصودة. فأجابه يوسف بكثير من البرود:

- لا، فقد جُعل المكتب للعمل، لا لاستقبال الضيوف مهما علا شأنهم... إن شئت أن أوضح لك أين ألتقي بنزلاء الفندق المرموقين فسوف أفعل: إني أصادفهم في الصالون تارة، أو على الشرفة طوراً. هل هناك من استفسار آخر؟

شعر العم روفائيل بصعود التوتر بين الشقيقين؛ وتفادياً لحصول مناقرة، ومن ثم، شجار بينهما، تدخل ليقول:

- إن كان أولاد أسر مسلمة كريمة قد عُلّقوا على المشانق، فهل من فائدة عادت ترجى من هذا الحكم ومن هذه البلاد؟ لقد أحسن بهجت الصنع عندما اختار الهجرة إلى أميركا. فبقدر ما يبتعد المرء عن هذه المناطق يضمن لنفسه مصيراً أفضل.

- ولمَ لا نلحق ببهجت؟ سأل عزيز؛ أفلم يؤكد لنا في رسالته أن البلاد جميلة، وأهلها طيبون، وفرص العمل فيها متوفرة؟

روزين، التي كانت تتوجس من فكرة رحيل أهلها، قاطعته على الفور قائلة:

- لقد سعى بهجت إلى طمأنتنا في هذه الرسالة، أول رسالة يبعثها لنا. لنمهله كيما يدرس الأوضاع على نحو أدقّ ويكوّن لنفسه عن ديار الغربة صورة أكثر وضوحاً وأمانة. فقد يعدّل رأيه مع الأيام...

وأضافت، موجهة كلامها إلى يوسف:

- ألا توافقني يا ابن العم؟ أليس من الأفضل التريث قبل اتخاذ قرارات حاسمة؟

فأجابها يوسف، معتزاً بالثقة التي خصتّه بها:

- أوافقك لأكثر من سبب، لتفاؤلي بمستقبل هذا البلد الذي نحن فيه في المقام الأول!

«تفاؤلك؟»، سأله روفائيل وعبود ونديم بصوت واحد.

- أجل، تفاؤلي، أجاب يوسف...

- وما الذي يجعلك تتفاءل؛ سأل سليم بشيء من الدهشة؛ أفلم تحدثنا تواً عن شبّان شرفاء عوملوا وكأنهم من قطّاع الطرق؟... تنقل إلينا خبر المشانق ثم تعلن عن تفاؤلك! إن أمرك لعجيب يا يوسف!

تدخلت هنا أديبة لتقول:

- ولم لا نستمع، بالأول، إلى حجج يوسف؟ لمَ لا ندعه يوضح رأيه؟
استوى يوسف في جلسته وجال بنظره على الحضور قبل أن يلبي دعوة أديبة فيقول:
- لو تأملنا قليلاً في ما حصل في دمشق وبيروت لأدركنا عدداً من الحقائق الهامة. فمَن هم، أولاً، أولئك الرجال الشرفاء الذين أمر جمال باشا بإعدامهم؟ ذلك أن قرار الإعدام قد صدر عنه. إنهم من خيرة القوم. فقد جمعوا بين العلم والمعرفة والمكانة الاجتماعية، بالإضافة إلى الشجاعة والمروءة والإخلاص للوطن. ليسوا من الرعاع، ولا من المغامرين أو الانتهازيين. إنهم يمثّلون نخبة مجتمعهم. وعندما تتحرّك النخبة، عندما تذهب إلى حد التضحية بالذات دفاعاً عن أهداف نبيلة، فإن التغيير يحصل لا محالة. ولست أنا من سنّ هذا القانون؛ لقد استخلصته من قراءتي لكتب التاريخ.
وأضاف يوسف بعد أن تجرّع قليلاً من الماء:
- إن استشهاد هؤلاء الأبطال أمر محزن بكل تأكيد؛ غير أنه يمثّل انعطافاً إيجابياً، ولاسيما إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وجود عدد من المسيحيين بينهم.
- ولماذا؟ سألت روزين التي كانت تصغي إلى ابن عمها باهتمام فائق.
- لأن هذا يعني أن المستقبل سيكون من صنع أبناء الطوائف قاطبة، وأنه سيشهد، بالتالي، تعاضداً، بل تآخياً بينهم.
- أنت تحلم! قال سليم.
- لا، وإنما أتمعن بما حصل في دمشق وبيروت وأستشفّ منه توقعات للمستقبل.
- قد تكون على صواب، رد سليم متهكماً؛ إذا كان المستقبل الذي تتحدث عنه سيأتي بعد قرنين أو ثلاثة.
- لا، بل قد يأتي بعد عامين أو ثلاثة، أكد يوسف؛ فنحن على أبواب

تطورات حاسمة؛ أتعتقد بأن جمال باشا كان سيقترف جريمة ألّبت عليه كبريات الأسر، إن في سوريا وإن في لبنان، لو لم يدرك أن تحرّك هؤلاء الوطنيين يهدد سلطته، بل السلطة العثمانية في هذين البلدين؟... ثم أتعتقد بأن هؤلاء الأحرار، الذين انتهوا على أعواد المشانق، كانوا سينشطون ضد الباب العالي لولا قناعتهم بأن ساعة التحرر من النير العثماني قد أزفت؟

- لقد ضيّعتنا يا يوسف، صاحت ملكة؛ ما عدنا نفهم شيئاً. قل لنا باختصار: هل هنالك بوادر خير أم لا؟ فالحياة أصبحت لا تطاق بسبب الغلاء؛ والمواد الغذائية الأساسية باتت شبه مفقودة؛ بعكس الأمراض والآفات التي كثرت وانتشرت! قل لنا باختصار: هل نخطط للرحيل، أم نختار البقاء؟

- أنا سوف أرحل، قال عزيز؛ سأذهب إلى التشيلي وأعمل مع بهجت.

- أما أنا، فسوف أبقى، أجاب يوسف؛ لن أغادر هذه البلاد. ففيها سأبني مستقبلي وسوف يكون مستقبلاً باهراً!

-49-

- إلى متى ستظل تماطل؟ فقد احترت بماذا أجيب شقيقتي كلما استفسرتني عن موعد الزفاف. هل اهتديت، أخيراً، إلى تاريخ يناسبك؟... فمن يصغي إليك وأنت تستبعد التواريخ تباعاً، متذرعاً بعوائق وموانع لا تخطر على البال، يخال أن أشغالك لا تدع لك فرصة للتنفس. والحال أنك كنت، ولا تزال، قوّاساً عند ربك[١].

ضحكت بهية وهي تتفوه بالعبارة الأخيرة وربتت على كتف سليم الذي استقبل خطبتها بلامبالاة واضحة ولم يعقّب عليها، لا سلباً ولا إيجاباً. ولكن عندما عادت تسأله إن كان في نيته أن يتزوج في بحر هذا الصيف أجابها، متأففاً: «ولمَ العجلة؟ فهل أنا متلهف للعيش مع مريم تحت سقف واحد؟».

يوسف، الذي كان يتابع الحديث وهو ينظّف حذاءه ويلمّعه، تدخّل ليقول:

- لمَ العجلة بالفعل؟ أفلا يتعين على سليم أن يجهّز بيت الزوجية بالأول؟ أفلا ينبغي، أيضاً وخاصة، أن يكون على رأس عمل يسمح له مردوده بالإنفاق على أسرته؟ كيف تريدينه أن يتزوج وهو لا يعمل؟

فقاطعه سليم ليقول بلهجة هازئة:

- كيف لا أعمل؟ ألست قواساً عند ربّي كما تفضلت الوالدة؟

وخوفاً من أن يتشاجر الشقيقان، كما هي الحال في كل مرة يطرح فيها موضوع عمل سليم على بساط النقاش، سارعت بهية تقول، مخاطبة يوسف:

- أنت تعلم تماماً أن جرجس رشّو سيؤمّن عملاً لسليم حالما تتم مراسم

---

١ - القواس: مستخدم مدني يساعد كاهن الكنيسة في بعض المهام الطفيفة؛ و«القواس عند الرب» تعبير شعبي يطلق على من لا عمل له.

الزفاف. وأنت تعلم، كذلك، أن مريم ستُمنَح مبلغاً من المال يكفي لتجهيز أفضل بيت... ما من عقبات مادية، إذاً، أمام عقد الزواج؛ العثرة الوحيدة هي موقف سليم. فهو ما فتئ يماطل ويلفق الحجج للتنصل من تحديد موعد الزفاف.

وأضافت بهية وهي تستدير نحو سليم:

- لماذا خطبت إن كنت تخشى الزواج؟

- لا أخشى الزواج في المطلق، أجاب سليم؛ وإنما من مريم على وجه التحديد!... توهمت بأن العُشرة ستقرّب بيننا، وبأني سأتآلف مع العيش معها!... غير أن عواطفي نحوها بقيت هي هي: كانت ابنة خالتي قبل الخطوبة وبقيت مجرد ابنة خالتي بعد أشهر من الخطبة! ما حيلتي إن كنت لا أشعر بأي ميل نحوها؟ إنّي أقدّر ذكاءها وقوة شخصيتها، ولكن الذكاء وقوة الشخصية هما آخر ما أبحث عنه عند شريكة العمر!

- وماذا ستفعل إذاً؟ سأل يوسف باهتمام وفضول.

هز سليم كتفيه وهو يجيب:

- ماذا سأفعل؟ سوف أتزوج. فليس لدي خيار آخر. غير أني سأحاول، وبشتى الوسائل، إرجاء موعد دخولي إلى ذلك السجن.

- أنا لا أفهمك، قال يوسف بانفعال؛ لماذا أنت مستسلم على هذا النحو؟ هنالك دوماً خيار آخر... أنت شاب في مقتبل العمر، ومستقبلك لا يزال رهن إرادتك. اصنعه كما تشاء، كما يحلو لك يا سليم!

- كيف وقد جُرّدت من أوراقي الرابحة كافة؟ فلو كنا لا نزال نعيش في ماردين، لو كنا لا نزال على رأس أملاكنا وأرزاقنا، لاختلف الأمر جذرياً: كنت سأكون، فعلاً، سيّد مستقبلي. أما وقد أُرغمنا على الهجرة، وزججنا في أتون حروب متشابكة، متداخلة، فقد غدونا أقرب إلى العبيد منا إلى الأسياد، وعلينا أن نتكيف مع هذه الحالة، أشئنا أم

أبينا. هذا ما فعلته روزين، وهذا ما فعلته أديبة، وهذا ما سأفعله أنا الآخر.

- روزين وأديبة مغلوبتان على أمرهما لكونهما إناثاً، ردّ يوسف؛ قبلتا بمن لا ترتضيانه خوفاً من أن يغدر بهما الزمن. فالفتاة التي تتجاوز العشرين وهي لا تزال عزباء تستطيع أن تشطّب على الزواج وعلى الإنجاب... تلك هي حال الإناث؛ أما أنت...

قاطعه سليم ليقول، ممازحاً:

- لست ذكراً على ما يبدو! فأنا الآخر أخشى أن يغدر بي الزمن؛ أخشى ألا أعطى فرصة أخرى لتأمين شروط حياة لائقة إذا ما فرّطت بمريم!

وتأوه سليم قبل أن يضيف، وقد غلبت عليه المرارة هذه المرة:

- ثق يا يوسف بأني خجِل من نفسي... بل مشمئز منها... ولكن ما حيلتي إن لم أُعطَ القدرة على المقاومة؟ على التحدي؟ على تذليل الصعوبات؟... لست على غرارك مع الأسف... كان بودي لو أُتيت إقدامك، جَلَدك، صلابة عودك... لكن عبثاً أبحث في أعماق ذاتي عن معين أنهل منه القوة والشجاعة... لست ابن هذا الزمن! إما أن أرضخ لواقعه، فأقبل بالمساومات وأُقدِم على التنازلات، وإما أن أرحل عنه بوضع حد لأيامي...

- ما هذا الكلام الفارغ، صاحت بهية؛ ما عاد ينقصنا إلا هذه المصيبة! اخجل من نفسك يا سليم!... تهدّد بالانتحار لأنك ستتزوج من فتاة لا تحبها؟! أإلى هذا الحد غدوت تسترخص حياتك؟ ثم أنسيت أنك مسيحي وأن الانتحار محرّم في الكنيسة؟... لقد فقدت أنا زوجي وبكر أولادي ومع ذلك لم أفكر لحظة واحدة بالانتحار...

كانت بهية ستمضي في توبيخها لو لم ترتفع أصوات في باحة الدار حيث كان زكريا يلعب بصحبة جوليا ولطيفة. وما هي إلا ثوانٍ حتى دخل عليهم

الطفل مهرولاً، رافعاً بيديه كيساً صغيراً. هرع إلى جدته وردد مغتبطاً: «مَلْبَن... ملبن...»، ثم أضاف: «مريم... مريم...».

وظهرت مريم منتصبة عند باب الغرفة وموقعة خالتها وابنيها في حرج وبلبلة. فقد خشي الثلاثة أن تكون سمعتْ بعضاً مما دار بينهم من كلام... سارعت بهية ترحّب بالفتاة وهي تدقق في وجهها، لعلّها تستشفّ ما يدور في ذهنها. غير أن وجه مريم كان، على عادته، جامد الملامح، عديم التعبير، كما لو أنه قناع يحمي ويكتم وليس بمرآة تُفصح وتكشف. أما سليم الذي بدا وكأنه طفل قُبض عليه بالجرم المشهود والذي فقد، في لمح بصر، خيلاءه وعنجهيته، فقد تظاهر بمداعبة زكريا الذي ما فتئ يقفز في الغرفة، تعبيراً عن فرحه بالملبن الذي جاءته به مريم.

كان يوسف الأسرع إلى استرداد رباطة جأشه؛ وقد بادر إلى طرح السؤال الذي كان على شفتي أمه وشقيقه: «متى وصلتِ؟ قال مستفسراً، وهو يمد يده لمصافحة ابنة خالته؛ فنحن لم نسمع الباب يقرع... هل مضى زمن على وجودك في الباحة؟... أعني هل مكثت فيها لفترة أم دخلت علينا مباشرة؟». استغربت مريم هذا الاستجواب الذي لا مبرر له؛ فأي فارق بين وصولها للتو أو قبل خمس دقائق أو عشر؟ إن رغبة يوسف في التدقيق لَمَرَضية حقاً؛ وقد تفاقمت بفعل عمله في حقل المحاسبة... هل طرح عليها سليم مثل هذه الأسئلة، مع أنه المعني الأول بقدومها؟ رأت أن تتجاهل استفسارات الشاب، أن تمتنع عن إشباع فضوله. ولخالتها التي كانت تدعوها إلى الجلوس قالت: «ليحفظ الله زكريا ويسلمه؛ إنه طفل محب، نبيه، وقوي الملاحظة. لقد روى لي ما حصل بالأمس بين جاركم وشقيقته. يبدو أنهما تشاجرا وتبادلا الشتائم». وابتسمت مريم قبل أن تضيف: «لقد حزرت تلك الشتائم حزراً، في الواقع، لأن زكريا كان يلفظها على طريقته الخاصة». «لم تحضري للتو إذاً»، عقّب يوسف، مستأهلاً نظرة استغراب من ابنة خالته. وكاد يوسف يصعق عندما سمع سليم يعلق، وهو يدنو من مريم ثم يمسك بيدها: «ليس

المهم أن نعرف متى وصلتْ خطيبتنا اليوم؛ المهم هو أن نقف، أخيراً، على موعد مجيئها النهائي لعندنا!». بدت مريم وكأنها لم تصدق ما سمعت؛ فلئن حرمتها الطبيعة من الجمال فهي لم تبخل عليها، بالمقابل، بالذكاء، ولا بنفاذ البصيرة. ارتأت، مع ذلك، أن تستغل الظرف، ألا تفوّت فرصتها في العقد على سليم المتهرب، حتى الآن، من تحديد موعد الزفاف. قالت وهي تنعم النظر في وجه خطيبها: «كل شيء جاهز من جهتنا. إن شئت أن نتزوج بعد أسبوع أو أسبوعين فنحن موافقون». حاول يوسف أن ينقذ شقيقه من الفخ الذي غدا على وشك السقوط فيه فقال معارضاً: «أمن الحكمة أن تتزوجا بعد أسبوع أو اثنين؟ فأين ستقطنان ولم تجهزا بيتاً حتى الآن؟ لم تستأجرا ولو غرفة في رقعة ما...». «نقيم عند أهلي ريثما نستملك داراً ونؤثثها»، أجابت مريم بتصميم وثقة. «نقيم عند أهلها عاماً أو اثنين ريثما نتدبر أمرنا»، أضاف سليم باللهجة عينها. أدرك يوسف أن شقيقه يرغب في الوقوع في الفخ، بل غدا يسعى إليه بخطوات حثيثة بعد أن زفّت إليه مريم بشرى عزم أهلها على استملاك دار لهما. هزّ الشاب رأسه ونظر إلى أمه وكأنه يريدها شاهداً على ما يحصل؛ شاهداً على تخاذل سليم وانتهازيته. وجاءت ابتسامة أمه الحزينة تذكره بأن سليم قد فُطر على حب الجاه والنفور من المحن، وبأنها تحبه رغم عيوبه العديدة، «على عجره وبجره» بحسب تعبير زوجة عمه فريدة.

-50-

- احذري بمن كنت أفكر للتو؟ بسوسة القبرغايه... أجل... كنت أتساءل إن كانت لا تزال على قيد الحياة، وإن كان أولاد الحي لا يزالون ينادون عليها فلا ينالون منها إلا الشتائم واللعنات...

ابتسمت لطيفة وهي تتفوه بهذه الكلمات الأخيرة، وكذلك فعلت جوليا التي سارعت تستفسرها:

«ما الذي جعلك تفكرين بها؟... فمنذ إقامتنا في حلب لم يتفق أن ذُكر اسمها مرة واحدة... أي منذ عامين تقريباً...».

وأضافت جوليا بعد أن أطلقت تنهدة: «أكاد لا أصدق أن عامين قد انقضيا على مغادرتنا ماردين؛ فأحياناً يخال لي أننا لم نبارحها إلا منذ أيام...».

- مع أن هذين العامين كانا حافلين بالأحداث، لاحظت لطيفة.

- أجل، فقد فارقنا أحباء واستقبلنا سواهم.

- فارقنا راشدين واستقبلنا رضّعاً...

وسرحت الاثنتان مع أفكارهما، متناسيتين، للحظات، عملهما الدقيق: فقد غدتا تطرّزان، على غرار أديبة، وتدفعان بمنتجاتهما إلى السنيورة روزيللي.

والواقع أن أسرة مسعود غدت تضم ثلاثة أفراد جدد؛ فقد وضعت روزين صبياً، وأديبة طفلة، كما رزق سليم، قبل أيام، صبياً عمّده باسم ممدوح. أما عزيز، بالمقابل، المصرّ على الهجرة إلى العالم الجديد، فقد غادر حلب والتحق ببهجت في التشيلي. وقد وصلت منه رسالة قبل أسبوعين يطمّئن فيها ذويه عن أحواله وأحوال شقيقه، ويطيل فيها الحديث عن زيارة قام بها مع بهجت لأسرة رزق الله جرجور، المستقرة في سانتياغو منذ مطلع القرن. وقد

ذكر في رسالته أن مريانا، بكر بنات السيد رزق الله، تتقن صنع الحلويات وتجيد العزف على العود، وأنها، علاوة على ذلك، لطيفة الطباع، مليحة الوجه؛ تفاصيل دفعت بملكة إلى القول: «هنالك رائحة خطوبة في الجو»، وبروزين إلى أن تضيف: «خطوبة مَن، بهجت أم عزيز؟».

وللمرة الثانية عادت لطيفة تسأل أو تتساءل بالأحرى:

- ما الذي حلّ بسوسة القبرغايه، يا ترى؟... قد تسخرين مني يا جوليا إن اعترفت لك بأني أحنّ إليها أحياناً!... أجل، أحنّ إلى سوسة، وإلى ميخائيل العواد أيضاً. فقد كان المسكين رمزاً من رموز طفولتنا، على غرار سوسة. فلكم ضحكنا بسببهما. لكم لهونا ونحن نطاردهما بنداءاتنا الساخرة وبتعليقاتنا الهازئة!

- كنا نضحك لأبسط سبب، عقبت جوليا؛ كان ضحكنا سهلاً في تلك الأيام.

أومأت لطيفة برأسها موافقة وترددت هنيهة قبل أن تقول:

- إن وجوه الماضي تلازمني على الدوام. لا يمضي يوم واحد من دون أن أفكر بالعم كريم ومن دون أن أصلي من أجله. ولا يمضي يوم واحد من دون أن أستذكر رفيقاتنا، وأقاربنا، ومعارفنا، القريبين والبعيدين على حد سواء... بالأمس خطرت على بالي فهيمة خياط؛ تذكرتها وهي واقفة أمام باب بيتها، تلوح لنا بيدها، وقد كسا الحزن وجهها. كنا نتهيأ لمغادرة ماردين يومها...

ولزمت لطيفة الصمت للحظات قبل أن تضيف:

- كان لها شقيق على ما أذكر؛ أُرسل إلى دير الزعفران كي يصبح كاهناً. كان اسمه وديع على ما أعتقد...

- بالفعل! أكدت جوليا وهي تبتسم بمكر.

- أتساءل أحياناً إن كنا سنلتقيه ثانية؛ بعد عام، أو خمسة، أو عشرة...

- ربما تصادفينه بعد أن يكون قد أصبح كاهناً؛ وإن شاءت الصدفة أن تلتقيه وأنت على كرسي الاعتراف فلا تنسي أن تبوحي له بسرّك العظيم.
- أي سر؟ سألت لطيفة بفضول.
- سر حبك له طبعاً!

رفعت لطيفة يدها وكأنها تريد توجيه صفعة إلى ابنة عمها، بيد أنها عدلت واستسلمت للضحك، على غرار جوليا.

«لماذا تضحكان؟»، سألت ملكة وهي تدخل على الفتاتين حاملة وعاء ملأته بالعدس. فانبرت جوليا تجيب:
- كنا نتحدث عن سرّ الاعتراف.
- وهل هذا موضوع مثير للضحك؟ عادت ملكة تسأل مستغربة.

وابتسمت، بالرغم منها، حين رأتهما تنفجران بالضحك من جديد. وقبل أن تلبّي نداء بهية، الصادر من المطبخ، حرصت على تذكيرهما بضرورة الإسراع في إنجاز عملهما. «لا تهدرا وقتكما في اللهو والهذر قالت؛ فالسنيورة روزيللي موعودة بالمطرَّزات قبل نهاية الأسبوع».
- هي دوماً على عجلة من أمرها، علّقت جوليا بصوت خفيض موجهة كلاها إلى ابنة عمها؛ ولماذا؟ لست أدري! فهي تكدّس ما نحمله إليها في دولاب خشبي كبير فيه أشكال وألوان. أتراها تجمع كل هذه المطرزات من أجل جهازها؟
- ومن الذي سيتزوجها؟ عزرائيل؟ فقد غدت على حافة قبرها!... لم تحظ بعريس عندما كانت صبية، فهل تظفر به وقد ابيضّ شعرها وتقوس ظهرها؟
- ومن الذي تقوّس ظهره؟ سأل زكريا الذي ولج إلى حيث جلست الفتاتان، حاملاً محفظة مدرسية؛ محفظة ما عادت تفارق يمناه منذ

أن جاءه بها يوسف قبل يومين. تجاهلت لطيفة سؤال الطفل وهمست لابنة عمها:

- نحن في أول الصيف ولن تفتح المدارس أبوابها قبل شهرين على الأقل؛ ومع ذلك فإن زكريا ينام ومحفظته تحت رأسه كما لو أنه سيذهب إلى المدرسة مع بزوغ الفجر.

- وماذا ستفيده هذه المحفظة أصلاً؟ لاحظت جوليا؛ فهل سيعطى كتب ودفاتر منذ عامه الدراسي الأول؟... شراء هذه المحفظة هدر للمال في رأيي، وإني لأستغرب أن يكون يوسف، الذي لا ينفق بارة في غير مكانها، هو الذي ابتاعها.

- لقد أراد أن يرغِّب زكريا في العلم؛ فهو حريص على تدريسه، على دفعه لنيل شهادات ترفع من مكانته.

- من الذي تقوّس ظهره؟ عاد زكريا يسأل.

«السنيورة روزيللي»، أجابت لطيفة على نحو آلي، قبل أن تمضي في مساررة ابنة عمها:

- بعد زواج سليم، وبعد ولادة ممدوح الصغير، غدا يوسف يعتبر نفسه المسؤول الأول والأخير عن زكريا. وهو لا يكفّ يتحدث عن المستقبل الباهر الذي يعدّه له؛ مستقبل يعتمد، بالدرجة الأولى، على العلم الذي سوف يناله بإذن الله... إن يوسف يجيد الكلام في الحقيقة. سمعته بالأمس يخاطب الخال حبيب قائلاً: «لم يبق لنا في ماردين، التي عرفت أسرتنا فيها أجيالاً من العزّ، سوى عم كسيح؛ ولئن غدت لنا فروع في العراق ولبنان، في مصر والتشيلي، فإن جذعنا الأساسي سوف ينتصب هنا، في حلب، وسوف يقع على عاتق زكريا أن يرفع هذا الجذع أعلى فأعلى».

امتعضت جوليا قليلاً من هذا الحكم الذي عتّم على الدور الذي قد يلعبه

شقيقاها في الرفع من شأن الأسرة؛ لذلك تعمّدت لهجة هازئة وهي تقول، مخاطبة زكريا المنتصب أمامها:

- إياك أن تبول في سروالك عندما ستذهب إلى المدرسة، وإلا ألحقت العار بآل مسعود.

وأضافت بعد هنيهة، باللهجة الساخرة عينها:

- سوف ننام جميعاً مطمئني البال ما دام زكريا ساهراً على مستقبل أسرتنا!

صفّق الطفل مغتبطاً لما خاله مديحاً له؛ أما لطيفة، فبعد أن شاورت نفسها بالرد على جوليا بعبارة لاذعة، استسلمت للضحك أمام مشهد زكريا يصفّق ويقفز جزلاً. وما لبثت جوليا أن حذت حذوها وهي تردد ضمناً: «لكأننا في ماردين!...».

-51-

- التقيت بالأب اسحق في ساحة فرحات، وأنا في طريقي إلى الفندق هذا الصباح. وقبل أن أسأله إن كان راضياً عن زكريا، عن سلوكه، عن اجتهاده في المدرسة، بادر، من تلقاء نفسه، إلى كيل المديح له!... لقد أثنى عليه بعبارات ولا أروع، وصفه بالطفل النجيب، بالتلميذ المتفوق، وتنبأ له بنجاح باهر في حقل الدراسة... لقد أحسنت الاختيار حين أدخلت زكريا مدرسة طائفتنا السريانية. فالرعاية التي توفرها له، والعناية التي تحيطه بها، ستشجعانه على المضي قدماً على طريق النجاح... هل ذكرت لك أن الأب إسحق وصفه بالطفل النجيب؟

هزت بهية رأسها مؤكدة وهي تتناول السترة التي خلعها يوسف لتوه وتعلقها على مشجب. تابع الشاب يقول وهو يرتمي فوق الأريكة:

- لا يمكن أن تقدّري مدى فرحي واعتزازي لدى سماعي أقوال الأب! منذ هذا الصباح وأنا أحلّق في أجواء نعيم...

ابتسمت بهية وهي تجيب بنبرة مداعبة:

- يقيني بأنك لم تغتبط لنبأ انتهاء الحرب اغتباطك لنجاح زكريا في المدرسة الابتدائية!... علماً بأنه يكاد لا يفكّ الأحرف حتى الآن...

- كيف؟ ردّ يوسف منفعلاً، لقد بدأ يقرأ! فبالأمس كتبت على ورقة اسمي، واسمك، واسم لطيفة، فقرأ الأسماء الثلاثة، ومن دون أن يتهجى.

لزم يوسف الصمت للحظات قبل أن يضيف:

- لقد طلب مني، أيضاً، أن اكتب اسم أبيه وأمه كي يتعلم كيف يكتبهما بدوره... ولكن لنطوِ صفحة هذا الموضوع. فلديّ بشرى أخرى أزفّها إليك. إن الحاج عبد الخالق، الذي أعمل عنده مساء بعد مغادرتي

الفندق، قد وعدني بزيادة في أجري! أجل... ولأنه راض تماماً عني وعن المجهود الذي أبذل فقد رأى أن يجعل مني المشرف الرئيسي على محاسبته.

– ليأخذ الله بيدك على الدوام! فأنت شاب خلوق، مجِدّ، نزيه، ومحب لذويك؛ ليأخذ الله بيدك، ويرعاك ويحميك على الدوام!...

وترددت بهية قليلاً قبل أن تضيف:

– لقد مرّت عليّ اليوم زيزف، زوجة خالك حبيب. وقد لاحظتْ أن الغرفة التي كان يشغلها عمك روفائيل ما زالت شاغرة مع أنه قد انقض أكثر من شهر على رحيله مع أسرته إلى التشيلي. وعندما أوضحتُ لها أن في نيّتك أن تستأجرها، لتفرد فيها ركناً لزكريا يدرس فيه، فاتحتني بموضوع...

ولم يدعها يوسف تكمل عبارتها بل قاطعها قائلاً:

– فاتحتك بموضوع خطوبة، أليس كذلك؟ فزوجة خالي لا تستطيع أن تخلد إلى الراحة ما دام هنالك عازب في محيطها! لتدعني وشأني!... فيوم أصمم على الزواج سأختار بنفسي رفيقة عمري.

– ومتى ستصمم على الزواج؟ فقد تجاوزت العشرين وبتّ تتقاضى مرتّبين جيدين بدل المرتّب الواحد.

– لن أتزوج ما لم أعثر على الفتاة التي تناسبني مئة بالمئة؛ والحال أني لم أعثر على هذه الفتاة حتى الآن... لست على عجلة من أمري في مطلق الأحوال.

– ما من أحد يناسب الآخر مئة بالمئة، أجابت بهية؛ ثق أن ما من أحد كان سيقدم على الزواج لو لم يوافق الطرفان، أو واحد من بينهما على الأقل، على تقديم تنازلات. تلك هي حال الدنيا.

– بل تلك هي حال الزيجات الفاشلة، وما أكثرها مع الأسف! بصراحة، يا أمي، عندما أنظر حولي أنزع إلى التشدد أكثر فأكثر في مواصفات

رفيقة العمر. فماذا جنى سليم، أو روزين، أو أديبة من زواج أقدموا عليه بلا رغبة واندفاع، بل مترددين وحائرين؟ سليم ضاعف كمية العرق التي يشربها يومياً، لا سعياً وراء الانتشاء والتحليق في أجواء الغبطة، بل لإغراق سوداوية ما عادت تفارقه؛ أديبة شاخت وهي لا تزال في أوج شبابها ونسيتْ أن الحياة لا تُختزل إلى سلسلة لامتناهية من الواجبات والإكراهات. أما روزين التي ما عادت تكف عن أكل السكاكر والحلويات، ربما للتعويض عن مرارة عيشها، فقد سمنت في بحر عامين بحيث غدت بدانتها تعيق حركتها. امّحت الفتاة الجميلة والرشيقة والمرحة التي كنت أعرف وحلّت مكانها كتلة من الشحم واللحم المترهل!

- لا تبالغ يا يوسف! فروزين ما زالت روزين وإن زاد وزنها... صحيح أن ألقها قد خبا قليلاً ومرحها قد غاب، غير أني أعزو هذا التحول إلى حزنها على فراق أهلها. فقد مكثت المسكينة تبكي أياماً بكاملها بعد رحيل والديها وأخيها.

- لو كانت تعيش مع حنا لا مع عبود، لما ذرفت الدمع أكثر من أربع وعشرين ساعة! علماً بأني أودّ عبود ولا أجد أي مأخذ عليه في معاملته لزوجته: فهو يحبها، ويحترمها، ولا يرفض لها طلباً. لكن حياتها معه تبقى سقيمة رغم ذلك.

- لا تكن صارماً في أحكامك يا يوسف؛ ولا تكن مطلق الثقة في نفسك... فقد تضطرك الظروف إلى القبول، بدورك، بما لست راغباً فيه ولا راضياً عنه كل الرضى...

ابتسم يوسف ولم يعلّق، فتابعت بهية تقول:

- لا ترَ في كلامي عتاباً، أو محاولة للنيل من إيمانك بمستقبلك؛ فأنا معتزة بك، فخورة بإنجازاتك، غير أني أخشى عليك من قسوة

الحياة. أخاف عليك من فشل يودي بأحلامك وطموحاتك فيحطمّك شر تحطيم...

استوى يوسف في جلسته وأمسك بيد أمه في حركة ودية وهو يجيب:

- فيما يتعلّق بي شخصياً فقد عزمت على طرد الخوف من قلبي؛ أقسمت بألا أقع ضحيته ثانية بعد أن جردني ذلك اللص الحقير من أموال الأسرة التي اؤتمنت عليها.

- ولكن ماذا كان عساك تفعل ومدية ذلك الشرير على عنقك؟

أشار يوسف لأمه بألا تقاطعه وتابع يقول:

- لقد نجحت، بالفعل، في التغلب على الخوف خلال الأعوام الأربعة التي انقضت على إقامتنا في حلب. فقد أرغمتني الظروف، في أكثر من مناسبة، على امتحان نفسي، وكانت النتيجة إيجابية. لن أسعى إذاً إلى الحد من طموحاتي «خوفاً» من صدمة محتملة. ولن أحاول، كذلك، الحد من الآمال التي أعقدها على زكريا وعلى مستقبله الذي أريده باهراً، والذي سوف يكون كذلك إن شاء الله.

وقرّب يوسف رأسه من رأس أمه الجالسة في جواره على الأريكة وسارها قائلاً:

- عندما أُعيدَ لنا زكريا، الذي كنا نعتقده ميتاً، أدركت أننا قد أُعطينا فرصة ثانية في هذا البلد، وهذه الفرصة لن أدعها تفلت من يدي! لذلك بلّغي زوجة الخال حبيب ألا تتعب نفسها في البحث عن عروس لأن يوسف لن يدخل قفص الزواج إلا إذا كانت قضبانه من الذهب وبابه مرصعاً بالماس.

-52-

تحول غريب طرأ على جرجس رشو جعل قامته تنمو وتطول مع أنه قد تجاوز الستين! الذين عرفوه قصيراً، على مدى عقود، احتاروا بمَ يعللون هذا التغيير. بعضهم عزاه إلى ارتفاع شأن الرجل الذي نجح في توطيد مكانته في حلب بفضل شبكة من العلاقات المفيدة؛ وبعضهم أرجعه إلى ولادة حفيديه، جرجس الصغير، ابن عبود وروزين، وممدوح، ابن مريم وسليم. أما وديعة، زوجته الطيبة والمسالمة، فكان لها رأي آخر؛ رأي لم تفصح عنه إطلاقاً، بسبب حيائها المتأصل من جهة، وارتهابها، من جهة أخرى، من زوج متنفذٍ عقد عليها وهي لا تزال طفلة وبقي يعاملها وكأنها قاصر. فلئن بدا جرجس رشو أطول قامة، في اعتقادها، فذلك لأنه غدا يتكلم وهو مرفوع الرأس! هكذا وبكل بساطة... ففي ماردين كان يخفض رأسه كلما فتح فاه، حفاظاً على سرية أقواله في أغلب الظن، فالخوف ما كان يفارقه بالرغم من ثروته الطائلة ومكانته المميزة؛ بل كان الخوف يلازمه بسبب هذه الثروة في الحقيقة، إذ كثيراً ما كانت تُلفَّق الاتهامات بحق الأعيان والأغنياء بهدف مصادرة أموالهم وممتلكاتهم. وأكثر ما كان يخشاه أن يعرف مصير جاره وصديقه، عزيز جبّورة، الذي اعتُقل وسُجن وانقطعت أخباره عن ذويه بسبب مستودعات القمح التي كان يملك! فقد وجهت إليه تهمة التجسس والتآمر، وهو الرجل الأميّ الذي يجهل معنى هاتين الكلمتين، وجرت مصادرة مستودعاته لحظة إلقاء القبض عليه.

في ماردين، كان جرجس رشو يخفض رأسه وصوته كيلا يلفت الأنظار إلى شخصه ولا يسمع الأغراب أقواله. في حلب، تحرر تدريجياً من هذه العادة، فبدا وكأنه قد نما وطال. والواقع أنه غدا، في بحر سنوات معدودة، من ذوي

الشأن في مدينة ينعم فيها التجار بمكانة مميزة. فقد احتلت حلب، على مدى الأزمان، موقعاً استراتيجياً على خريطة التجارة الإقليمية، بل حتى الدولية. فطريق الحرير مرّت عبرها، وقوافل التوابل توقفت عندها، وتجار الغرب والشرق حطّوا في ربوعها. في خانات مدينتها القديمة التقى تجار البندقية وجنوى بتجار العراق وتركيا والجزيرة العربية. وطبقاً للقوانين والضوابط الأخلاقية التي سنّها شيوخ تجارة هذه المدينة، أُبرمت العقود وانعقدت الصفقات.

جرجس رشو، التاجر بالفطرة، وجد في حلب المناخ المؤاتي الذي طالما بحث عنه. وعلى غرار النبتة التي أنعشها السقي بعد طول عطش وجفاف، اكتسب جسده الهزيل قدراً من النضارة وكثيراً من الحيوية. وما عاد «أبو عبود» يخطط إلا للمشاريع الطموحة، وما عاد يتحدث إلا عن «أهم شؤون الساعة» من تطورات عسكرية وسياسية. وبفضل جلساته غدت أسرة مسعود، أو ما تبقى من أفرادها في حلب بالأحرى، تطّلع على أبرز الأحداث وأخطر التحولات. فقد تابعتْ، على سبيل المثال، سيرورة بتر أوصال الإمبراطورية العثمانية، بعد حرب كونية خرجت منها مهزومة؛ وعلمت بأن أميراً آتياً من الحجاز قد نُصّب ملكاً على سورية وبأن عهده، الذي اتسم بالاضطراب، جاء قصيراً للغاية؛ وأفيدت بأن فرنسا تستعد لفرض هيمنتها على البلاد بحجة تهيئتها للحصول على استقلالها بعد فترة قد تطول أو تقصر... وحين أوضح جرجس رشو أن الأمير القادم من الحجاز لم يحظ بتأييد فرنسا، ربما لأنه كان مدعوماً من قبل مسؤول إنكليزي رفيع المستوى يدعى لورنس، انبرى يوسف يقول، بانفعال واعتزاز: «إني أعرف لورنس هذا؛ فقد بات عندنا!... أعني في الفندق... أجل، أمضى بضع ليال في «أوتيل بارون» ووقّع باسمه على سجله». أديبة، التي كانت حاضرة هذا الحوار، شعرت وكأنها تعلو مرتبة لدى سماعها أقوال شقيقها. بل إنها رمقت زوجها بنظرة بليغة لو أجاد الرجل قراءتها لأدرك أنها تعيِّره في أسرته: فهل قيِّض لواحد من آل قصار

أن يصادق «مسؤولاً إنكليزياً رفيع المستوى» له من النفوذ والجبروت ما يخوّله حق تنصيب ملوك على سوريا؟... صحيح أن يوسف لم يقل إنه «صادَق» المدعو لورنس، ولكنه شاهده، تبادل معه أطراف الحديث ولا بد!

يوم جاء جرجس رشو بذكر لورنس صارح يوسف شقيقه الأكبر بمخاوف كانت تراوده منذ فترة. «هنالك أمور تقلقني، قال بعد أن انزوى مع سليم في ركن منعزل؛ فما أخشاه هو أن يكون زوج خالتي قد انضم إلى واحدة من الجمعيات السرية التي راجت في الآونة الأخيرة؛ وإلّا كيف تفسّر إطلاعه الوثيق على أحدث التطورات العسكرية والسياسية، وحتى الاقتصادية؟... وأكثر ما أخشاه هو أن يكون جرجس قد أصبح ماسونياً؛ أن يكون قد انضوى تحت لواء هذه الحركة السرية التي ما فتئ نفوذها يتعاظم». سليم، الذي كان قد تجرع بضعة كؤوس من العرق، والتهم عدداً من أقراص الكبة التي برعت خالته وحماته وديعة في إعدادها، كان في حالة من الرضى والانتشاء حصّنت وجدانه ضد المخاوف والقلق. وبكثير من اللامبالاة سأل شقيقه: «ولماذا تخشى على العم جرجس وتحسب لمصيره ألف حساب؟ وما مأخذك على تلك الحركة التي لا تقبل، أصلاً، في عضويتها إلا أكارم الناس؟»، فانبرى يوسف يجيب، وقد غلب عليه الانفعال: «ما مأخذي عليها؟ إنها ضد الدين، يا سليم! من يصوم ويصلي لا يصير ماسونياً!... لقد حرّمتها الكنيسة في مطلق الأحوال، واعتبرت الانخراط في صفوفها خروجاً عن الصراط المستقيم». هزّ سليم كتفيه في حركة استخفاف وعقّب قائلاً: «سيان عندي إن حاد أبو عبود عن الصراط المستقيم أو بقي ملتزماً به... ولست أدري إن كان قد غدا ماسونياً أم لا. ما أعرفه، بالمقابل، هو أن وضعه المالي ما فتئ يتحسن في الآونة الأخيرة. فإن عاد الفضل في ذلك إلى انتمائه إلى جمعية سرية بعينها، فيا ألف مرحباً بهذا الانتماء الذي يزيد من رغد عيشنا». وإزاء النظرة المستنكرة التي رمقه بها يوسف تابع سليم يقول: «ألم نعانِ بما فيه

الكفاية حتى الآن؟ ألا يحق لنا أن نتنعم قليلاً في هذه الحياة؟ ثم، ألا يتوجب علينا أن نؤمّن لأولادنا مستقبلاً مشرقاً؟ كل أملي في هذه الحياة، يا يوسف، ألا يعاني ممدوح من الحرمان الذي كابدنا منه خلال السنوات الأخيرة...».
وكاد يوسف يجيبه: «أمّن لابنك مستقبلاً مشرقاً بفضل جهدك وعملك لا بالاعتماد على ثروة حميك»؛ غير أنه آثر الصمت. فسليم يبقى شقيقه الأكبر، واحترامه يظل واجباً.

«لقد أصبح ماسونياً ولا بد، وإلا كيف حصل على كل هذه المعلومات؟»؛ سؤال أعاد يوسف طرحه على نفسه وهو يصغي إلى جرجس رشو الذي احتكر الكلام في جلسة عائلية موسّعة انعقدت في داره الكائنة في حارة البرغل. كانت بهية قد حضرت مع أولادها، والخالان حبيب وباسيل مع زوجيتهما، وكذلك عبد المسيح هدايا مع زوجته وبكر بناته، بهيجة، خطيبة إسكندر، ثاني أبناء جرجس رشو. وحده داود، الابن الأصغر، تخلّف عن تلك الجلسة مرغماً: فقد أمره والده بلزوم غرفة النوم، بعد أن بلغه نبأ تواجده عشية ذلك اليوم في المحل العمومي، في شارع بحسيتا... كانت الخالة وديعة قد أعدّت كمية وافرة من الكليجة تولّت مريم توزيع أقراصها على الحضور فيما كان حموها ينقل إليهم آخر ما سمع من أخبار البلد.

- لقد علمت من مصدر موثوق، قال، أن رشيد، الطبيب السفّاح، المسؤول عن قتل الآلاف من الأبرياء في ولاية ديار بكر، قد أقدم على الانتحار... كان اللعين قد اعتُقل فور انتهاء الحرب وزُجّ به في سجن بكير آغا في اسطنبول. غير أنه تمكّن من الفرار من هذا السجن، بالتواطؤ مع بعض الحراس. بقي لبضعة أشهر متوارياً عن الأنظار، مختبئاً في حجرة لا يغادرها على الإطلاق. لكن أمره افتضح في نهاية المطاف، ففضل أن يضع حداً لأيامه على أن يدخل السجن من جديد.
- الله لا يرحمه، قال إسكندر الذي بدأ يتجرأ على إبداء رأيه في حضور والده بعد أن عقدت خطوبته على الآنسة بهيجة هدايا.

- بل لعنة الله عليه وعلى ذريته ألف وألف مرة، زاد سليم الذي كانت تثور ثائرته كلما جاء أحدهم بذكر مجازر أبرياء مسقط رأسه.

كحّ جرجس رشو قبل أن يتابع قائلاً:

- إن المصدر الموثوق عينه قد أطلعني على حوار دار بين رشيد وبين مسؤول كبير في اللجنة المركزية لحزب «الاتحاد والترقي». إنكم تتساءلون ولا بد: ومن أين له أن يعرف ما دار من كلام بين الرجلين؟ حسناً! لقد نقلته صحيفة معروفة تصدر في اسطنبول، وقد ذَكر لي اسمها غير أني لم أحفظه... المهم أن المسؤول الحزبي ذاك قد سأل رشيد كيف طاوعه قلبه بأن يرسل إلى الموت طوابير من الأبرياء، ولاسيما أنه طبيب، أي إنسان تقتضي منه مهنته أن يعالج لا أن يقتل؟ وبعد أن أجاب رشيد بأن مهنته كطبيب لم تجعله ينسى منصبه كوالٍ ولا هويته كتركي، راح يحاول تبرير جرائمه قائلاً: «إن بعض الخونة الأرمن، المعششين داخل جسد الوطن، قد غدوا بمثابة جراثيم خطيرة تهدده. أفليس من واجب الطبيب أن يقضي على الجراثيم حيثما وجدها...». وأضاف السفاح بعد ذلك: «كنا أمام حلّين لا ثالث لهما: إما أن نُصفّى على أيدي الأرمن وإما أن نصفّيهم. وقد اخترت الحل الثاني بلا أدنى تردد، مسبّقاً هويتي على مهنتي، موافقاً على سفك الدماء، حتى ولو ذهب أبرياء ضحية تآمر الخونة من إخوانهم».

كان جرجس رشو سيمضي في حديثه لو لم يقاطعه يوسف سائلاً:

- لكن رشيد لم يتكلم إلا عن الأرمن؛ فمن الذي أمر بقتل وتهجير السريان، والكلدان، وسواهم من مسيحيي ولايات الأناضول الشرقية؟

استوى الرجل في جلسته فازدادت قامته طولاً؛ وارتسمت على شفتيه ابتسامة مظّفرة وهو يوضح:

- يبدو أن السياسات المحلية وأطماع المتنفذين في تلك الولايات هي وراء

مجازر المسيحيين غير الأرمن... إن المسؤولين في «الاتحاد والترقي» لم يخططوا لها؛ كل ما هنالك أنهم غضّوا النظر عنها.

هنا عارضه سليم قائلاً:

- هذا كلام غير مقنع يا عم! فأي قائمقام أو متصرف، بل أي والٍ كان سيتجرأ على اتخاذ مبادرات بهذه الخطورة لو لم يحظَ بموافقة السلطة العليا في اسطنبول؟

أنعم جرجس رشو النظر في صهره ثم أجابه بنبرة راشد يشرح لطفل:

- أنا لم أقل يا سليم إن المنفّذين خرجوا عن طاعة رؤسائهم، أو إنهم لم يستشيروهم قبل الإقدام على فعلتهم. ما قلته هو التالي: إن مجازر السريان والكلدان لم يخُطَّط لها من قِبل «الاتحاد والترقي»؛ لم تكن تشكّل هدفاً صريحاً له. ولكن حين وقعت وافق عليها أو غضّ النظر عنها... هنالك فارق بين الموقفين يتوجّب على من يحلل الأوضاع ألا يتجاهله.

- اِشرح هذا الفارق للذين عُذِّبوا وقتلوا، أجاب سليم بحدة؛ اشرح هذا الفارق لأخي ممدوح فعساه يجد الراحة في تربته!

وفيما راحت مريم تضغط على يد زوجها لتحمله على التعقل في حضور والدها، وفيما رمى الخال حبيب ابن شقيقه بنظرة زاجرة وهو يشير بحركة من يده إلى بهية التي اكفهر وجهها لدى ذكر اسم ابنها القتيل، دنت لطيفة من زوج خالتها وسألته باهتمام:

- وما الذي حلّ بممدوح الآخر؟ أعني ذلك الشرير الذي كثيراً ما كنتم تتحدثون عنه عندما كنا لا نزال في ماردين.

تنهد جرجس قبل أن يجيب:

- لقد لاذ بالفرار وامّحى أثره؛ شأن توفيق... لقد أفلت المجرمان من يد العدالة.

- تقصد «العدالة» التركية! قاطعه سليم بنبرة هازئة.

تجاهل جرجس ملاحظة صهره وتابع يقول:

- لقد اعتقل الإنكليز عدداً من المسؤولين عن جرائم الحرب وسجنوهم في جزيرة مالطة. وقد علمت، من المصدر المطلع عينه، أن السلطات الإنكليزية أنجزت ملفات اتهام، مدعومة بالشهادات، بحق أربعة من المتنفذين الأتراك الذين لعبوا دوراً مباشراً في مجازر ولاية ديار بكر، وفي سنجق ماردين على وجه الخصوص.

- ومن هم هؤلاء المسؤولون؟ سأل يوسف باهتمام.

- هنالك أولاً عارف فوزي، النائب عن ولاية ديار بكر في البرلمان التركي وذراع رشيد اليمنى في مجازر عام ١٩١٥. ومما ورد في ملف اتهام هذا السفاح أنه عهد إلى اثنين من قطاع الطرق المعروفين، كانا حكم عليهما بالإعدام غيابياً أكثر من مرة، عهد إليهما بتصفية ستمئة وسبعين رجلاً من أعيان أرمن ديار بكر ومثقفيهم. وقد تولى المجرمان سوق الضحايا حتى شليكان، الواقعة على مسافة ثلاثين كيلو متراً من ديار بكر، وبادرا إلى تصفيتهم تباعاً، بوحشية لا توصف. ولدى عودتهما إلى ديار بكر استقبلهما فوزي بالترحاب وسألهما بمودة: «هيا، حدِّثاني: ماذا فعلتما يا بَطَلان؟»، فأجاباه بفخر واعتزاز: «نحلف برأسك يا أفندي بك أن ما مِن واحد من بينهم قد نجا من الذبح»...

أولع جرجس رشو سيجارة وجال بنظراته على الحضور قبل أن يتابع، قائلاً:

- إن فوزي بك هو الذي كان أشرف، فور وصوله إلى ديار بكر قادماً إليها من منطقة الجزيرة، على تشكيل «المنظمة الخاصة»؛ أعني ذلك الجهاز الجهنمي الذي كان سباقاً إلى سفك دماء أرمن الولاية بحيث قضى منهم زهاء مئة وعشرين ألف شخص!... وإلى «المنظمة الخاصة» هذه ينتمي وليّ نجدت بك، ثاني المتهمين الأربعة. والغريب في أمر هذا السفّاح، الذي تفنن في تعذيب الأسقف تشيلغديان قبل أن

يقتله، أنه متحدر من أسرة بونيللي الإيطالية. إنه مسيحي الأصل، بتعبير آخر؛ ومع ذلك قتل الآلاف من المسيحيين لا لسبب إلا لكونهم مسيحيين! إن مسؤوليته في مجازر ولاية ديار بكر لا تقلّ عن مسؤولية بدر الدين، المتهم الثالث الذي يطالب الإنكليز بمحاكمته.

- هل تقصد متصرف ماردين الأسبق؟ سأل سليم بلهفة.
- أجل، أجاب جرجس رشو؛ المقصود هو بدر الدين متصرف ماردين ثم والي ديار بكر. إن السلطات العثمانية هي التي ألقت القبض عليه، نزولاً عند طلب الإنكليز؛ وقد أودِع في أحد سجون مالطة، أسوة بالجاويش يوسف، ابن نوري البدليسي، قائد ميليشيا ماردين.

عبود رشو، الذي لم ينبس ببنت شفة منذ بداية الجلسة، تدخل ليقول:

- آمل أن يُنزَل أشد العقاب بالجاويش يوسف، فهو المسؤول عن مجزرة بلدة القصور التي كان من ضحاياها شاب من عائلة جبور تعرّفت عليه قبل مصرعه بأسابيع معدودة. شاب لطيف، مهذب، خلوق، وسليل أسرة عريقة فوق ذلك كله.
- لقد كانت دار آل جبور مسرحاً لتلك المجزرة، أوضح سليم. فقد كان عميد الأسرة، منصور جبور، الذي جرى اعتقاله في تموز ١٩١٥ مع عدد من الوجهاء السريان، طالب فور الإفراج عنه بإرسال قوات إلى القصور لحماية سكانها، وجلّهم من اليعاقبة والسريان الكاثوليك. وقد أُرسلت، بالفعل، فرقتان من الجندرمة والعسكر إلى تلك البلدة، وكانت الفرقتان بقيادة الجاويش يوسف. وبدلاً من أن يتولى اللعين حماية السكان الآمنين دعاهم للتجمع في دار آل جبور الفسيحة، ثم أصدر أمره للجند بقتلهم.

«كانت تلك الدار سرايا حقيقية»، عقّب جرجس رشو الذي غلب عليه حزن مفاجئ. كيف لا وقد أمضى أجمل السهرات في تلك الدار، ينعم بضيافة

منصور جبور، الذي لا مثيل لكرمه، ويتسامر مع خيرة القوم من أهل الولاية برمتها؟

- دعونا من الماضي، قال الخال حبيب إزاء الاكتئاب الذي تلبّس زوج شقيقته؛ فالحرب قد انتهت والحمد لله... ومع أننا سررنا بوجودكم بيننا فما هي إلا أشهر حتى تعودوا إلى بيوتكم. فبهية التي طالما حدثتني عن دارها الجميلة والفسيحة في ماردين تتشوق، ولا بد، للعودة إليها. وتلك هي حال وديعة أيضاً في أغلب الظن.

وعقّب الخال باسيل على كلام شقيقه بأن قال، بين الجد والمزاح:

- ربما نتحرر من غلاء المعيشة مع عودة المهجّرين إلى ديارهم... فقدومهم بكثرة قد زاد طين الفاقة الغذائية بلّة!

وإزاء النظرات المستهجنة التي تسلطت عليه من كل صوب سارع يضيف:

- أنا لا أتكلم بلسان حالي وإنما أعبّر عن رأي شائع...

- سوف تضطرون إلى تحمّلنا لسنوات، بل لعقود طويلة، أجابه جرجس رشو؛ فكيف يعود المهجرون إلى ديارهم والهجرة منها لا تزال مستمرة؟ فما عاد أسبوع واحد ينقضي من دون أن يصل إلى حلب فوج جديد من المهاجرين.

- ولماذا؟ سأل يوسف مستغرباً؛ فالتحركات الدبلوماسية ماضية على قدم وساق لتسوية الأوضاع في الولايات الشرقية، لاسترداد حقوق الطوائف المغبونة. لقد سمعتَ، ولا بد، مثلما سمعتُ أنا: فقد قصدت وفود، تمثل الأرمن والسريان والكلدان، العاصمة الفرنسية لعرض شكاواها ومطالبها أمام المشاركين في مؤتمر السلام؛ كما علمتَ، ولا بد، أن عصبة الأمم شكّلت لجنة أميركية - تركية لتقّصي الحقائق في المناطق المنكوبة ولإيجاد حلول للمآسي الإنسانية التي خلفتّها السوقيات وسياسة التهجير... باختصار، إن الأمور بدأت تتحرك، وفي اتجاه

إيجابي. حتى لقد فكرت ببعث رسالة إلى إلياس كنعان، زوج عمتي سلمى، أدعوه فيها إلى مغادرة السنجار والعودة إلى داره في القصور.

- ولماذا؟ سأله جرجس رشو بحدة؛ لماذا يغادر السنجار حيث يعيش في حماية حمّو شيرو، ليعود إلى بلدة لا تعده إلا بالذل والعداء؟... لا تنصحه بالعودة بصورة من الصور، أرجوك!

وإزاء الحيرة التي ارتسمت على وجه يوسف تابع جرجس يقول:

- إن الوفود التي ذهبت إلى باريس قد عادت بخفي حنين. أُسمعتْ كلاماً معسولاً ثم صُرفت من دون تحقيق أي إنجاز. قيل لأعضاء تلك الوفود إن «أوضاعهم سوف تدرس»؛ متى؟ وكيف؟ ومن قبل من؟ أسئلة ظلت بلا جواب. أما اللجنة التي تحدثت عنها فهي لم تخرج بنتيجة تذكر لكثرة العراقيل التي وضعها المسؤولون الأتراك في وجهها، فقد أخفوا عنها الوثائق والمستندات الرسمية، ورفضوا كافة أشكال التعاون معها، وحالوا دون حصولها على المعلومات من الأرمن والسريان الذين لا يزالون متواجدين في الولايات الشرقية.

بدا يوسف وكأنه غير مقتنع بكلام زوج خالته، ولاسيما أن ما جناه شخصياً من معلومات يتنافى مع الصورة السلبية التي رسمها جرجس رشو. لذلك أصر على معارضته وقال بلهجة واثقة:

- لقد سمحت لي ظروف عملي بأن أتعرّف على فتاة من الدانمارك أقامت لفترة في الفندق بصفتها عضوة في لجنة تقصي الحقائق التي شكلّتها عصبة الأمم. إنها تدعى كارِن، وقد أنجزتْ عملاً جباراً خلال وجودها بيننا.

- وما طبيعة العمل الذي أنجزتْ؟ استفسر جرجس رشو ببرود.

- لقد جمعتْ فيضاً من المعلومات بعد أن اتصلت برموز الطائفة الأرمنية في حلب، من مقيمين فيها إلى مهجّرين إليها؛ سوّدت مئات الصفحات بالشهادات، والإحصاءات، والحقائق، وبأسماء القتلى، والمفقودين،

والمهجّرين، والمشرّدين، معيرة اهتماماً خاصاً لمأساة النساء والأطفال الذين تحولوا إلى رقيق في بيوت من اشتراهم بأبخس الأثمان.

- بيّض الله وجه هذه الفتاة، عقّب جرجس رشو بنبرة لا تخلو من تهكم؛ بيّض الله وجهها وأسكنها فسيح جناته بعد وفاتها... ولكن قل لي يا يوسف: هل العمل الذي أنجزته سيقدّم أو يؤخّر في أوضاع ضحايا الظلم التركي؟ هل سيحول دون الإجراءات التعسفية التي لا زالت تؤخذ بحق المسيحيين في منطقة الكردستان؟ فلم يبق سوى النساء والأطفال في قرى هذه المنطقة؛ أما سكانها الرجال، من أرمن وسريان وكلدان، فقد أُرغموا على مغادرتها وجرى تجميعهم في البلدات والمدن: في بالو، ديار بكر، سعرت، ماردين... لماذا؟ للتخلص منهم! لا بالقتل هذه المرة بل بالتهجير. فسبل العمل لا تتوفر لهم على الإطلاق في مقر إقامتهم الجديد، وذلك لسبب بسيط: فقد حُظِّر على الآهلين تشغيلهم، وإسناد أي نوع من العمل إليهم... ولمّا كانت أوضاعهم لا تطاق تراهم يرحبّون بالهجرة إلى سورية. هجرة تشجعهم السلطات التركية عليها بمنحهم بكل سهولة جوازات سفر. وغالباً ما يصل هؤلاء المساكين إلى القامشلي أو حلب وليس في جيوبهم مجيدية واحدة! يكونون قد جُرّدوا من أموالهم بحجة تسديد بدل الجندية، تارة، أو دفع ما ترتب من ضرائب على أراضيهم منذ اندلاع الحرب، تارة أخرى. علماً بأن هذه الأراضي قد انتُزعت منهم عنوة وأُعطيت لفلاحين أتراك بصفتها «أملاكاً مهجورة»!... والأنكى من ذلك أن مراكز الحدود لا تدعهم يغادرون إلا بعد أن تكون قد طبعت على سمات مرورهم عبارة: «ممنوع العودة إلى تركيا»...

- إن قدومهم إلينا هو بلا عودة إذاً، عقّب الخال باسيل بلهجة مداعبة.

أومأ جرجس رسو برأسه موافقاً، فتابع الخال باسيل، باللهجة المداعبة عينها:

- كان علينا أن نعاملكم بالمثل؛ كان علينا أن نختم جواز سفر وديعة وبهية بعبارة «ممنوع العودة إلى حلب!».

وانطلق الجميع يضحك، فيما عدا يوسف الذي كان يفكّر بالفتاة الدانماركية ولا بد؛ إذ ما أن خفّت الضوضاء وخيّم الهدوء من جديد حتى بادر إلى القول، موجهاً كلامه إلى زوج خالته على وجه الخصوص:

- إن العمل الذي تقوم به لجنة تقصي الحقائق قد لا يعود بفائدة مباشرة على ضحايا الظلم والاستبداد. غير أنه يبقى ذا فائدة عظيمة بالنسبة إلى المستقبل.

- ولماذا؟ سأل جرجس رشو.

- لأنه يحول دون امّحاء تلك المآسي من ذاكرة البشر.

-53-

أحضرت بهية صينية القهوة ووضعتها فوق طاولة صغيرة توسطت غرفة الجلوس؛ جالت بعد ذلك بنظرها على سليم وأديبة وروزين وقالت وهي تبتسم جذلى:

- يا مئة مرحبا بكم؛ إن مجيئكم يسعدني ويخفف من وحدتي؛ يا ألف مرحباً بكم!

كان الثلاثة قد غدوا يترددون بصورة شبه يومية على دار بهية. أديبة تصل بالأول، بعد الغداء مباشرة، حاملة ابنتها على ذراعها؛ وتليها روزين، بعد ساعتين أو ثلاث، دافعة ابنها في عربة صغيرة. وقبل الغروب بقليل يأتي سليم الذي اعتاد لدى خروجه من العمل أن يعرِّج على دار والدته قبل أن يؤوب إلى داره. فقد أصبح الآن يعمل؛ يداوم على مكتب استأجره جرجس رشو في خان الحرير لإدارة تجارة الحبوب والجلود والصابون التي بات يمارسها في مدينة الشهباء. ولئن تذرّع الثلاثة برغبتهم في الترويح عن بهية لتبرير زيارتهم شبه اليومية لدار حي الصليبة، فإن ثمة اعتبارات أخرى في الواقع كانت تدفعهم إلى ممارسة هذا الطقس. فما من واحد من بينهم عرف السعادة في دار الزوجية. ولأنهم فشلوا في بناء «بيت» لهم، أي ذلك المكان المميز الذي يطمئن إليه القلب وترتاح له النفس، فقد استداروا نحو بيت بهية، في بحثهم عن الدفء والحنان والصفاء الذين ينشدون. سليم وأديبة لأنه بيت أمهما، وروزين لأنه البيت الذي عاش فيه أهلها قبل أن يهاجروا بعيداً عنها. «هنا أشم رائحتهم»، كانت تقول، فيجيبها سليم ممازحاً: «أكانت قوية إلى حد التغلب على الزمن؟».

وللمرة العاشرة، أو أكثر، عادت بهية ترحب بزوارها، بعد أن ناشدت

زكريا بألا يحدث ضجيجاً كي لا يوقظ حفيدتها وابن روزين المستسلمين للنوم في غرفة مجاورة.

«سوف أتولى رعايتهما، قالت لطيفة؛ ولن أدع زكريا يقترب منهما». تفوهت بهذه الكلمات وغادرت إلى غرفة الجلوس حاملة معها القميص الحريري الذي انشغلت بتطريزه. قميص لن يذهب إلى السنيورة روزيللي، بل سيعلّق على مشجب في دولابها الخشبي! فقد أهداها يوسف نسيجه الحريري، وتطوعت أديبة لتفصيله، وها هي تقوم اليوم بتطريز ياقته وأجزاء من صدره. لن ترتدي هذا القميص ما لن تكون هناك مناسبة هامة. وقد غدت تتوقع اقتراب موعد هذه المناسبة رغم صمت يوسف وتفاديه إثارة الموضوع. ففي نيته أن يخطب؛ إنها مستعدة لأن تقسم بذلك. فقد تغيرت طباعه منذ فترة. بات يعير هندامه قدراً أكبر من الاهتمام، وينظر إلى نفسه مطوّلاً في مرآة الدولاب كلما مرّ بجواره؛ بل أصبح يغنّي وهو يحلق ذقنه أو يمسح حذاءه. لمرّتين في الأسبوع على الأقل بات يتخلف عن موعد عودته المعتاد إلى البيت. أمها تعزو هذا التأخر إلى كثرة عمله: فهو ينهض بوظيفتين لا بواحدة. أما هي، فلها رأي آخر؛ إنها على اقتناع بأنه يقصد دار الفتاة التي ينوي أن يعقد عليها. حاولت أكثر من مرة أن تستدرجه، غير أنه رفض أن يبوح بسره. لا بأس... سيأتي اليوم الذي سيضطر فيه إلى الإفصاح عن مشروعه. وينبغي أن يكون القميص المطرّز جاهزاً برسم ذلك التاريخ الحاسم. فلتواظب على شغله.

في غرفة الجلوس أيضاً كان الحديث يدور حول مشروع خطوبة؛ ولكن خطوبة حنّا، لا يوسف. كانت روزين هي التي أثارت هذا الموضوع إذ بادرت إلى القول، فور انتهائها من احتساء قهوتها: «يبدو أن ابن عمنا حنّا قد عزم على الزواج؛ لقد علمنا بالنبأ على نحو غير مباشر. فالفتاة التي تقدم في طلب يدها هي من أسرة إسحق؛ وخالتها تقطن غير بعيد عنا، وهي التي زفّت لنا الخبر».

وشددت روزين على كلمة «زفّت» منتزعة ابتسامة تواطؤ من سليم الذي سارع يعقب قائلاً: «أُدرك الآن سبب الحبور البائن على وجهك؛ فقد غمرك الفرح، ولا بد، لأن حنا سوف يعرف نعيم الحياة الزوجية». وأضاف بصوت خافت، وكأنه يبوح بسر: «سعادة كالتي نسبح فيها نحن الثلاثة». ضحكت روزين وزمّت أديبة شفتيها استياء واحتجاجاً. أما بهية فقد استغربت صمت رزق الله وفريدة وتقصيرهما بحق الأسرة: «كان حرياً برزق الله أن يبعث إلينا برسالة يعلمنا فيها بهذه الخطوة»، قالت. «ربما تكون هذه الرسالة في طريقها إلينا»، أوضحت أديبة. «بل ربما تكون قد تاهت في دربها!»، زادت روزين بنبرة متهكمة. أما سليم الذي كان يحلو له ممازحة ابنة عمه، وإن على حساب عواطفها وكبريائها في بعض الأحيان، فقد تساءل باهتمام مفتعل: «هل وقع حنّا في عشق تلك الفتاة إلى حد التعدي على حقوق شقيقه الأكبر؟ فكيف يعزم على الخطوبة، فالزواج، وأنيس لا يزال عازباً؟...». رمقته روزين بنظرة ساخرة بقدر ما هي عاتبة قبل أن تجيب: «لا بد أن الخطيبة من النوع الذي يخلب عقول الرجال ويأسر قلوبهم... امرأة كالتي كنت تحلم بالعقد عليها!». فتدخلت أديبة لتقول: «ما عاد سليم يحلم إلا بمريم: أفليست زوجته؟». «بكل تأكيد»، أجاب سليم متهكماً. «علام التوكيد؟ أعلى كونها زوجتك؟»، سألت روزين. وراح الاثنان يضحكان فيما استدارت أديبة نحو أمها، وكأنها تريدها شاهداً على خروج شقيقها وابنة عمها عن أصول اللياقة.

كانت لطيفة تصغي إلى الحديث الدائر في الغرفة المجاورة. شاورت نفسها بالمشاركة فيه بإفصاحها عما تخمّن وتتوقع، بيد أنها لم تفعل. فقد آثرت أن تحتفظ لنفسها بسر يوسف، أن تنفرد بمعرفة ما يخطط له، أن تكون السبّاقة إلى القول، يوم يصارح ذويه بمشروعه: «لقد كنت على علم بما يجري». يوسف ليس على غرار سليم؛ فلو تزوج لما ندب حظّه. وهو ليس على غرار روزين وأديبة؛ فهو لن يتزوج إلا راضياً وراغباً. مع يوسف تبدو الأمور

سهلة، والفرص ميّسرة، والإمكانات غير محدودة. «إن الله يفتحها في وجهه»، تقول أمه. ولكن هل كان الله سيساعده لو لم يساعد، هو، نفسه؟ إنه يصلي، هذا صحيح، بعكس سليم. ولكن أديبة أيضاً تصلّي، فلماذا «لم يفتحها الله في وجهها؟»... إن شاءت أن تنجح في حياتها فعليها أن تقتدي بمثال يوسف، ولو كانت، في صميمها، تفضل سليم. تفضّل انهزاميته، وسخريته من نفسه، والدمع الذي يطفر من عينيه لدى سماعه لحناً حزيناً، والفرح الطفولي الذي ينتابه عندما يشارك في حفل أو يشرب كأسين أو ثلاثاً... إنها تغفر له حتى إدمانه على الكحول. الأمر الوحيد الذي لم تغفره له هو زواجه من مريم. فعندما تشاهده في صحبتها تغلب عليها الرغبة في البكاء: فبقدر ما هي قبيحة هو جميل!... لحسن الحظ جاء ممدوح الصغير على صورته وإلا ما كانت ستقوى على حبه.

بلغت لطيفة هذا الحد من تأملاتها عندما نادت عليها أمها. وكادت تصعق لدى سماعها تقول: «بدلي ثيابك وأعيدي تسريح شعرك، فلن يمضي وقت طويل حتى يصل يوسف بصحبة ماتيلدا، الفتاة التي ينوي أن يعقد عليها»...

-54-

«ماتيلدا»؛ اسم لم تفلح لطيفة في لفظه والتآلف معه إلا بعد طول جهد؛ وكم بالأحرى اسم مخزن الأدوية الذي يملكه والدها: «ازدخانة»! مخزن ليس كسائر المخازن على ما يبدو إذ يفترض بصاحبه أن يكون متعلماً، بل حاصلاً على شهادة عليا. معلومات أفادها بها يوسف الذي بدا معتزاً بعمل والد الخطيبة أكثر منه بجمال هذه الأخيرة وطباعها. «لكأنه سيعقد على فيليب أسود بشخصه لا على ابنته ماتيلدا»، كان يردد سليم متهكماً. علماً بأن ماتيلدا كانت أنيقة الشكل، لطيفة المعشر. وقد أثنى الجميع على بهاء طلعتها وعلى تواضعها وحسن أخلاقها، فيما عدا أديبة التي ما فتئت تكتشف فيها عيوباً ونواقص. فقامتها المشوقة هي، في نظرها، رديف هزالة قد تحول دون الحمل والأمومة. ونزعتها إلى إكرام الناس والإنفاق عليهم بسخاء هي «تبذير وهدر للمال». أما تواضعها فلا مبرر له أصلاً: فعلى من ستتعالى سليلة آل أسود؟ أعلى يوسف مسعود وذويه؟ فقد أنعم الله عليها عندما هدى يوسف إليها!... كلام كانت تصحّحه بهية قائلة: «لقد رضي الله على الاثنين عندما شاء أن يجمعهما». أن يجمعهما معنوياً، لا جسدياً، على المدى القريب على الأقل. فقد رفض يوسف أن تعيش ماتيلدا معه تحت سقف واحد ما دام هذا السقف كائناً في حي الصليبة. «إن ازدخانة والدها تقع في شارع التلل، ودارها كائنة في العزيزية، فكيف تطاوعني نفسي على إسكانها في هذا الحي الشعبي؟». وسرعان ما وجدت لطيفة نفسها مضطرة إلى حفظ اسم ثالث، «النيّال»، وهو اسم الشارع الذي عزم يوسف على الانتقال إليه. «إنه لأبناء الطبقة الوسطى من أمثالنا، كان يقول؛ للأسر الكريمة التي تستطيع أن تنفق على مسكن لائق، وإنما في حدود». ذلك أن يوسف قد غدا قادراً على الإنفاق،

ـ في حدود طبعاً، بعد أن أصبح المسؤول الأول عن المحاسبة في الشركة التي يملكها الحاج عبد الخالق، بل المدير الفعلي لها. فتقدُّم الحاج في السن ما عاد يسمح له بأن يداوم على مقر عمله في قسطل الحجّارين، كما أن تدهور صحة وحيده، عبد القادر، المصاب بـ«نزلة صدرية حادة»، بالسلّ في الواقع، كان يرغمه على لزوم البيت في معظم الأحيان. وبالرغم من تزايد حجم مسؤولياته في شركة الحاج عبد الخالق وتضاعف ساعات عمله فيها، لم يتخلَّ يوسف عن وظيفته في فندق بارون؛ لحاجته إلى مرتبين أولاً، وخوفاً من أن يجد نفسه، ثانياً، عاطلاً عن العمل في يوم أسود!... فعلى من سيعتمد في هذه الحال؟ أعلى سليم أم على أديبة؟...

لم يفكر يوسف، لحظة واحدة، بأن ينفرد بمسكن جديد مع زوجته. فقد كان يعتبر نفسه المسؤول الأول، والأخير، عن أمه وشقيقته الصغرى. ذلك أن سليم كان يعيش، عملياً، على نفقة آل رشو، ولا يقوى، بالتالي، على إعانة أي كان. صحيح أنه غدا يعمل، بمعنى أنه صار يتردد يومياً على مكتب المقاولات الجديد الذي افتتحه جرجس رشو في خان الحرير. غير أنه كان ينفق ساعات نهاره في التدخين، واحتساء القهوة، وطقطقة حبّات سبحته، وخوض مباريات في طاولة الزهر مع ابن خالته عبود تارة، ومع جارهم في الخان، الحاج حسن سماقية طوراً. كان جرجس رشو هو الذي يعقد الصفقات؛ يجري الاتصالات، يدرس العروض، يستقبل التجار، يبيع، يشتري، ويحقق الأرباح تلو الأرباح. كان يتأفف، علناً، من لامبالاة عبود وسليم بمصير أعماله؛ من جهلهما المطبق بشؤون تجارته؛ من عجزهما عن اتخاذ مبادرات، والتخطيط لمشاريع تعود عليهما بمكاسب طائلة. كان يأخذ عليهما قلة جرأتهما، وانعدام رغبتهما في جني الأرباح. مع أنه لو دلل واحد منهما على تلك الجرأة وعلى هذه الرغبة، لاستاء على الأرجح غيرة على عمله أولاً، وحرصاً على الانفراد في اتخاذ القرارات الهامة وفي جني الأموال ثانياً. «ليس سليم من سينافسك على صلاحياتك»، قالت له مريم ذات يوم بنبرة هازئة. لا، لن ينافس سليم

أحداً على صلاحياته أو عمله؛ فحسبه أن يُنفق ما جناه سواه. حقيقة انتهى جرجس رشو إلى إدراكها؛ حقيقة أدركها يوسف منذ زمن؛ لذلك تراه يدمج أمه وشقيقته الصغرى في مشاريعه المستقبلية. «سوف يأتي يوم، كان يقول لبهيّة، أصبح فيه على رأس أموال وممتلكات؛ سوف يأتي يوم أنقلكما فيه، مع زكريا، إلى دار لا تقلّ فخامة وأبهة عن تلك التي بناها جدي يونان في ماردين». كلام كانت تستقبله بهية بابتسامة رضى وتعقّب عليه قائلة: «وهل تريد للطيفة أن تصير عانساً كي تبقى مقيمة معنا؟ فبعد عام أو اثنين تغدو في سن الزواج».

لقد اتفق أن دار هذا الحديث، ذات يوم، في حضور أديبة، فسارعت تجد فيه موضوعاً للمعارضة وللاحتجاج: «ولماذا تقيم أمي في دارك بعد زواجك؟ سألت باحتداد؛ أفليس سليم ابنها الأكبر؟ أفليست مريم ابنة شقيقتها؟... أتريدها أن تتخلى عن نسيبة هي بمثابة ابنة ثالثة لها لتعيش مع فتاة غريبة لم تختبر مزاجها ولا طباعها؟». ولم تضف أديبة المزيد إزاء النظرة الصارمة التي رمقها بها يوسف والحكم القاطع الذي أطلقه بقوله: «لا مريم هي بمثابة ابنة ثالثة، ولا ماتيلدا هي بالفتاة الغريبة!».

وحده يوسف كان قادراً على إسكات أديبة. فهي تحترمه، بل تخشاه، وكأنه والدها لا شقيقها الأصغر. يوسف يفرض سطوته، في الواقع، على كل من يحيط به. حتى لطيفة تضطر إلى الانصياع لتوجيهاته مع أنها فطرت على التصرف وفق نزواتها وأهوائها. ومن آخر التوجيهات التي أصدرها إليها التخلي، قدر المستطاع، عن لهجتها الماردينية، والإقلاع، على نحو نهائي، عن زج كلمة «يو» أو «يَدِه» في كل عبارة تنطق بها. «ما دمنا نعيش في حلب، كان يردّد، فعلينا أن نتكلم بلهجة أهلها لا بلهجة أهل ماردين». واتفق أن راجعها ذات مرة في حضور روزين وعبود رشو، فثارت كبرياؤها وعلا صوتها وهي تجيبه: «كيف لا أتكلم بلهجة أهل ماردين وأنا منهم؟... أنا لا أتنكر لأصولي... إن شئت أن تتنكر لها أنت، إرضاء لماتيلدا وأهلها، فهذا شأنك».

«وما دخل ماتيلدا وأهلها، أجاب يوسف بانفعال: إنها مسألة تأقلم! فالاندماج هو الطريق إلى النجاح؛ ومن يُصرّ على تمييز نفسه عن الآخرين يُرفض، بالضرورة، ويُعامَل كجسم غريب... ولكنك أقل نضجاً من أن تفهمي هذه الأمور». وأضاف بعد هنيهة، وهو ينعم النظر في وجه شقيقته: «ما مأخذك على أهل حلب؟ ولماذا هذا الجفاء بينك وبينهم؟... أنسيت أن أمك حلبية، وأن أصولك، التي ترفضين التنكر لها، حلبية إلى حد كبير؟».

لاذت لطيفة بالصمت فاعتبر يوسف أن الموضوع قد طوي. وكان قد شرع بنقاش مع عبود حول آخر تطورات سوق القمح عندما سمعها تقول، وهي تحملق في الفراغ: «ماذا سيبقى لي من ماردين إن تخليت عن لهجتها؟».

حاولت مع ذلك، أن تتخلص عن تلك اللهجة، في حضور ماتيلدا وأهلها على وجه الخصوص. ذلك أنها دعيت مع أمها لتناول طعام الغداء على مائدة السيد فيليب أسود، كما أن السيد فيليب شرّفهم بزيارته بصحبة زوجته وبكر أبنائه، فيليكس. فقد أنعم الله على صاحب الأزدخانة بثلاثة صبيان هم فيليكس ولويس وديزيريه، «وبلاه» - والتعبير لزوجته - بثلاث بنات هن أدريين وغيتا وماتيلدا... تزوجت غيتا من محامٍ ثري يكبرها بعشرين عاماً، وعقدت خطوبة ماتيلدا على يوسف، ولم تبق سوى أدريين التي لم يفقد السيد فيليب الأمل في تزويجها رغم قباحة وجهها وتعدد العلل في جسمها؛ ذلك أنه قد خصّها بمهر كبير - بـ«دوطة»، كما تقول زوجته - وما فتئ يزيده عاماً بعد عام علّه يفلح في اجتذاب عريس. يوسف لم يوعَد بمهر. يوم صارحه السيد فيليب بموقفه، أي يوم أفهمه أنه لن يمنح «دوطة» لماتيلدا لأنها لا تحتاجها للظفر بشاب محترم، أكد يوسف بأنه لا يطمح في مهر تأتي به عروسه. وكان صادقاً في قوله؛ فقد كان يعتبر نفسه محظوظاً لأنه سيصاهر أسرة السيد فيليب أسود! «إنهم من خيرة القوم، كان يردد في حضور أمه؛ فدار السيد فيليب لا يؤمّها إلا الوجهاء، لم أزرها يوماً إلا وتعرفت على شخصيات حلبية جديدة؛ أطباء، قضاة، محامون، تجار... وقد غدا السيد فيليب يعتبرني

كواحد من أبنائه. يثني عليّ ويمدحني في حضور زواره، ولاسيما إذا كانوا من المقاولين أو من أصحاب المشاريع التجارية الهامة. فهو يبغي مساعدتي، دفعي إلى الأمام، ترقيتي في عملي». «إنه يبغي مساعدة ابنته في النهاية، كانت تجيبه بهية وهي تبتسم؛ فإذا ما رفع من شأنك أمَّن لماتيلدا شروط حياة أفضل؛ وإن رعى مصلحتك فخدمة لمصلحة ابنته!...». لكن يوسف كان يصرّ على «تقديس» السيد فيليب وعلى تصوير داره وكأنها ضرب من معبد لا يتخطى عتبته إلا من اعتلى مقاماً على عامة القوم.

ولن تنسى لطيفة يوم قصدت تلك الدار، بصحبة يوسف وأمها، تلبية لدعوة على الغداء كانت قد وجّهت إليهم قبل أسبوعين من موعدها. مهلة استغلّها يوسف لتلقين شقيقته آداب المائدة وأصول التصرّف في المجتمع. «هل نحن آتون من وراء البقر؟»، سألته ذات مرة بامتعاض ومرارة. «أبداً، أجابها الشاب، الشديد الاعتزاز بأسرته وبأصوله؛ غير أننا انتقلنا من عالم إلى آخر». وقد شعرت لطيفة، بالفعل، بأهمية هذه النقلة حين دخلت دار السيد فيليب أسود. بل أحسّت بها حتى قبل أن تجتاز عتبتها. فلا الحديقة الأنيقة التي تتقدمها، ولا السلم الرخامي المؤدي إلى بابها الخشبي اللمّاع، الذي تصدّرته لوحة نحاسية حملت اسم صاحب البيت، ولا نور الشمس المنسكب بسخاء من نافذة في قفص السلم، ولا السجادة الحمراء الأنيقة التي غطت درجات هذا السلم، ما من تفصيل في هذه التفاصيل التي رصدتها في لمح بصر يجد ما يوازيه في بيت حي الصليبة، بل ولا حتى في البيت الذي شيده جدها يونان في ماردين. وقد تعمّق شعورها هذا حين دلفت إلى الدار، بل تحول إلى بلبلة واضطراب عندما دعيت إلى الجلوس حول مائدة عمرت بالكؤوس والصحاف وأدوات الطعام المفضّضة.

تسلّحت بتعاليم يوسف وتوجيهاته وهي تتعامل مع السكاكين والشُوَك؛ تجنبت طرح الأسئلة وتفادت الكلام وفمها مليء بالطعام. اكتفت منه على كل حال، بالقليل، لا من قبيل الخجل، بل لانقطاع شهيتها من شدة تركيزها

على الحركات التي يتعين عليها أن تؤديها. وكانت الجلسة ستنتهي على خير ما يرام لو لم تقدم السيدة أسود، أي مدام ليندا، على لفظ كلمة «فرمشية». كانت تتحدث عن مخزن العقاقير الذي يملكه زوجها، فإذا بها تسميه «فرمشية» بدلاً من «ازدخانة». وانبرى يوسف يوضح أن الكلمتين مترادفتان، وأن الأولى تعني الثانية والعكس بالعكس؛ فإذا بلطيفة، الغافلة للحظة عن تعليمات شقيقها وتوجيهاته، تعقّب قائلة بنبرة مرحة: «يو! واحدة أصعب من الأخرى... مثل أساميكم في هذه العائلة...». انفغر فم أدريين دهشة، وانزمّت شفتا مدام ليندا غيظاً، وسقطت الملعقة من يد يوسف ارتباكاً وبلبلة. وحدها ماتيلدا اختارت أن تضحك. ربتت على كتف الفتاة الجالسة إلى جوارها، والمتمنية لو تنشقّ الأرض وتبتلعها، وقالت بلهجة مداعبة: «أنت على حق!... فمن الصعب حفظ أسامينا ولفظها لأنها أجنبية... لماذا اخترت لنا؟... لست أدري...». فتدخّل يوسف ليصحح هفوة أخته مؤكداً أن «تلك هي حال الأسماء عموماً في أسر حلب الكريمة؛ ولئن مالت المسيحية من بينها إلى الأسماء الفرنسية، فإن الأسر المسلمة تميل، هي، إلى الأسماء التركية».

طويت صفحة الأسماء بعد هذا وانشغل الحضور عن لطيفة التي آثرت الصمت إلى أن غادرت دار السيد فيليب. وقد صارحت أمها في طريق العودة قائلة: «إن ماتيلدا فتاة طيبة حقاً، بخلاف بقيّة أفراد أسرتها». وترددت قليلاً قبل أن تضيف: «يتعين علينا أن نجدّ في البحث عن بيت جديد؛ فمن غير المعقول أن تسكن ماتيلدا في حي الصليبة». وهكذا كان.

-55-

أيام ثلاثة انقضت على قدوم المولود الجديد ويوسف يتأبى عن الإفصاح عن الاسم الذي اختاره له. وحدها ماتيلدا وُضعت في السر؛ بيد أنها رفضت الكشف عنه رغم أسئلة العائلة الملحّة. أسئلة مشحونة بالدهشة، بل بقدر من الاستنكار. فما مبرر هذا السلوك الخارج عن المألوف؟ ومتى كان اسم الوليد يُعتبر سراً من أسرار الدولة حتى يصار إلى كتمانه؟ وكانت أديبة السبّاقة إلى لوم الأبوين الشابين على موقفهما الغامض، وإن حمَّلت المسؤولية لماتيلدا في المقام الأول. كانت تعزو تكتّمها، تارة، إلى «رغبة بنت أسود في التمايز عن سائر البشر»، وتعلله، تارة أخرى، بإصرارها، ولا بد، «على فرض اسم أعجمي، صعب اللفظ ونادر التداول، يخجل يوسف من الإفصاح عنه...». وربما كانت التساؤلات ستستمر لأيام أُخَر، مع ما يلازمها من أخذ ورد، ومن تخمينات واتهامات، لو لم يبادر سليم إلى تحدي شقيقه بحضور سائر أفراد الأسرة المجتمعين في دار شارع النيّال الفسيحة. فقد سأله بنبرة هازئة، وهو يرفع الوليد الجديد بين ذراعيه:

- قل لي يا يوسف، كيف يتعين عليّ أن أدعوك بعد اليوم؟ أبو الهول؟ أم أبو السلطان؟ أم أبو الطفران...؟

فأجابه يوسف:

- بل قل يا أبا كريم!

- يا أبا كريم؟ ولماذا؟... هل...

فهزّ يوسف رأسه مؤكداً.

ومضت لحظات قبل أن يدرك الحضور ما تنطوي عليه تلك الإشارة: أي أن العم كريم قد لاقى وجه ربه.

- وصلني النبأ المفجع، أوضح يوسف بصوت حزين، قبيل ولادة بكري. لقد نقله إلي شخص من آل جاموس قدم من ماردين قبل أيام. وصديقنا الشيخ مصطفى حمدان هو الذي أوصاه بأن يسأل عنا في حلب كي ينعي إلينا نبأ وفاة العم المسكين...

وابتسم يوسف بمرارة وهو يضيف:

- وقبل أن أجفف دموعي، قبل أن أستوعب تماماً فداحة الفاجعة التي ألمّت بنا، كان أجير الأزدخانة يأتيني مهرولاً إلى الفندق ليبشّرني بخلاص ماتيلدا، ويعلمني بأنني أصبحت أباً لصبي ولد سليماً ومعافىً... لقد جاء الصبي حاملاً معه اسمه؛ فقد عزمت، في الحال، على إعطائه اسم كريم. سوف يكون عزاءً لي ولكم جميعاً... لقد احترتم في تفسير أسباب تستُّري على اسم الوليد؛ ولكن ماذا كان عساي أن أفعل؟ لو أفصحت عنه لتساءلتم: ولماذا؟ لماذا أطلقُ اسم كريم على بكر أولادي والعم كريم لا يزال حياً يرزق... كنت سأضطر إلى أن أنقل إليكم النبأ المحزن. وقد عزّ عليّ أن ألفّح بالسواد لحظة فرح كبرى...

- حسناً فعلت! قالت بهية؛ فالأحياء أولى من الأموات، وسوف يعوّضنا كريم الصغير عن كريم العزيز، الغالي والأبي الذي تركناه في ماردين مع من تركنا من أحباء...

وارتجف صوتها وهي تضيف:

- سوف يرقد في التراب الذي ضم زكريا وممدوح... ما كنت أتصوره قادراً على أن يعيش خارج ماردين في مطلق الأحوال.

- ولماذا لم يعلمنا الحج حمدان بتدهور صحته، سأل سليم بانفعال؛ كنا سنذهب إليه! كنا سنقف إلى جانبه في محنته الأخيرة!... يصعب عليّ أن أتصوّره يحتضر وما من قريب إلى جواره...

وانفجر سليم بالبكاء قبل أن يتم عبارته. أحاط يوسف كتفي شقيقه بذراعه وقال:

- كيف نذهب إليه يا سليم؟ فهل استقرت الأوضاع مع انتهاء الحرب؟ وهل كان سيسمح لنا أصلاً بالعودة إلى ماردين؟ حاول سوانا ولم يفلح... «طلعة بلا رجعة» قيل لهم؛ مُغادرة بلا عودة. وإلى أين العودة على كل حال؟ فبيوتنا قد صودرت، وأراضينا وزّعت على فلاحين أتراك، ومدارسنا أغلقت، أما كنائسنا العشر وأدريتنا الثلاثة فقد غدت في حالة يرثى لها!...

وتابع يوسف بعد لحظة صمت:

- لقد توهم بعض من إخواننا الأرمن أنهم سوف يستردّون أملاكهم وأرزاقهم بعد أن تعاقبت لجان تقصي الحقائق على المنطقة، ورفعت العشرات من التقارير إلى عصبة الأمم تصف فيها عذاباتهم ومآسيهم. ولكن بدلاً من أن يعودوا إلى بيوتهم وأراضيهم سيقوا إلى بيروت حيث جرى تجميعهم في منطقة تسمى «الكرانتينه».

- ماذا؟ سألت روزين وأديبة وبهية في آن معاً.

- «الكرانتينه»، كرر يوسف؛ إنها، على ما فهمت، منطقة تقع بجوار المرفأ وتخصص للحجر الصحي: ففيها يحتجز، لمدة أربعين يوماً مبدئياً، كل من يشتبه بإصابته بداء خطير، أبشراً كان أم بهيمة. لقد حُشر النازحون الأرمن في تلك المنطقة ريثما يفرجها الله عليهم.

- ريثما يستردون عافيتهم في تلك المنطقة «الصحية»، عقّب سليم بمرارة.

عبود رشو الذي من عادته أن يظل قابعاً في زاويته، يصغي ولا يتكلم، خرج عن صمته المألوف ليقول:

- يبدو أن بعض النساء والأطفال، من أرمن وسريان وكلدان، فضّلوا البقاء في دور من خطفهم أو اشتراهم على أن يهيموا على وجوههم بلا سند ولا عضد. فماذا عساهم يفعلون في بقاع لا يعرفون فيها

أحداً؟ وكيف يتدبرون أمر معيشتهم وقد فقدوا ذويهم، وأقاربهم، ومعارفهم؟...

وفيما اختلطت الأصوات، هذا يقول: «شيء لا يصدق»، وتلك: «أمر غير معقول!»، وأخرى: «يا حسرتي على الضعفاء والمساكين»، دنت لطيفة من يوسف، شدت على ذراعه لتستقطب انتباهه وسألته وهي تحدّق النظر في وجهه: «متى حصل ذلك؟».

لم يفهم يوسف مغزى سؤالها للوهلة الأولى. ولما مكثت تنعم النظر فيه، تنتظر منه جواباً، أدرك عما تستفسر. قال وهو يبتسم بحزن:

- في أواخر الشهر المنصرم؛ قبل ستة أسابيع تقريباً...

- هذا ما توقعت، أجابت؛ لقد فارق إذن الحياة يوم رأيته في المنام!

- هل رأيته في المنام، سأل يوسف؛ هل حلمت بالعم كريم؟

أومأت الطفلة برأسها وأجابت:

- أجل، وكان حلماً جميلاً، فرحاً، رائعاً... رأيت نفسي في نزهة مع عمي، على ظهر جواد أبيض. نزهة أعادتني إلى عهد طفولتي، إلى أيام سعيدة، خالية من الهموم والأحزان. صعدنا حتى القلعة، عبر دروب تحيط بها الكروم وبساتين الكرز والتين. كان عمي يغنّي وجواده يصهل، وأنا أصفق بيديّ الاثنتين بحمية واندفاع. بلغنا المطلّ الذي طالما اعتدنا على الوقوف عنده لنتأمل ماردين ببيوتها الحجرية، البيضاء والصفراء، وبأسطحها المتدرجة وبساتينها الغنّاء وحقولها الخضراء، فإذا بالعم كريم يختفي على حين غرة؛ يتبخر في لمح البصر؛ يغيب عن عيني لثوانٍ، ليتجلى لي، بعدها، على شكل نسر. أجل، نسر عريض الجناحين، أسود الريش، جليل المظهر، ينطق كل ما فيه بالقوة والعظمة. نسر له وجه عمي كريم الذي كان يبتسم وهو ينظر إليّ بثقة واعتزاز. وقبل أن أستفسره عن سر تحوّله بادرني قائلاً: «ما عدت كسيحاً مقعداً كما ترين؛ إن الآفاق الرحبة قد غدت

فراشي. سوف أحلق في الأعالي وأعانق ماردين بجناحي». وفجأة تلبّس وجهه حزن عميق فأضاف: «وسوف أكون العين الساهرة عليكم جميعاً. ليحرسكم لله». تفوّه بهذه الكلمات وتلاشى. أو ربما أنا التي استيقظت من النوم...

كانت بهية قد دنت من ابنتها مصغية باهتمام إلى ما روته ليوسف. وكان تعقيبها:

- لقد كان الموت خلاصاً بالنسبة إلى العم كريم؛ فقد حرره من أسر دام لأعوام طويلة... ليرحمه الله ويرحمنا جميعاً. كان إنساناً شجاعاً، شريفاً وطيباً... لقد غدا لنا، على كل حال، كريم جديد يعزّينا عن الذي فقدنا. كريم حلبي نتمنى له النجاح السعادة!

وتدخّل سليم ليقول:

- أمن المعقول أن ننقطع نهائياً عن ماردين؟ ألّا نعود إليها يوماً؟ ألّا يعرفها أبناؤنا؟... يصعب عليّ تصور ذلك!... ويصعب عليّ أكثر أن أُنشئ أولادي في مدينة يزدري أهلها بأهلهم لأنهم مهاجرون!

- ما هذا الكلام؟ أجابت ماتيلدا بنبرة صوتها الهادئة؛ وحدهم ذوو العقول الصغيرة يقيّمون الناس على أساس منشئهم...

وتابعت تقول وهي تبتسم:

- إن فتيات حلب يرحّبن بعريس مارديني الأصل، إذ شاع عنكم أنكم تدللون نساءكم وتنفقون عليهن بسخاء.

ضحك سليم وأجاب:

- ليتني علمت بذلك قبل أن أتزوج!

وإزاء النظرة الزاجرة التي رمته بها مريم سارع يضيف:

- لست جاداً فيما أقول طبعاً... ولاسيما أني غير قادر على الإنفاق!

يوسف، الذي كان يصعب عليه أن يستمع إلى أي حكم أو رأي ينال من مكانة ماردين وأهلها، انبرى يوضح برسم زوجته:

- لست أدري إن كنت قد حدثتك عن اقتصاد ماردين في القرون الماضية. فإلى جانب إنتاجها الوفير من الحبوب والفاكهة على أنواعها، كانت مدينتنا قد طورّت صناعتي النسيج والجلود. المصانع فيها كانت تُقدّر بالعشرات، ونتاجها كان يوزع على معظم أسواق الأناضول، ويباع أيضاً في سوريا والعراق... كانت ماردين، في فترة من الفترات، تنافس أورفة، والموصل، بل حلب نفسها!

- لا تبالغ! قاطعته بهية وهي تبتسم؛ فأين ماردين من حلب؟

- لست أبالغ، أجاب يوسف؛ فبحسب إحصاء أجري قبيل اندلاع الحرب، قُدِّر عدد مخازن ماردين ودكاكينها بأكثر من سبعمئة؛ أما سكانها، وأعني سكان مدينة ماردين حصراً دون قضائها، فقد قدَّرهم عالم إنكليزي في مطلع هذا القرن بخمسة وثلاثين ألف نسمة، عشرة آلاف من بينهم من السريان، وستة آلاف من الأرمن.

- والبقية؛ سألت ماتيلدا باهتمام.

- من العرب المسلمين، والأكراد، والكلدان، والبروتستانت. وقد تعايش الجميع بأمان على مدى قرون. وفي ماردين كان يُسمح للمسيحيين بركوب الخيل، وبارتداء ملابس خضراء اللون، وبتحيّة المسلمين بعبارة: «السلام عليكم». امتيازات قلّما عرفها إخوانهم في مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية.

ضحكت ماتيلدا واكتفت بأن قالت:

- يا لها من امتيازات!...

لم يعر يوسف هذا التعليق بالاً؛ بل مضى يقول:

- حلب هي على شاكلة ماردين أيام زمان؛ إنها مدينة متسامحة يتعايش فيها الناس على اختلاف هوياتهم وأديانهم وطوائفهم. في تربتها الخصبة سوف نرسي جذوراً جديدة لنا، فنعطيها وتعطينا.

وأمسك يوسف للحظة عن الكلام قبل أن يضيف:

- لن تنقضي سنوات حتى تصبح لنا مكانتنا في هذه المدينة؛ حتى نغدو من أعيانها ورموزها.

- كلام ينطبق على التشيلي أيضاً، قالت روزين ممازحة؛ فلا تنسَ أن أبي وشقيقيّ قد أصبحوا هنالك. فلمَ لا يبرز الماردينيون في أميركا أيضاً؟

- بل وفي إسكندرية مصر كذلك، زادت أديبة؛ أفلم تهاجر إليها أسرة العم رزق الله؟

- ولماذا تسقطون من حسابكم زحلة والسنجار، سأل سليم؛ أفلم تنتقل أسرة عمتنا وردة إلى الأولى وتستقر أسرة عمتنا سلمى في الثانية؟ فهل آل كنعان ونعمة أقل شأناً من آل مسعود؟...

- معاذ الله! قالت بهية قبل أن تضيف بنبرة متهكمة: سوف تغزون العالم بأكمله إذا ما استمررتم على هذا المنوال!

وكان الحديث عن مستقبل أهل ماردين الباهر سيطول لو لم يبادر عبود رشو إلى القول:

- لقد التقيت بالأمس في دار عبد الجليل جرجور بشاب من آل خياط غادر ماردين قبل أسابيع. كان قد التحق بدير الزعفران ليصبح كاهناً، غير أنه عدل عن الكهنوت بعد أن أصبح شماساً.

واستدارت أديبة نحو لطيفة، التي احمرّ وجهها لشدة انفعالها، واستفسرتها قائلة:

- أتراه شقيق صديقتك فهيمة؟

- وكيف لي أن أعلم، أجابتها محتدة قبل أن تنسحب من الجلسة وتلتجئ إلى المطبخ.

- ماذا دهاها؟ سألت أديبة مستغربة وهي تجيل نظراتها على الحضور.

- لم تعد طفلة، أجابتها بهية؛ أصبح لها مزاج.

- بل أصبحت في سن الزواج، زادت روزين.

- يتعين علينا إذاً أن نبحث لها عن عريس، قالت مريم.

- نبحث لها عن عريس؟ صاح سليم محتجاً؛ نزوّجها؟ مستحيل. لن أتخلى عنها لأي كان... إنها صغيرتنا، لن أدعها تكبر!...

(سيتابع أبطال هذه الرواية حياتهم في جزء تالٍ)

من مؤلفات الكاتبة:

- **الظهر العاري**	رواية	دار الآداب	١٩٩٩
- **خماسية الأحياء والأموات**	رواية	دار المدى	٢٠٠٣
- **الدمية الروسية**	قصص	دار المدى	٢٠٠٥
- **كيمياء البشر**	رواية	دار المدى	٢٠٠٨

وداعاً يا ماردين

الذاكرة لا تخمد ما دام الراهن يستدعيها. وعندما تمتلئ الذاكرة البعيدة بصور القهر والاضطهاد وعندما تطغى على الذاكرة القريبة الصور ذاتها، مع اختلاف الناس والزمن والجغرافيا، لا يمكن لحاملتها - إن كانت كاتبة - إلا أن تعيد تظهير جميع الصور المتناثرة في ذاكرتها، سواء منها ما عاشته أو ما عايشته من خلال ذاكرة الآخرين. فالذكريات الأليمة ما لم تُبلسَم بالتسامح تبقى كالجرح غير المندمل تنكأه أبسط الأحداث فيعاود نزَّ الآلام.

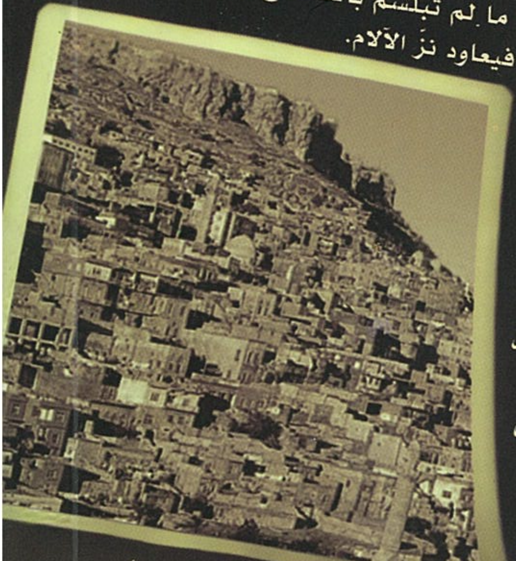

بعمق الروح المتسامحة، غير الغريبة عن هنرييت عبودي التي كانت ترجمت للقارئ العربي رسالة ڤولتير عن التسامح، تروي لنا الكاتبة بسرد مشوق تاريخ أسرتها السريانية وحكاية مدينة ماردين، وحكاية ديار بكر وولايات الأناضول الشرقية، بل حتى حكاية أهالي مدينة حلب التي فتحت صدرها للمنكوبين. فنتعرف من خلال أحداث الرواية على جانب مهم ومؤثر من تاريخ المجتمع السوري الحديث.

وتصور لنا الرواية على لسان أبطالها، وبلغة نابضة بالواقعية، درب الآلام الذي سلكه السريان العرب هرباً من المذابح وحملات التهجير التي تعرضوا لها في الربع الأول من القرن العشرين عندما عصفت بالإمبراطورية العثمانية المحتضرة الرياح المجنونة للعصبية الاثنية الطائفية التي ما برحت تضرب بالجنون نفسه في شتى أرجاء منطقتنا وكأنها قدرنا الذي لا تخمد ناره تحت الرماد.

«من الظلم أن تكون آلاف مؤلفة من الضحايا البريئة قد قضت في لحظة من لحظات جنون التاريخ من دون أن تجد من يرثيها ويروي فاجعتها؛ فللحقيقة حقها وللتاريخ حقه، وكذلك لروح التسامح الذي ترى هنرييت عبودي فيه وسيلتنا لمواجهة ذلك القدَر: لهذا كتبت روايتها مودِّعة ماردين.